دكتور
عبد الفتاح مقلد الغنيمى



دور مصر الحضارى في القارة الأفريقية قبل الاستعمار الأوروبى

إهـــــــداء ٢٠٠٦

الدكتورة / ضياء محمود أبو غازي
القاهرة

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

دور مصر الحضــارى
فى القارة الأفريقية
قبل الاستعمار الأوروبى

الأهداء

إلى شعب مصر العظيم . شعب القرآن والسنه . شعب التاريخ والحضارة ، شعب الكدح والكبد ، شعب العراقة والأصالة شعب آلقت عليه الاقدار احمالا تنوء بحملها الجبال فكان اصلا لما حمل حمل وتلك صوره لبعض ادواره فى هذه الدراسة .

١٨ أغسطس ١٩٩٢

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

التمهيد

مصر الخالدة الرائدة القائدة الظافرة المنتصرة ، هى مصر فى كل أدوارها التاريخية منذ أن خلق الله الأرض إلى أن يرثها ومن عليها ، بل أن مصر ستظل اسما يتردد عاليا فى الآفاق شامخا فى عنان السماء ، رغم كل الظروف والصعوبات المعاصرة ، كما أن مصر كما هو قدرها وكما هو دورها فى كل الفترات التاريخية ، هى الزعامة السياسية والروحية والدينية - مصر الأزهر الشريف كعبة العلم وركن الدين الوطيد ومنهل المعارف والعلوم الذى تنهل منه كل الشعوب العربية والإسلامية ، مصر التاريخ قاهرة المغول والتتار والصليبيين ، مصر رمضان أكتوبر ١٩٧٣ وعمق العلاقات العربية المعاصرة .

مصر الحضارة الأصيلة التى يمتد تاريخها إلى عمق الزمن ، مصر فى شخصيتها وفى تواضعها وفى أبنائها المنتشرين فى البقاع المحيطة وأدوارهم المختلفة من أجل المساهمة الفعالة - لصالح العروبة وأفريقيا . إن الدور الذى لعبته مصر وتلعبه حاليا وستظل تلعبه لا يمكن أن يدانى أو يطاول مهما كانت الظروف والأحوال ، فلو أن مصر فعلت كما يفعل غيرها ، ولم تقدم نفسها وأهلها عونا ومساعدة ومساندة لكل من يطلب منها كما كانت تعانى من مشكلة الديون الخارجية ، إن مصر لازالت تؤثر على نفسها رغم ما بها من خصاصة .

لقد كانت كل هذه الأدوار والمسئوليات هى الدافع القوى والمؤثر لكى تحرك فى نفسى تلك المشاعر لكى أقوم بوضع هذه الدراسة عن دور مصر الحضارى فى القارة الأفريقية .

فهل تكون تلك الدراسة حافزا لكل مصرى لكى يعمل من أجل مصر وأدوارها التاريخية .

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، القادر المعين ، والصلاة والسلام على صفوة خلقه أجمعين محمد بن عبدالله النبى الخاتم وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد

فتلك هى دراسة عن دور مصر الحضارى فى القارة الأفريقية فى العصور الإسلامية أو العصور الوسطى أو ما يمكن أن نطلق عليه عصر ما قبل استعمار القارة الأفريقية ، قصدت منها أن أبين الدور المصرى البارز والفعال والمؤثر فى الساحة الأفريقية ، وكيف أن مصر جادت بعطائها فأحسنت العطاء فى مختلف العصور الإسلامية من منطلق واجبها المقدس تجاه الإخوة الأفارقة ، ومحاولة الأخذ بيد هذه الشعوب إلى مدارج الرقى الحضارى . ولقد برز دورمصر منذ الفتح الإسلامى ، حيث طبعت مصر بالطابع الإسلامى ، ومن هنا خرج المصريون يحملون لواء الإسلام ومشعل الحضارة الإسلامية دعاة هداه فى كل أرجاء القارة ، وكيف أن ذلك الدور اكتسب صورة مصرية قوية بظهور مدرسة الفسطاط (جامع عمرو بن العاص) والجامع الأزهر الشريف كعبة العلم وركن الثقافة وملاذ العلماء والمفكرين وجهابذة الدين والفقه ومقصد طلاب العلم من كل أنحاء القارة الأفريقية بل من كل أنحاء العالم . وكيف قدم هؤلاء الطلاب إلى مصر لكى ينهلوا علومهم الإسلامية من هذا المنهل الصافى العذب الذى ضم أئمة الفقه والدين والتفسير والحديث والفلك والرياضة وكل علوم العصور .

وكيف كانت الخلافة العباسية والأزهر الشريف والانتصارات المصرية على المغول والتتار والصليبيين سببا فى أن جعلت مصر مقصد الرسل والملوك والسفراء ، وكيف أن مصر مارست دورها من خلال الرؤية العلمية الصحيحة باعتبارها قلب العالم الإسلامى والدولة الإسلامية الكبرى الرائدة فى ذلك العصر .

وعلى هذا كان ذلك البحث عن دور مصر الحضارى - السياسى والاقتصادى والثقافى وأثره فى كل شعوب القارة - بيانا واضحا وشاهدا على أن القدر ألقى على مصر مسئولية القيام بواجبها تجاه أبناء القارة .

وقد قسمت تلك الدراسة إلى أربعة أبواب ، وكل باب قسم إلى عدة فصول . وتناولت فى الباب الأول موقع مصر الجغرافى وطرق اتصالها بعالم القارة الأفريقية ، ووضحت كيف أن موقع مصر على الباب الشمالى الشرقى للقارة الأفريقية واتصالها بقارات العالم القديم (أوروبا ،آسيا ، أفريقيا) قد أعطاها بعدا متميزا من حيث تأثيرها وتأثرها بالحضارات العالمية ، وكيف أن هذا الموقع قد أسهم مساهمة فعالة فى أداء دورها فى تلك الأقطار ، ثم كان الفصل الثانى فى ذلك الباب عن طرق الاتصال ببلاد القارة المختلفة ، وكيف كان الطريق الشمالى الموازى لساحل البحر الأحمر طريقا بريا موصلا إلى شرق القارة وبلاد الحبشة ، وكذلك كيف لعبت الطرق الصحراوية الممتدة فى الصحراء الكبرى دورا فى إيصالها إلى بلاد غرب القارة ، وكيف كان هناك طريق يخرج من صحراء مصر (بولاق التكرور) حتى يصل إلى شاطىء المحيط الأطلسى ، وكيف كان اتصالها ببلاد شمال القارة (المغرب العربى) عن طريق البحر الأبيض المتوسط،وعن الطريق البرى الممتد بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط .

ثم كان الباب الثانى عن دور مصر الحضارى فى وسط وغرب القارة ، وتحدثت فى الفصل الأول منه عن دور مصر السياسى فى وسط وغرب القارة ، وكيف مارست مصر هذا الدور من خلال الخلافة العباسية التى أقامها المماليك منذ عام ٦٥٩ هـ حتى سقوط مصر فى أيدى العثمانيين عام ١٥١٧ م . وكيف راسل ملوك وأمراء أقطار هذه البلاد سلاطين مصر بشأن طلب اعتراف الخلافة العباسية بهم ، وكيف أن موقع مصر فى طريق الحج قد أعطاها بعدا آخر لممارسة دورها السياسى واستقبالها للملوك والأمراء والوزراء الذين كانوا يصحبون قوافل الحجاج ، وكذلك كان دور مصر الثقافى فى تلك البلاد وكيف وفد أبناء هذه الأقطار فى وسط وغرب القارة إلى مصر لكى يتعلموا فى الأزهر الشريف . وكيف رحل علماء مصر إلى تلك الأقطار لكى يساهموا فى نشر الثقافة العربية الإسلامية ، وكيف أفرد الأزهر الأروقة لطلاب هذه المناطق لكى ينهلوا من علوم الأزهر .

كذلك كان الفصل الثالث عن دور مصر الاقتصادى فى تلك البلاد وكيف ساعدت مصر فى تصريف منتجات تلك الأقاليم ، وكيف قدمت لها كل

ماتحتاج إليه من المنتجات المصرية الراقية ، وكيف عرفت شعوب تلك المناطق العملة المصرية من الدراهم والدنانير المصرية وغيرها .

كذلك كان الباب الثالث عن دور مصر الحضارى فى بلاد شرق أفريقيا والحبشة ، وتحدثت فى الفصل الأول عن دور مصر السياسى مع إمارات الحبشة الإسلامية (ممالك الطراز الإسلامى) وكيف وقفت مصر تشد من أزرها وتساعدها ضد المحن التى تتعرض لها ، وكيف أرسل حكام هذه الإمارات الوفود إلى مصر طلبا للمساعدة كا يثبت دور مصر من خلال الكنيسة القبطية بالإسكندرية وكيف كانت ترسل البطريرك إلى الحبشة بناء على طلب الحبشة ورسائل ملوكهم إلى سلاطين مصر ، وكيف أقام هؤلاء المطارنة المصريون فى بلاد الحبشة .

كذلك كان الفصل الثانى عن دور مصر الثقافى فى بلاد الحبشة وشرق أفريقيا ، وكيف أن مصر ساعدت عن طريق المصريين فى انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية وكيف أن الأزهر والمدارس الإسلامية الأخرى ساهمت أيضا فى نشر الثقافة العربية ، وكيف شد الرحال أبناء هذه الإمارات فى جنوب القارة (موزمبيق جنوبا) وكيف ظهر علماء من أبناء هذه المناطق فى مصر وكيف أن المطارنة المصريين ساعدوا فى تثقيف أبناء الحبشة وكذلك إرسال الأزهر للوفود إلى بلاد الحبشة أيضا .

وكذلك فى الفصل الثالث تحدثت عن دور مصر الاقتصادى فى تلك المناطق بعد سيطرتها على البحر الأحمر وسوق التجارة الشرقية ، وكيف اتخذت موانئ شرق أفريقيا محطات للاساطيل التجارية المصرية ، وكيف كان الوجود المصرى الاقتصادى ، وكيف رحل التجار المصريون إلى كل هذه المناطق (تجار الكارميه) ووصلوا إلى الحبشة وإلى حوض الكونغو وهضبة البحيرات ، وكيف كان الدور الاقتصادى المصرى فى ذلك الوقت الذى كانت فيه قطب التجارة العالمية حيث يقدم إليها التجار من كل بلاد العالم .

أما الباب الرابع فيتناول دورمصر الحضارى فى بلاد المغرب العربى أومانطلق عليه شمال أفريقيا. فتحدثت فى الفصل الأول عن دور مصر السياسى فى تلك المناطق وكيف مارست مصر دورها منذ دخول الإسلام إلى تلك المناطق وكيف عمل ولاة مصر فى بسط النفوذ الإسلامى ، وكيف تحملت مصر كل الأعباء المالية والمؤن والرحال ، وكيف كانت تتم المراسلات

بين سلاطين مصر وسلاطين بلاد المغرب ، وكيف تم تبادل السفراء بين الأطراف ، كذلك كان الفصل الثانى عن دور مصر الاقتصادى فى بلاد المغرب وكيف أن مصر فتحت أبوابها أمام التجار،وكذلك فى المقابل فعلت المغرب وكيف أن المنتجات المصرية والشرق الإسلامى والأقصى بمنتجاته التى كانت تصل إلى المغرب،وكيف أن ذلك كان يشكل حلقة من حلقات التكامل الاقتصادى العالمى الإسلامى ، كذلك كان الفصل الثالث عن دور مصر الثقافى فى إثراء جامعة القرويين والقيروان ومسجد الزيتونة وغيرها من المراكز الإسلامية فى تلمسان ، وكيف أن الأزهر ومدرسة عمرو بن العاص فى الفسطاط لعبت الدور الأساسى فى نشر المذهب المالكى فى تلك الأنحاء ،وكيف شد أبناء المغرب الرحال إلى مصر لتلقى علوم المالكية على أيدى العلماء المصريين ، وكيف رحل علماء مصر إلى القيروان وفاس وتلمسان وغيرها من بلاد المغرب المختلفة .

ثم جاءت فى النهاية خاتمة البحث وهى خلاصة ماتوصلت إليه فى تلك الدراسة وبعدها جاء دور المصادر والمراجع العربية والأجنبية والتى كانت العمود الفقرى الذى بنيت عليه تلك الدراسة حتى كانت على صورتها التى نقدمها للقارىء المصرى والعربى والأفريقى والإسلامى وغيرهم من القراء لكى يدركوا دور مصر فى كل العصور.

وفى النهاية أرجو من الله العلى القدير أن أكون قد تمكنت بقدر المستطاع من أن أبين دور مصر الرائد والقائد فى القارة الأفريقية فى تلك الحقبة التى تناولتها الدراسة .

والله ولى التوفيق

الملك فيصل .

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

العاشر من محرم ١٤٠٦ هـ / ٢٥ سبتمبر (أيلول ١٩٨٥ م) .

الباب الأول
« الموقع الجغرافى لمصر بالقارة »

إن الحديث عن دور مصر فى أفريقيا يحتم الحديث عن الموقع بالنسبة للقارة الأفريقية ، ذلك لأن موقعها على بوابة أفريقية الشرقية الشمالية قد منحها به الخالق الأعظم بعدا عميقا فى المكانة الجغرافية حيث النيل والأرض ، وكذلك بعدا عميقا حيث التأثير الحضارى والثقافى والعمرانى والسياسى على مر العصور والدهور ، وفى ذلك فإن حجم الموقع الذى وضعت فيه فى ذلك البعد الجغرافى لايتكافأ على الاطلاق مع خطورة الموقع الحاسم على ناصية العالم القديم .

ومن هنا كان دور مصر فى قوتها الكامنة كفلته ندرة الموقع ومن هنا كانت نظرتها الأفريقية هى بالضبط مثال النهر المتكامل المنطلق إلى الجنوب،ولكنها أيضا بالدرجة مثال الصحراء التامة أيضا التى تربطها بالشمال الأفريقى وغرب القارة الأفريقية .

ذلك لأن الصحراء شبه المساحة تعد مصر إحصائيا أكبر وأكثر الدول صحراوية فى العالم ، لكن تلك الصحراء ساعدت أيضا على أن تمارس دورها التاريخى فى القارة الأفريقية .

ومن هنا كانت مصر دولة الصحراء الاولى فى العالم بمثل ماهى دولة النهر الأولى ، وسيادة صحرائها ليست بالكم فقط ،ولكن بالكيف أيضا حيث المسارب والمفارز والدروب والمدقات الصحراوية الممتدة بها مصر بصحراواتها تأتى قمة الصحراء الكبرى مثلما هى قلبها . ومن هنا كانت مصر فى حكم

الواحة الصحراوية . أنها فى الصحراء ولكنها ليست منها . أنها واحة ضد صحراوية بل ليست بواحة شبه واحة هى ، فهى لاتنفصل عن إطار الصحراء أكثر مما تبتعد عن البحر .

ومن هنا مصر الوادى عبارة عن خدش بسيط ضحل على صفحة الصحراء ، خدش سطحى بقدر ما هو طويل مديد يمارس دورة فى قلب القارة الأفريقية وحتى مصر الصحراء نفسها خارج الوادى لاتعد مرتفعة بشكل خاص فأغلبها قطاع من أفريقيا الوسطى السفلى هضبة أقرب إلى السهول العالية ، إنما أخص ما يتميز به سطح مصر الصحراوية هو المنخفضات الغائرة التى تقع تحت مستوى سطح البحر ، وهذا ساعد على كثرة الدروب والمسارب الصحراوية .

لهذا فإن مصر الوادى تبدو من وجهة الجغرافيا الإقليمية إقليما رئيسيا سائدا واحدا على الجملة ، ومن هنا كانت ملامح الموقع المصرى لكى يؤدى دوره فى القارة الافريقية تعد من أخطر مفاتيح الأدوار المصرية على تلك الساحة ، ذلك لأنه من هذا الدور تتفاعل جوانب الموقع مع جوانب الموضع إما فى تلاق وتلاقح أو فى تعارض وتناطح ، ولقد كان دورها فى أفريقيا تلاق وتلاقح وبهذا كان لها دور التفاعل الخلاق فى أفريقيا حتى يبلغ الدور المصرى منتهى مداه ومدى آفاقها الواسعة ، وتخرج مصر فى ذلك بأنها واسطة العقد ومتوسطة الدنيا وسيدة الحلول الوسطى .

إذن كان موقعها فى القارة دون المدارية بعروضها وإن لامست أطراف المدار فى الجنوب ، ولكنها متوسطية بعرضها وإن تماست معه بالكاد ولكنها أيضا موسمية بجذورها وأصولها المائية وهيدرولوجيتها الجيشية . وهكذا جمعت مصر فى آن واحد بين قلب أفريقيا وقلب العالم القديم حيث تمارس أدوارها التاريخية ، وأخذت فى المداريات زيدها دون زبدها فظفرت من النيل بجائزته الكبرى دون موقعه الداخلى السحيق ، فإذن هى أفريقية بالموضع متوسطية بالموقع بيد أنها كذلك أسيوية بالموقع فكما أنها تقوم بالجغرافيا فى أفريقيا فإنها أيضا تقوم بالتاريخ مثلها مثل آسيا فهى البلد الوحيد الذى تلتقى فيه القارتان ويقترب فى الوقت نفسه من أوروبا يشل أنها الأرض الوحيدة التى يجتمع فيها البحران المتوسط والأحمر ».

ومن هنا ساعد هذان البحران على أداء دورها فى شرق أفريقيا،وأيضا فى

الشمال الأفريقى فى كل الأدوار التاريخية وبالذات فى الفترة التاريخية التى هى فترة الدراسة فترة العصر الإسلامى أو العصور الوسطى وذلك لأن البحر المتوسط قلب البحار وبحر الأنهار فعن طريقه كان الطريق البحرى الذى ربط مصر ببلاد المغرب العربى بأقسامه الأربع أوالخمس (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا) والبحر الأحمر بحر بلا أنهار ولكنه بطوله وامتداده وموقعه كالنهرين البحار حيث سهل ذلك أداء دورها فى السودان والحبشة وبلاد شرق القارة وصولا إلى الداخل حتى هضبة البحيرات وحوض الكونغو .

ومن هنا فإن مصر هى أرض الزاويعة فى العالم القديم ، قلب الأرض ومتوسطة الدنيا كما وصفها المقريزى ، وبهذا اللقاء مع التحام القارتين وتقارب البحرين فكأنما كل أصابع الطبيعة تشير إلى مصر وكأن خطة إلهية علوية عظمى قدر بها الخالق الأعظم ليجعل منها قطبا جغرافيا أعظم فى العالم القديم وبالفعل تحقق الوعد الجغرافى تاريخيا فكانت حضارة مصر النيل الأفريقية الفرعونيةُ الحضارة الأولى فى التاريخ الرائدة والمشعل فكيف لاتكون فى عصرها الإسلامى الرائدة والمشعل ، بل الأنوار التى تتجه إليها قلوب الأفارقة .

ومن هنا كان موقعها البؤرى المركزى يسير على ناصية أفريقيا بل ناصية العالم ، لقد كان مستحيلا أن تعيش مصر حضارتها منطوية على نفسها داخل حدودها ، ذلك لأن دور الصحراء التى مارست مصر من خلالها دورها فى الشمال أولى غرب أفريقيا لم تكن عازلا ، لكن مع اجتماع نداء النهر ولقاء البحر وفراغ الصحراء ، خرجت مصر للعالم الواسع أجمع بالتحضر الحضارى وليس القارة الأفريقية وحدها وأصبحت مصر متوسطة الدنيا قبلة العالم وصرة المعمورة ملتقى الشرق والغرب وتجمع الجنوب والشمال ، أن مصر يكاد يأتى إليها كل شىء . ومن هنا كانت تلك الدراسة فى الفترة التاريخية التى آلت إليها فيها زعامة العالم الإسلامى ، وذلك لأنها فى العالم الإسلامى والعربى كالقاهرة نفسها فى مصر أنها أم العرب والمسلمين أكثر منها ابنتهم ، إنها مرآة العالم الإسلامى لاظله ، ومرآة مكبرة بالتحديد فيها يستطيع أن يرى صورته المستقبلية . ومن بروز ذلك الدور كان اختيارى لموضوع دور مصر الحضارى فى أفريقيا خلال الحقبة الإسلامية أو العصور

الوسطى ، ولقد كانت مصر طوال عصرها الإسلامي منذ الفتح العربي الإسلامي وظهور أنوار الدعوة الإسلامية حتى بداية العصر الحديث تمثل مجتمعا راقيا متمدينا صقلته التجارب وحركته الأحداث الدينية والفكرية وتمازجت فيه الحضارات ، وقد تبوأت مصر مركزا ممتازا فى الدولة الإسلامية ، ومن هنا كان ذلك منعكسا على أداء أدوارها فى القارة الأفريقية ، ذلك لأن وقوعها فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية له أثره الذى حتم عليها أن تلعب دورا أفريقيا منذ فجر التاريخ وهى التى حملت لقاح هذه الحضارة الإنسانية التى نمت وازدهرت فى ظل الأمن والاستقرار المصرى إلى ماوراءها من حدود إلى البلاد الأفريقية ، ولقد قامت حضارة قديمة فى غيرها من البلاد الأفريقية إلا أنها لم تؤد ما أدته مصر من رسالة لأفريقيا ، ذلك لأن امتداد نهر النيل إلى الجنوب قد شجع مصر ودفعها على أن تتخذ من هذا المجرى ومن غيره وسائل إلى أداء رسالتها الخالدة من القارة الأفريقية .

طريق وادى النيل :

منذ الأيام الأولى فى التاريخ عرفت مصر طريقها إلى الجنوب عبر النيل ، فشقت طريقها فى صخور الجندل الأول لتحمل بذور المدنية إلى القبائل الأفريقية القاطنة فى الجنوب بالإضافة إلى أن الشعب المصرى لم يلبث أن شق طريقه إلى الجنوب فأخذت الهجرات المصرية تتقدم نحو الجنوب أيضا ، كما كانت هناك أسباب ودواع لهذه الهجرة . وعلى ذلك كان نهر النيل من الطرق الهامة التى استخدمها المصريون القدماء حيث كان لهذا النهر الفضل فى تقدم الحضارة المصرية القديمة التى نمت وترعرعت فى وادى النيل الخصيب وانتشرت بعد اكتمال نموها إلى أجزاء كثيرة من أفريقيا . واستخدم الفراعنة أيضا طريق أعالى النيل . ولعله كان أقدم هذه الطرق لأن ملوك الأسرة الأولى كانوا يستخدمون منتجات بلاد بونت (الصومال) ذلك لأن كثيرا من الوثائق المصرية القديمة تشير إلى كثرة القوافل التجارية التى كانت تسير بين مصر والسودان وهى قوافل السير جنوبا أيام الدولة الوسطى حتى كرمه وهناك ما يؤكد وصول مثل هذه القوافل التجارية المستمرة حتى كردفان وحدود أثيوبيا وشمال منطقة السدود فى الجنوب من ناحية أخرى . وإذا كان ذكر القوافل التجارية قد ارتبط بالحملات الحربية فمن الضرورى أن

نتذكر أن مثل هذا الأمر كان لازما لتأمين التجار وهم يقطعون الصحارى الشاسعة بما معهم من سلع ومتاجر وهكذا كانت مصر تمارس دورها السياسى والاقتصادى والثقافى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد فكانت تتوغل قوافلها بطريق النوبة إما إلى غرب السودان إلى بحر الغزال، وإما فى النيل جنوبا حيث يعيش الاقزام كما بدأت المعرفة والاتصال بشرق أفريقيا وربما جنوبها أيضا .

ويبدو أن أول اتصالات مصرية خارجية ذات شأن مع غرب أفريقيا جنوب الصحراء كانت فى أوائل الأسرة الخامسة وأوسطها ذلك لأنه لم يغب عن أذهان ملوكها أن يلتفتوا إلى أقاليم الجنوب. ويشير إلى ذلك تسجيل اسم فرعون مصر (أوسركاف) على صخور النوبة كما أنفذ خلفه (ساحورع ٢٥٥٣ - ٢٥٣٩ ق . م) أسطولا إلى بلاد بونت عاد محملا بمقادير ضخمة من الذهب والفضة والأخشاب الأبنوس والبخور والعطور . ومن المرجح أن المصريين كانوا يقومون بتلك الحملات منذ عهد التاريخ القديم وربما تكون المحاصيل التى تحملها القوافل إلى مصر كانت من مناطق النيل الأزرق وأعالى النيل ، وعلى أية حال كانت بعثة (ساحورع) أول بعثة مصرية تصل إلى بلاد بونت .

بالإضافة إلى أنه كانت هناك هجرات مصرية قديمة إلى بلاد النوبة أثر سقوط الدولة القديمة وانتهاء عصرها وظهور الفوضى قبل قيام الدولة الوسطى ، ثم جاء عصر الفوضى الثانية أثر سقوط الدولة الوسطى وقدوم الهكسوس والاحتلال الأجنبى . ولقدكان من أثر هذه الهجرات أن حملت معها إلى هذه الاجزاء حضارة وديانة مصر والتى خرجت بأهالى النوبة إلى عصر النور ، فعلى ضفتى النيل قامت المعابد المصرية التى عاشت حولها جاليات مصرية ثم بعد ذلك القرى النوبية فالمقابر النوبية حملت من الطابع المصرى والحضارة المصرية الشىء الكثير .

وعن طريق البحر الأحمر عرفت الحضارة المصرية طريقها إلى بلاد بونت وغيرها من بلاد شرق أفريقيا وحملت جدران المعابد المصرية فى الدير البحرى ماهو دليل حيوى على عمق هذا الاتصال ، وهكذا كان أول ذكر البلاد بونت وإن كان موقعها أو المقصود بها ظل محتملا للنقاش بين الباحثين وخاصة أن المصريين القدماء لم يسجلوا موقع بلاد بونت فى وثائقهم بأكثر

من وصفهم لها بأنها تقع جنوب مصر وسهولة الوصول إليها بحرا وأنهم يحصلون منها على سلع معينة أهمها البخور والعطور والذهب ويختلف الباحثون فى موقع بلاد بونت فمنهم من يراها فى الأراضى الواقعة على السواحل الجنوبية للبحر الأحمر فيما يسمى الآن أريتريا إلى الصومال ومنها ممن يفترض أنها الساحل الأفريقى الممتد من مصوع فى الصومال ، وهذه الرحلات تبين لنا الدور المصرى خارج حدود دولتهم فى أفريقية منذ عصور الدولة القديمة ومنذ مايقرب من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد وإن كان المصريون قد بدأوا يزحفون إلى الجنوب حيث اتجهوا إلى بلاد النوبة فإنهم لم يلبثوا أن اتجهوا إلى عشرات بل مئات الأبعاد الأخرى التى وصلت إلى أجزاء نائية من القارة فوصلوا إلى الأجزاء هذه لتطبيق الفكرة المصرية الخاصة بالدولة .

وهكذا بعد مضى أكثر من أربعة آلاف سنة أو يزيد على بلوغ الدولة القديمة أوج عظمتها ومجدها ، استطاع بعض المصريين أن يصلوا إلى نهر الزمبيزى،وأن تقام هناك حفلات مثلما كانت تقام خاصة فى مصر .

ومن هنا فإنه لايمكن أن يكون وضع مصر القديمة بالنسبة للأفريقى هو نفس الوضع بالنسبة لأوروبا فهناك بلا شك اختلاف أساسى لكلا الوضعين إذ ليس هناك من الدراسات سوى ما هو قائم فى ضوء الشواهد التاريخية والأثرية فيما يتعلق بعلاقة مصر بالأجزاء الواقعة جنوبا . وكانت هذه العلاقة تتلخص فى التجارة (علاقات اقتصادية) فقد كان استغلال الذهب فى النوبة فى التلال الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وكذلك كانت هناك علاقات منتظمة بسواحل أريتريا والصومال وجنوب شبه الجزيرة العربية حيث كانت هناك أصناف البخور تنتج بكميات وفيرة وترسل إلى المعابد المصرية ومنذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد كانت هناك حملات حربية ضخمة تتم عن طريق البحر فى حين كانت الطرق البرية خلال النوبة أقدم من ذلك بكثير وكانت تستخدم وادى النيل ووادى عطبرة فى مثل هذه التنقلات ، نقول قد بدأت بالفعل تخلق نوعا من الاتصال مع السودان وربما كان التجار الذين عاصروا الفترة الأخيرة قبل الأسرات هم الذين حملوا المآعز والفئوس الحجرية إلى سكان تلك الأنحاء ، ومع بداية عصر الأسرات كانت

مصر تزخر بأنواع شتى من البضائع التى كانت تجلبها من مناطق السود الجنوبية كالعاج والأخشاب الصلبة وغيرها من منتجات هذه الأقاليم .

وكان على فراعنة الأسرة السادسة (٢٤٣٣ - ٢٢٤٣ ق .م) أن يشدوا أزر هذه الصلات الاقتصادية بممارسة نوع من النفوذ السياسى والسيطرة فكان الفتح وكان على رأس هذا الجيش بيبى الأول الذى فتح النوبة وراء الشلال الأول جنوب أسوان وأخضعها لسلطانه ، واستطاعت المصالح التجارية أن تتغلب على الصخور عبر النيل عند الشلال وتضاعف التجارة وتوثقت العلاقة وكان الفرعون (مرنبرع) كأسلافه فى الاسرة السادسة يدفع ولاته لكى يوسعوا سلطانهم فى الاتجاه نحو الجنوب وهو أول من أدرك قدرات (خوف حور) صاحب الشلال الأول فعينه واليا على الجنوب .

وتروى النقوش المؤرخة بنحو عام (٢٢٧٥ ق .م) أن حرخوف وهو خادم الفرعون (مرخرع) قد قام بأربع حملات إلى الجنوب وكان حرخوف ، قد قضى ورجاله ثمانية أشهر فى واحدة من تلك الرحلات التى وصلوا فيها إلى أرض يام البعيدة التى ترى بعض الآراء أنها أقليم بحر الغزال أو الكونغو.وليس ببعيد أن يكون ذلك الفاتح الجسور قدوصل إلى مستنقعات أعالى النيل أو إلى أرض دارفور .واليقين الذى لاشك فيه أنه وصل إلى الحدود الجنوبية فى الصحراء وعاد من رحلته الأخيرة محملا بالبخور والأبنوس والعاج والجلود وغيرها من المواد ، كما جلب معه أحد الأقزام ليدخل به السرور إلى قلب سيده وربما استطاع أن يتوغل جنوبا حتى النيل الأزرق حيث تتمثل فيها الآن مناطق جنوب الحبشة وربما سار مع النيل الأبيض وبحر الغزال حتىوصل إلى غابات الكونغو .

وليس هناك أدنى شك فى أن مثل هذه الصلات الاقتصادية والحملات التجارية قد وطدت نفوذ مصر السياسى فى تلك المناطق،كما تركت بصماتها الثقافية فى تلك الأنحاء ذلك لأنه كانت لها آثار واضحة على الحضارة المادية فى مثل هذه الأقاليم المتسعة فمن المحتمل أن يكون المصريون أعضاء هذه الحملات قد أخذوا معهم حيواناتهم ذات الحافر،وكذلك تقاوى الخضروات ليبذوروها فى هذهالاقاليم ، كما أنهم علموا أبناء هذه الجماعات كيفية إنتاج الغذاء وكذلك فإنه من المحتمل أن تكون الادوات الموسيقية المصرية والسلال المزركشة قد جاءت من مصر وتركت آثارها عن طريق الوافدين ليقايضوا

سن الفيل أو جلد النمر منتجات مصر المحلية ، وكان أثر المصريين فيما يتعلق بالمعتقدات والنظم الاجتماعية مقصورا حتى العصور المتأخرة جدا فى هذه الفترة على إقليم صغير فى النوبة العليا والتى مع بداية الألف الثانية قبل الميلاد كانت قد أصبحت خاضعة بالفعل للنفوذ المصرى ، ولقد أسفرت الحفريات وعمليات التنقيب التى قام بها العالم (ريزنر Reisener) فى بلدة كدية القريبة من دنقلة عن وجود حصون مصرية ترجع إلى الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة وقد زينت بنقوش تفيد أنها كانت حصونا مصرية ، وتقع هذه المنطقة فيما بين الثلاثين الثالث والرابع على نهر النيل ، وبنهاية الالف الثانية قبل الميلاد كانت النفوذ المصرى فى كل من هذه الاقاليم قد توطدت أقدامه حيث سيطرت على النوبة تماما فيما بين الثلاثين الاول والثالث وغمرتها بعناصر سكانية عديدة .

دور البحر الأحمر :

ولقد لعب البحر الأحمر دوره كحلقة اتصال وطيدة بين مصر والعالم الأفريقى أوبين أفريقيا شمال الصحراء وجنوبها ، وفى ذلك يذكر « برستد » عن دور نهر النيل أن السفن ربما كانت تنحدر من طيبة ثم تعبر القناة القديمة التى كانت تصل بين النيل والسويس ومنها تسير جنوبا إلى البحر الأحمر . وهذه أدلة قوية على أن القناة كانت موجودة قبل الألف ولاتبرهن لوحات الدير البحرى على أن السفن كانت تسير فعلا من طيبة ، هذا إلى أن الطريق الذى يراه برستد يمتد نحو ٨٠٠ ميل - ثمانمائة ميل - والراجح أن الحملة سارت برا من طيبة إلى وادى الحمامات وأن الاسطول كان يبحر من القصير . وربما أن السفن المصرية كانت تبنى لهذه الرحلة فى رأس خليج السويس ، وكانت تقطع البحر الأحمر كله إلى الجنوب وتعود سالكة الطريق نفسه فى وجه الريح .

وقد حفر المصريون القدماء قناة (سيزوستريس) وهى القناة النيلية فى عصر الدولة الوسطى للربط بين البحر الأحمر والنيل ، ولاستخدامها فى رحلاتهم البحرية إلى بلاد بونت لأن مصر كانت تحرص على هذه العلاقات جد الحرص ، ومن هنا كان حفر هذه القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر أكثر من مرة ، ذلك لأن الملاحة فى البحر الأحمر كانت شاقة وعسيرة على سفن العصور القديمة خلال شهور طويلة من السنة حيث تسود فيها درجة

الحرارة المرتفعة وتهب عليه رياح عاصفة تعوق التقدم إلى الشمال ، بالاضافة إلى كثرة الجزر والشعب المرجانية ، كل هذه العوامل حالت دون أن يجد الملاح مأوى أمينا له يلجأ فيه ، كما لاتوجد موانئ جديرة بالذكر على هذا البحر .

وقد ترتب على ذلك أنه لم يكن من المتيسر دائما أن تستمر السفن فى شق عباب هذا البحر حتى نهايته ، بل أكثر ما كانت تضطر إلى الالتجاء إلى الشاطىء الشرقى أو الغربى فى مكان ما حيث تفرغ حمولتها وتستكمل رحلتها بالطريق البرى . ولم تكن اليابسة أكثر رفقا بالتجار من البحر الأحمر فقد كانوا يواجهون متاعب فى بلاد الحبشة ثم النوبة ، ولكنه رغم تلك الصعوبات البحرية كان طريق البحر الأحمر دائما قبلة أنظار التجار المصريين فى العصور القديمة . وقد قام المصريون بنقل تجارة شرق أفريقيا والسودان على مدى العصور القديمة ، وكما اهتم المصريون بصلاتهم القوية ببلاد النوبة ووصلوا حتى بحرالغزال وحوض الكونغو فإنهم أيضا أبدوا اهتماما بالغا بمنطقة شرق أفريقيا وذلك منذ عصر الأسرة الاولى وذلك لحاجة مصر إلى منتجات هذه البلاد وكان الفراعنة يحملون إلى هذه البلاد منتجات بلادهم ، وفى الدول الوسطى وعصرها أطلق المصريون القدماء اسم بلاد بونت على البلاد الواقعة على الساحل الجنوبى للبحر الأحمر وتشمل البلاد التى تسمى اليوم أريتريا والصومال وهى قريبه من أثيوبيا وحتى منابع النيل الحبشية ، حيث كان المصريون قد وصلوا إلى تلك المناطق عن طريق نهر النيل والداخل .

ولاتوجد لدينا معلومات أكيدة تدل على معرفة المصريين باتصال أنهار الحبشة بنهر النيل لأن اتصالهم ببلاد بونت كان عن طريق البحر الأحمر . ومن المرجح أنهم كانوا على معرفة ببلاد الحبشة ذاتها ،وهكذا نجد أن المصريين القدماء كان لهم علم بكثير من الأقطار التى يضمها حوض النيل وأنهم بذلوا جهوداً كبيرة فى كشف الغموض الذى أحاط بجزء كبير من مجرى نهر النيل .

وقد اهتم ملوك الدولة الوسطى بتمهيد الطريق البحرى بين النيل والبحر الأحمر لانعاش التجارة بين مصر وبلاد بونت ، وعلى الرغم من ذلك

فإن المصريين وجهوا اهتمامهم إلى أرض البجة والنوبة بحثا عن المعادن وسعيا وراء استغلالها والاستفادة منها ، كا استفاد المصريون من ثنية النيل والأودية الجافة للوصول إلى الموانىء القديمة مثل « هورمز ، ليكوس ، ليمن ، برنيس ، عيذاب وهذه الطرق ساهمت فى إيجاد علاقات مع أفريقيا جنوب الصحراء .

أما تتبع الوادى جنوبا من هذه الطرق فلم يكن تتبعه فى الغالب يسير مع مجرى النيل ، فالطريق المألوف من الشمال إلى الجنوب هدفه نهر النيل جنوب أسوان عبر العطمور إلى أبى حمد ولا يتبع هذا الطريق النيل فى كل جزء منه ولايلازم النهر فى مصر إلى اسوان بل يتابع النهر فى جنوب السودان إلى كرسكو أوقبلها ثم يخترق صحراء العطمور مباشرة إلى النيل ، وعلى الرغم من أن طريق صحراء العطمور هذا طويل ويقترب من مائتى ميل وتتغلب عليه الوعورة والجدب فإنه أقصر بكثير من الطريق النهرى ويتجنب الأقاليم النوبية الكثيرة السكان ، والطريف وإن غلب عليه الجفاف والوعورة فلا تخلو من أغوار وأودية ينالها شىء يسير من المطر وبها بعض العشب وعلى كل حال لاتخلو من المياه الباطنية التى يمكن أن تساعد على حفر الآبار التى تزود المارة بحاجتهم من الماء . وقد سلك هذا الطريق حتى فى‌العصور الحديثة مثل رحلة بوركهارت والتى تدل على أن هذا الطريق كانت تمر به القوافل باطراد وانتظام طوال العام .

لذلك فإن طريق العطمور كان معروفا منذ القدم ولا شك أنه استخدم فى العصور المصرية القديمة فالآثار الفرعونية حول شندى من أروع وأغزر الآثار صلابة فى أى جهة من جهات وادى النيل . وتلك هى لمحة موجزة عن طريق الاتصال منذ العصور القديمة مع مصر فى البحر الأحمر وبلاد بونت والنوبة وصولا حتى الحبشة وهى الطرق التى ظلت مستخدمة طوال العصور الإسلامية التى ينصب عليها بحثنا هذا ، وإن كان قد دخل عليها العديد من التطور سواء فى وسائل النقل النهرى عبر نهر النيل أو النقل البحرى عبر البحر الأحمر إلى بلاد أريتريا والسودان والصومال والحبشة والمناطق الساحلية فى شرق أفريقيا جنوبا إلى موزمبيق ووصولا إلى الداخل إلى أعالى النيل وهضبة البحيرات وحوض الكونغو غربا .

طرق الاتصال مع غرب القارة الأفريقية :

كان طريق درب الأربعين من الطرق التى استخدمها المصريون القدماء منذ العصور القديمة ، وقد ظل استخدامه حتى القرن التاسع عشر الميلادى فهو يربط بين مصر وغرب السودان ويبدأ من أسيوط فى صعيد مصر حتى يصل الواحات الخارجة ثم يسير جنوبا مارا بواحة سليمة وبئر النطرون ، ويستمر كذلك حتى يصل إلى الفاشر فى غرب السودان وتقطعه القوافل فى شهرين ، ومن خلاله قام المصريون برحلاتهم التجارية إلى بلاد السودان للحصول على منتجات التوابل وريش النعام والبخور وسن الفيل والأبنوس والصمغ وبعض المنتجات الأخرى .

وأقام الفراعنة على جانبي هذا الطريق الآبار التى توجد بكثرة فى الصحراء الغربية فى العصور القديمة ولازالت بعض معالمها موجودة حتى اليوم ، وكان هذا الطريق هاما وخاصة بالنسبة للاتصالات الخارجية التجارية من وادى النيل الأدنى ومنطقة تشاد،وكان هذا الطريق يربط مصر بطرق السودان الرئيسية التى من أهمها الطريق الذى يصل دارفور فى الغرب بمدينة سواكن على البحر الأحمر فى الشرق ، وقد أدى هذا الطريق بدوره إلى وجود علاقات تجارية بين سنار وغرب الحبشة ، كما أن هذا الطريق الذى كانت الاتصالات تتم عن طريقه عبر أسيوط يمر عن طريق واحة باريس إلى واحة الخارجة ثم يتجه إلى جنوب وغرب دارفور ثم يتم من هناك الاتصال إلىمنطقة أعالى النيل حيث بحر العرب والغزال وسلطنة برنو وشمال وغرب بحيرة تشاد ثم منها إلى ساحل المحيط الأطلسى،وكانت هناك أحيانا طرق بديلة بين الوادى والصحراء عن طريق الساحل الشمالى أو إقليم برقة (سيذكر ذلك عند الحديث عن الطرق بين مصر وبلاد المغرب العربى (الشمال الأفريقى) .

ولقد كانت معرفة مصر ببلاد غرب القارة معرفة قديمة كباقى الأجزاء الجنوبية الشرقية من القارة،فالمسلمون أول من عرفوا هذه البلاد ، عرفوها عن طريق واحات مصر وهو الطريق الذى يمر بهذه الواحات الداخلة والخارجة (الكفرة) ويتجه إلى السودان الغربى ، ولكن هذا الطريق قد عدل عنه بسبب توافر الرياح السافية للرمال على القوافل ، وهلك الكثير

منها ، وأيضا عدوان اللصوص على القوافل فأمر أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧١هـ / ٨٦٨ - ٨٨٤ م) بقطع الطريق ومنع أن يخرج عليه أحد ولقد ارتبطت مصر مع بلاد غرب القارة الأفريقية ووسطها بعدة طرق كانت تصل جميعها إلى ساحل المحيط الاطلسى كانت تمر فى مصر العليا أو الواحات .

ولقد كان هناك طريق يتحرك من شاطىء المحيط الاطلسى ثم يتجه شرقا إلى بلاد برنو ثم معها إلى إمارة كاتسينا إحدى إمارات بلاد الهوسا ثم إلى مملكة ايرفى الشمالى وإلى عاصمتها أغاديس وذلك قبل أن يصل إلى أغاديس واحة مرزق عاصمة إقليم فزان فى ليبيا ثم منها إلى واحات مصر ، وطريق آخر يتحرك شرقا من شاطىء الأطلسى ثم يصل إلى تمبكتو فى مالى وبعدها سنغاى ثم إلى توديني ثم شرقا إلى جاو عاصمة سلطنة سنغاى ثم بعدها شمالا إلى أغاديس ثم يتحرك شرقا إلى غات وواحة مرزوق عاصمة فزان ثم إلى مصر ثم تتحرك القوافل إلى أوليلة أوجله جنوب بنى غازى ، وكذلك كانت تصلها أيضا قوافل الحج المغربية التى كانت تأتى من الشمال الأفريقى إلى مصر فى طريقها للحج ، ومن هذه الواحة (أوجله) جنوب بنىغازى يتحرك الطريق شرقا إلى واحة سيوة ثم إلى النيل بالقرب من جنوب القاهرة وهذا هو الطريق الذى سلكه سلاطين التكرور (بلاد غرب أفريقيا) عند قدومهم إلى مصر لأداء فريضة الحج ، وهذا الطريق من فزان إلى القاهرة سيستغرق خمسين يوما ، ومن فزان إلى كاتسينا وتمبكتو تسعين يوما ، ومن تمبكتو إلى غات على شاطىء المحيط الأطلسى خمسة عشر أو عشرين يوما
تستغرق ستة شهور متواصلة.ويورد العمرى رواية يستشف منها أن الطريق من مصر إلى بلاد غرب القارة الأفريقية عبر الواحات استخدم مرة ثانية بعد عصر الدولة الطولونية إلى بلاد مالى وغانا وما معها يسلك إليها فى غرب صعيد مصر على الواحات من مقر مقفر يسكنه طوائف من العرب والبربر إلى عمران يتوصل معه إلى مالى وغانا ، وهذه الصحراء يحدها من الغرب البحر المحيط ومن الشرق نهر النيجر عندما ينثنى شمالا إلى جهة تمبكتو .

ولقد كان طريق درب الاربعين يلعب دورا هاما فى حركة الاتصال بين مصر وبلاد غرب القارة كما ذكرنا سابقا ، بل أنه فى المسالك البحرية

الصحراوية الهامة والذى بقى من بين الكثير من المسالك التجارية التى كانت تسير عبر الصحراء الغربية.وكان يطلق على درب الاربعين الطريق الليبى أو طريق غرب النيل . وقد سلكت هذا الطريق الذى كان من معالم صلة الربط بين مصر وبلاد غرب أفريقيا العديد من العناصر فى الجنوب إلى الشمال وبالعكس وقد كان هذا الطريق هاما فى الاتصال بين وادى النيل ومصر وغربا نحو بحيرة تشاد ومنها إلى الجنوب حيث سلطنة سنغاى إلى ساحل المحيط الأطلسى وقد ارتحل المصريون غربا إلى كانم واتصلوا بالطوارق فى بحيرة تشاد ومنها إلى بلاد سنغاى .

وقد ذكر ابن بطوطة درب الأربعين ولكنه أشار إلى الحد الجنوبى الذى كان يخرج من دراو بالقرب من اسوان فقال : من حد الجنوب عند اسوان كان يمتد طريق إلى مالى وسجلماسه مارا بين دنقله وهى من البلاد الكبيرة بالسودان ومنها إلى سول وهى آخر بلاد مالى ثم إلى كوكو قاعدة بلاد البرنو وتمبكتو فى مالى ثم والاته ومنها إلى كلباسة . ومن أسيوط كان يخرج طريق إلى السودان الغربى (غرب أفريقيا) مارا بواحات الداخلة والكفرة ويتجه إلى السودان ومنها إلى غانا واودغست وكانت أهمية أسيوط تعود إلى درب الأربعين وقد سمى درب الأربعين لأن القافلة كانت تقطعه فى أربعين يوما حتى دارفور وكانت الواحات محطات للقوافل تستريح فيها من تعب الطريق .

والدليل على ذلك أن كل واحة تبعد عن الأخرى حوالى مائتى كيلو متر وهى طاقة الجمل للسير فى الصحراء . وقد لعب هذا الطريق دورا عظيما فى اداء مصر لدورها فى العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية فى تلك البلاد على مر العصور التاريخية ، وظل محتفظا بأهميته ، ولقد كانت الطرق البرية فى المكان الاول للمرور والتوغل جنوبا وغربا نحو الأراضى الواقعة غرب مصر وطريق الصحراء الغربية أحد الطرق البرية التى تربط مصر وبلاد النوبة ومنها غربا منذ أقدم العصور والذى يسير خلال سلسلة من الواحات فى قلب الصحراء الغربية وقد سميت بعض هذه الواحات بالمكس لأنها كانت نقطا لتحصيل المكوس للقوافل وكانت هذه النقط توجد بالواحات لمراقبة القوافل ومعرفة خطوط سيرها لمهاجمة من تحاول أن تهرب من دفع المكوس .

وقد أثبتت الدراسات إن سكان الواحات كانوا على صلة ببلاد غرب أفريقيا وبلاد وادى النيل ، كما كانت صلتهم بشمال أفريقيا وغرب أفريقيا وشرقها . وكذلك فقد كانت الواحات هي القنطرة بين غرب أفريقيا ووادى النيل وقد لعبت دورا هاما فى ايصال النفوذ المصرى وفى التجارة وفى نقل الثقافة والحضارة فى مختلف العصور .

وليس أدل على الدور الكبير الذى لعبته الواحات فى الصلات والعلاقات بين مصر وبلاد غرب القارة إلا ماذكره الحسن الوزان فى كتابه « وصف أفريقيا » حيث قال : سكان الواحات أغنياء لأنهم يقطنون على الطريق بين مصر وغرب أفريقيا وكذلك فإن واحة الخارجة هي باب مصر الحقيقى على بلاد غرب أفريقيا وكذلك لأن الواحات كانت شبكة طرق للقوافل اساسا تتحرك عليها تجارة مرور بعيدة المدى بين أقاليم سحيقة التباعد والتباين وفى الحقيقة هى تجارة عبور عابرة للقارة بين غرب أفريقيا والسودان الغربى ، والبحر المتوسط وبين حوض النيل ومصر وقد تلقت هذه الطرق الداخلية عبر الواحات المنتشرة فى الصحراء الكبرى ضربتها القاضية عن طريق رأس الرجاء الصالح .

ولقد كانت هذه الطرق تمر بأرض الواحات الخارجة بما اتصل فى جنوبها من أرض التاجورين وبين الواحات وواحة النوبة ثلاثة أيام ، وبين البحرين (الواحات البحرية) إلى الحفار (الفرافرة) يومان وبين الحفار إلى ألواح ثلاثة أيام ، ومن البحرين (الواحات البحرية إلى مدينة (سنتريه) واحة سيوه يسير من أراد الدخول إلى أرض كوار وسائر بلاد السودان الاوسط الغربى وكذلك من سنتريه (واحة سيوة) إلى أوجله غربا عشرة أيام ، والطريق الذى يمر بهذه الواحات ومنها إلى الداخله والكفره تتجه إلى غرب أفريقيا ومنها إلى غانا وأودغشت ثم حول هذا الطريق فى القرن العاشر الميلادى إلى طريق سجلماسة وكذلك طريق الواحات إلى سنتريه ومنها إلى أوجله ثم إلى سجلماسة وهو الطريق غير معروف .

وقد أشار البكرى إلى ذلك الطريق فقال سنتريه (سيوه) واحة كثيرة العيون والاشجار والمحصول ،وأهلها بربر لاعرب بينهم وتسير من سنتريه إلى طرق شتى إلى أودية الواحات إلى بهنسى الواحات عشر مراحل وهى غير

بهنسى إلى الواحات ثمانى مراحل وإلى الفرافرة مثلها . والفرافرة هذه بلد كثير الاشجار والنخيل وبه قرى كثيرة وتسير من الفرافرة إلى ألواح الداخل أربع مراحل فى صحراء لاماء ولاعمارة وهذه ألواح الداخل كثيرة الانهار والعيون والعمارات والحصون فيها حصن يسمى بالقصرفى وسط عين ماء وفى بعض الواحات قبائل من لواته .

ولكن التونسى قد أشار إلى أن الطريق بعد خروجه من واحة سيوه فإنه يمر ببلدة (واحه) بولاق ثم منها إلى واحة المقس ثم إلى الشب وهومحل بين غرور من الرمل ثم منها إلى بئر يقال لها بئر سليمة،وتقع هذه البئر فى واحةسليمة القريبة من عكاشة ثم منها إلى لقية على مسافة مائة وأربعين ميلا جنوب غرب سليمه ثم إلى بئر الزغاوى وهو بئر النطرون وبينه وبين دارفور مسيرة عشرة أيام كاملة ثم منها غربا إلى بلاد سنغاى وساحل المحيط الأطلسى وبحر الظلمات أو البحر المحيط كما كان يطلق عليه فى ذلك الوقت ، والملاحظ أن اسماء هذه الأماكن لم يوردها البكرى فى ذكره لرحلة القوافل إلى بلاد غرب أفريقيا ، وقد ظل هذا الطريق معروفا منذ القدم حتى القرن الثامن عشر الميلادى وذلك لمرور القوافل الكثيرة وكان مطروقا حتى كردفان ودارفور ثم يتجه بعد ذلك غربا وكانت القوافل التى تنقل الحجيج من بلاد المغرب وغرب افريقيا إلى مصر فى طريقها إلى مصر ثم إلى الحجاز تضطر لاجتياز طرق مأمونة تمكنها أن تبلغ غايتها بسلام فكان لزاما عليها أن تضرب فى الفيافى المقفرة فكانوا يمرون فى طريقهم بهذه الواحات المذكورة فى الصحراء الكبرى أو صحراء مصر الغربية تجنبا للكثير من المتاعب والمخاطر ، ومن هنا فقد كان الطريق الذى يمر عبر الصحراء الكبرى من مصر إلى غربها وبالعكس والذى يمر بواحات مصر كالخارجة والداخلة وسيوة والفرافرة ثم إلى الفاشر عاصمة دارفور وبعد ذلك تتجه القافلة إلى بلاد السودان الغربى ، وقد أشار إلى ذلك الكثير من كتاب العرب أمثال البكرى والادريسى والمسعودى والاصطخرى وابن خرد اذبه وغيرهم وكانت هذه الواحات هى مفتاح الاتصال بين مصر وبلاد السودان الغربى .

وفى تلك الطرق والواحات مارست مصر دورها فى غرب القارة بحيث ظلت هذه الطرق مستعملة بعد سقوط مصر تحت ضربات العثمانيين فى القرن

السادس عشر الميلادى بالتحديد فى عام ١٥١٧ م ، عندما دخل سليم الأول القاهرة وتم قتل طومانباى آخر سلاطين المماليك فى مصر .

كذلك ارتبطت مصر بغرب القارة الأفريقية بعدة طرق منها الطريق هذا (درب الأربعين) وطريق آخر يبدأ من المغرب إلى المشرق من مراكش فى أقصى الغرب إلى فاس وتلمسان فالقيروان مارا ببسكره إلى طرابلس وبنى غازى فبرج العرب مارا بالأسكندرية فطنطا فطوخ فالقاهرة ومنها إلى السويس أو الاقصر وهو طريق الحج عند القصير على البحر الأحمر أو عيذاب .

كذلك كان هناك طريق وسط يربط مصر بغرب القارة يبدأ من وادان غربا إلى تفازه الغزلان ثم بعد ذلك يتجه إلى غات ومن غات إلى مرزق عاصمة فزان فالكفرة فقوص ثم يتابع سيره شرقا عبر وادى الحمامات فى صحراء مصر الشرقية ثم وصولا إلى عيذاب على شاطىء البحر الأحمر الغربى ثم عبور البحر إلى الحجاز . وثالث هذه الطرق التى ربطت مصر بغرب القارة وسهلت لها ممارسة دورها فى غرب القارة ، ذلك الطريق الجنوبى الذى يبدأ من بلاد التكرور أقصى غرب القارة ثم يتجه شرقا إلى أودغشت فوالاته ثم تمبكتو فتكدا فاغاديس ثم يتابع الركب السير شرقا أو شمالا إلى مصر عن طريق درب الأربعين .

وهناك طرق رئيسية منها طريق أقصى الشرق حيث يلتقى تجار الفاشر بتجار كردفان فى الأبيض ثم بعد ذلك شمالا إلى بئر النطرون فبولاق فى الواحات الخارجة ثم يتصلون بطريق النيل عند أسيوط .

ولقد لعبت الصحراء الكبرى الأفريقية فى تاريخ غرب القارة ما لم يلعبه المحيط الأطلسى من الادوار الحضارية الهامة . لقد كانت مسارب الصحراء إلى غرب أفريقيا خلال العصور الوسطى بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى أفريقيا جنوب الصحراء عموما وإلى أفريقيا الغربية بصورة أخص ، ولقد استمر هذا التوارد للحضارة الإسلامية المصرية إلى غرب أفريقيا خلال فترة طويلة من العصور الوسطى والحديثة ومن بينها الفترة الإسلامية التى ندرسها والحقيقة التى جدال فيها أن سكان غرب أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى لم تكن الصحراء فى يوم من الأيام تشكل عائقا يعوق دون الاتصال

الحضارى بينهما ، بل أن الصحراء كانت الاسس الاولى المباشرة لهذا الاتصال وعن طريقها انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل رائع .

كذلك فليس أدل على أهم الدلائل الحية الباقية إلى اليوم والمتمثلة فى نهاية طريق مصر غرب القارة الممتد من غانا على ساحل المحيط الأطلسى إلى بولاق الدكرور(التكرور) بجوار سفح أهرامات مصر من تلك المعالم التى لازالت بالقاهرة وتبين الصلات القوية المستمرة وعن دور مصر الحضارى عبر العصور بها وبلاد غرب القارة مثل بولاق الدكرور المحرفة عن التكرور وينسب ذلك الحى إلى أحد رجال الدين العلماء من غرب القارة الذين دفنوا فى ذلك المكان ولا يزال مقامه موجودا فى تلك البقعة المعروفة حاليا ببولاق الدكرور بالجيزة وهوالشيخ الصالح أبو محمد يوسف بن عبدالله التكرورى والذى تولى مناصب فى العصر الفاطمى وكان معاصرا للخليفة العزيز بالله (٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) .

وهكذا نرى أن تلك الطرق الصحراوية قد مارست دورها فى تسهيل حركة النقلة والاتصال بين مصر وبلاد غرب القارة ووسطها ساعد على أن تمارس مصر دورها بالشكل الطبيعى وإن كانت مصر لم تمارس نشاطا سياسيامباشرا إلا أن نفوذها القوى كان واضحا كل الوضوح فى تلك الأنحاء الواسعة من غرب القارة الأفريقية .

طرق الاتصال مع بلاد المغرب العربـــي :

اذا كان نهر النيل والبحر الأحمر يمثلان أهم الوسائل التى ربطت مصر مع بلاد السودان والنوبة وشرق أفريقيا وصولا إليها لكى تؤدى مصر رسالتها السياسية والحضارية والثقافية والاقتصادية فى تلك البقاع ، فإن الصحراء الكبرى لم تقف عازلا أو مانعا فى أن تقوم مصر بأداء رسالتها الكبرى مع بلاد غرب القارة ووسطها حيث ظهر الدور المصرى بصورة أكثر فعالية وأكبر تأثيرا عن أية أدوار أخرى حيث سنعرض لكل هذه الأدوار عند الحديث عن دور مصر فى غرب القارة .

إضافة إلى أن طرق الاتصال مع بلاد المغرب العربى كانت من أهم العوامل لكى تظهر أفريقيا الشمالية بالمظهر الإسلامى وأن تدين لى كل ما استطاعت

ان تتبوأه من مكانة للدور المصرى ، ذلك لأنه وان كانت أفريقية جنوب الصحراء الكبرى قد ظلت فى نظر الأوربيين مظلمة وغير معروفة للعالم حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، فإن تلك المناطق كانت معروفة تمام المعرفة منذ ماقبل الميلاد وطوال العصور التاريخية للمصريين والعرب «فإنه لم تكن الحال هكذا بالنسبة لسكان أفريقيا الشمالية ، حيث لم تكن هناك قطيعة بين مصر وتلك الأقطار بل كانت هناك اتصالات من طرق متعددة حيث كان هناك عبور من مصر إلى ليبيا ثم إلى المغرب الكبير غربا ، ذلك لان مصر قد دخلت بمؤثراتها المتعددة فيما قبل العصر الإسلامى إلى بقية ولايات الساحل الشمالى والتى كانت تمتد حتى المحيط الاطلسى .

ومن هنا فقد ارتبطت مصر وبلاد المغرب بطرق برية وبحرية متعددة حيث كانت تلك الطرق تستخدم لنقل التجارة ، فضلا عن أن مصر كانت طريقا هاما لتجارة الغرب الواردة من الشرق الأقصى وكان المغرب طريقا للتجارة القادمة من الغرب فضلا عن دورها فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب .

وبالنسبة للطرق البرية ، كان هناك طريق برى يبدأ من الغرب إلى الشرق ، من مراكش فى أقصى الغرب حيث المغرب الاقصى ثم يأخذ ذلك الطريق اتجاه الشرق حيث يصل الى فاس ثم يتجه فى السير حيث طرابلس ومن طرابلس يمر حتى يصل إلى بنى غازى ثم يدخل إلى الحدود المصرية عند برج العرب ويواصل السير إلى الأسكندرية ومن الأسكندرية إلى طنطا ومن طنطا الى طوخ مباشرة إلى القاهرة يتجه ركب الحجيج إلى السويس أو الأقصر فى جنوب صعيد مصر ومن الأقصر إلى القصير أو إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر ومن ساحل البحر الأحمر الغربى تسير السفن إلى الأراضى الحجازية .

وقد كان هذا الطريق مألوفا ومطروقا للقوافل التجارية وقافلة الحج التى كانت تسلك تلك الطرق فى العصور الإسلامية ، بالإضافة إلى أنه فى العصر الإسلامى الأول (القرون الثلاثة الهجرية الأولى) كان يخرج من مصر طريقان رئيسيان ، الأول يبدأ من الفسطاط شرقا ثم يتجه غربا إلى مدينة برقة دون أن يمر بالأسكندرية ثم باقى مدن أفريقية . والثانى يبدأ من الأسكندرية ثم إلى برقه ويتحد الطريقان فى طريق واحد يتجه الى باقى

مدن أفريقية ، علاوة على طريق ثالث يمر عبر الواحات الداخلة ويتجه إلى سجلماسه وهو من الطرق التى كانت تؤدى إلى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية .

وقد كانت الطرق البرية المتصلة إلى بلاد المغرب العربى هى أكثر الطرق استخداما خلال القرن الأول الهجرى ، فقد كانت الاساطيل البيزنطية التى كانت حتى نهاية ذلك القرن تمسك بزمام القوة البحرية فى البحر المتوسط وترابط أساطيلها فى جزيرة قبرص وصقلية ومالطة وقوصرة ، مما كان يحتم على تجار مصر والمغرب اتباع الطرق البرية وتجنب استخدام الطرق البحرية فى أكثر الأحيان .

وقد أخذت حركة الصلة والانتقال بين مصر والمغرب طريقها من الفسطاط (قبل بناء القاهرة) الى برقة مارة بذات السلاسل ثم إلى ترتوط حيث تلتقى بالطريق القادم من الأسكندرية عند ذات الحمام فيمتد الطريق بمحاذاة ساحل البحر الابيض المتوسط ، وأول محطة بعدها موضع يسمى (الروم) على بعد أربعة وثلاثين ميلا من ذات الحمام ويمر بعدها بعدة مواقع حتى يصل إلى برقة ، ثم يمتد الطريق من برقة إلى أن يصل إلى سلوف حيث يفترق عندها إلى طريقين يتجه أحدهما بحذاء الساحل والآخر إلى الداخل حيث كان يعرف بطريق السكة لأنه الطريق الذى يتخذه عمال البريد أول محطة بعد ذات الحمام وهو الموضع الذى يسمى (الروم) ، ثم يمر بعدها بعدة مواقع حتى يصل إلى برقه وهى قصر المعجوز أو الطاحونة ثم كناش الجون وجب القوسح وسكة الحمام إلى قصر الشماسى ثم إلى قرية القوم ثم الى موقع يقال له العقبة ثم قرية معد إلى ريوس ثم إلى وادى السدود ثم الى النداحة وهى آخر محطة فى الطريق إلى برقة . ويذكر أن آخر محطة على الطريق إلى برقة يبعد عنها ستة أميال ، ثم يتجه الطريق إلى ملينه على بعد خمسة عشر ميلا ويتجه الطريق الاول إلى أجدبية حيث يلتقى مرة أخرى بطريق السكة عندها ليفترقا مرة أخرى فيتجه أحدهما إلى طرابلس والآخر إلى أفريقية ، ويمر الطريق المتجه إلى طرابلس بسرت ومغمداش ثم إلى بقية بلاد المغرب حتى يصل إلى تاهرت مارا بسبته ثم منها غربا حتى السيلة دوهاز .

ويذكر جعفر بن قدامه فى كتابه «الخراج» إن الطريق المتجه إلى

طرابلس يمر على أجدابية التى تبعد بنحو عشرين ميلا ، ومنها إلى سنجه ثلاثون ميلا ثم الى سرت اربعة وثلاثون ميلا وإلى مقدامش عشرون ميلا ، ومن مقدامش إلى قصور حسان ثلاثون ميلا ، ومن قصور حسان إلى المنصف أربعون ميلا ، ومن المنصف إلى تورغا أربعة وعشرون ميلا ، ومن تورغا إلى ورداسا ثمانية عشر ميلا ، ومن ورداسا إلى المنحنى اثنان وعشرون ميلا ، ومن المنحنى إلى وادى الرمل عشرون ميلا ، ومن وادى الرمل الى طرابلس أربعة وعشرون ميلا . ويذكر ابن قدامه ان هذا الطريق يخرج من طرابلس إلى مسيرة ثم إلى بئر الجمالين ثم إلى الفواره ثم قابس ثم إلى بئر الزيتونة ثم إلى كنانة ثم إلى إلياس التى تبعد عن باب مدينة القيروان بأربعة وعشرين ميلا .

ولقد كانت الطرق البرية الممتدة فيما بين مصر وبلاد المغرب العربى تمتد بها محطات البريد المزودة بالخيل على مسافات متقاربة بحيث يفصل بين الواحدة والأخرى مقدار ثلاثة أميال . وقد اهتم أمراء الأغالبة خاصة بتأمين تلك الطرق البرية مما أدى إلى ازدهار التجارة بين مصر والمغرب ، كما عمرت الطرق البرية عبر صحراء سرت بين المدن الرستمية بقوافل التجارة حيث كانت قبائل هوارة فى شرق طرابلس وفى جبل نفوسة تقوم بنصيب كبير فى نقل التجارة بين مصر والمدن التابعة للدولة الرستمية .

ولقد تأثرت حركة هذه الطرق بين مصر والمغرب خلال القرن السادس الهجرى تأثرا كبيرا نظرا للتغيرات التى طرأت والتى منها الغزوة الهلالية والفتح المرابطى والاحتلال النورماندى لسواحل بنى باديس ، ولما كانت مراكز الإنتاج فى البلاد الشرقية (مصر وليبيا) قبل الغزو الهلالى قد تركزت فى المناطق الداخلية فقد كانت تمثل مركز التقاء الطرق الصحراوية والجبلية والسهلية عبر وادى سلف إلى الساحل . ويلاحظ هنا إن الطريق الداخلى يبدأ من طرابلس فى اتجاه القيروان ومنها يتفرع إلى ثلاث شعب لا تلتقى إلا عند المسيلة ومن المسيلة يتابع الطريق سيره إلى تنس عبر وادى سلف أو قد يسلك طريقا عبر هضبة تاهرت إلى تلمسان ولا يظهر طريق ساحلى يربط بين مدن الساحل التى لم تكن لها أهمية إلا بمقدار اتصالها بالمدن الداخلية .

وفى النصف الأول من القرن السادس الهجرى برزت نتائج الغزو الهلالى واضحة إذ تخرب عمران المناطق الداخلية وأصبحت القيروان ممرا عابرا . ومن هنا غدت الطرق إقليمية ، ولكن الاتجاه نحو الساحل وتعميره أدى إلى ظهور طريق ساحلى فى بلاد بنى حماد وبنى باديس ولم يفلح الموحدون فى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى احياء المناطق الداخلية من البلاد الشرقية،ولكنهم نجحوا فى ضبط الساحل ولهذا لم يستعمل الطريق الداخلى إلا جزئيا وان كان استعماله أكثر من ذى قبل ، وظلت الطرق فى المناطق الداخلية إقليمية كما كانت ، بينما كثر استعمال طريق الساحل فى تنيس إلى تهنى طرابلس وازدهرت مدن تجارية خاصة بجايه وتونس وطرابلس .

ومع إن الطريق البرى مع المشرق كان يعبر البلاد الشرقية التى لم تعرف إلا فى مناطقها الداخلية طوال القرن السادس ، فمن البديهى أن يكون هذا الطريق غير آمن وأنه لايستعمل كثيرا خاصة أن المنطقة إلى الشرق من طرابلس لم تدخل ضمن حدود دولة الموحدين وتفردت القبائل الهلالية بالسيطرة عليها .

الطرق البحرية مع بلاد المغرب :

كانت مصر لموقعها المتوسط بين القارات محورا لنشاط تجارى بحرى كبير . ارتبطت موانيها وموانئ أفريقيا والمغرب بعلاقات تجارية متبادلة وكان الطريق البحرى بين موانىء أفريقيا يبدأ من الاسكندرية إلى طرابلس إلى تونس وهى ميناء القيروان ومنها إلى موانىء المغرب . وقد كان ذلك الطريق قليل الارتياد حتى تمكن الأغالبة من فتح جزيرة صقلية عام ٢٨٩هـ / ٩١١م حيث كانت صقلية قاعدة يشن منها البيزنطيون الغارات فى البحر المتوسط ، لكن بفقدان بيزنطة لقواعدها فى كريت وصقلية ومالطة وقوصرة انتهى النفوذ البيزنطى فى البحر المتوسط وانتعش الطريق البحرى فى ذلك البحر بين موانىء مصر وأفريقية (تونس) وقد أدى ذلك إلى ازدهار أفريقيا الاقتصادى فى عهد الأغالبة وانتعاش الطرق البحرية بالتجارة بين أفريقية ومصر فزخرت أسواق طرابلس وأفريقية بالتجارة القادمة من مصر وازداد ارتباط الأسكندرية بموانىء أفريقية مثل تونس وبجايه .

وكانت المواصلات بين الأسكندرية وموانىء افريقية تسير فى سهولة ويسر وكانت السفن الخارجة من الاسكندرية فى طريقها إلى طرابلس تأخذ الطريق المار بجزيرة كريت وقبرص متجنبة طريق الساحل الافريقى فيما بين خليجى قابس وسدرة لقلة الموانىء الصالحة لرسو السفن فيه بين برقة وطرابلس . وكانت المنطقة فيما بين خليجى قابس وسدرة غير صالحة للملاحة وكان ميناء طرابلس يصعب رسو السفن فيما فيه بين برقة وطرابلس .

وكانت مصر طريقا لتجارة المغرب الواردة من الشرق عبر البحر الأحمر فترسو السفن المحملة بتجارة الشرق عند ميناء رأس بنياس وعند ميناء القصير أو أبو سفر ثم تنقل التجارة برا عبر صحراء مصر الشرقية إلى مدينة قفط ثم لتأخذ طريق النيل إلى القاهرة والاسكندرية ومنها إلى الموانىء الأفريقية (بلاد المغرب العربى) كما كانت تسلك التجارة القادمة من الشرق عبر البحر الأحمر طريقا آخر فترسو السفن عند القلزم ثم إلى النيل عن طريق قناة خليج أمير المؤمنين والتى سهلت حركة التجارة فى البحر الأحمر والبحر المتوسط . وكما كانت مصر معبرا لتجارة المغرب الآتية من الشرق ، وكذلك كانت المغرب معبرا لتجارة مصر القادمة من الغرب ، كذلك فإن طبيعة المغرب الجغرافية جعلت من الطرق البحرية الرابط التجارى بين بيئات المغرب الثلاث ، ذلك إن صعوبة النقل فى البلاد الشرقية نتيجة للغزو الهلالى جعلت النقل البحرى أيسر ، فارتبطت المدن الساحلية فيها بطريق بحرى يربطها مع مصر ، حيث ان التحول نحو الساحل قد ساعد على ظهور مراكز التجارة فيه وأصبحت ملتقى الطرق البحرية مثل صفاقس والمهدية من بلاد بنى باديس وبجاية فى بلاد بنى حماد .

ومع أن الطريق البحرى من الاسكندرية إلى طرابلس ومنها غربا إلى بقية موانىء بلاد المغرب كان كثير الاستعمال لاسيما أن الطريق البرى كان محفوفا بالمخاطر ، فإنه تجدر الإشارة إلى أنه فى النصف الثانى من القرن السادس عشر كثر استعمال الطريق الذى يمر بصقلية وجنوب ايطاليا ومن صقلية يتفرع الطريق إما إلى الأسكندرية أو إلى عكا ، ولقد انعكست أوضاع الطرق البرية منها والبحرية سواء كانت داخلية أم خارجية على حركة الورود والصدور بين مصر وبلاد المغرب وعلى حركة بيئات المغرب الثلاث وحركتها بين المغرب والمناطق التى تتصل بها تجاريا .

ومن كل ما سبق شرحه من موقع مصر الجغرافى ومكانتها من حيث الموقع والموضع على بوابة أفريقيا الشمالية الشرقية واعتبارها المنفذ أو المصدر الذى تحركت منه الاشعاعات الثقافية والاقتصادية والسياسية لكى تستطيع مصر أن تمارس دورها التاريخى الخالد فى منح كل عطائها ومنجزاتها لبلاد القارة التى كانت الضرورة والحتمية التاريخية تفرض عليها باعتبارها الأم الرؤم لافريقيا أن تهب تلك الاقطار عصارة تجاربها وخلاصة انجازاتها وجوهر أفكارها لكى تترك بصماتها واضحة قوية وجلية فى كل مظاهر الحياة اليومية فى ربوع القارة .

ولقد ساعدت تلك الوسائل الربطية والصلات الطبيعية أن تمارس مصر دورها فى العطاء فكان امتداد البعد الداخلى لنهر النيل لكى يتخذ وسيلة ومنفذا تنفذ منه مصر إلى النوبة والحبشة وصولا إلى منطقة بحر الغزال وربما إلى حوض الكونغو ، كما كان البحر الأحمر صلة ربط وحلقة اتصال دائم بين مصر وأقطار شرق القارة الأفريقية بدءا من أريتريا والصومال شمالا حتى الساحل الأقصى الجنوبى للقارة ، كذلك فإن الصحراء الكبرى لم تقف عازلا بين دوام الصلة والاتصال بما كان يوجد بها من واحات ومسالك ومسارب لكى تصل مصر عن طريقها إلى أنحاء غرب القارة مؤدية رسالتها عاملة بحق الاخوة الإسلامية فى العطاء مع سلطنات وسط وغرب القارة الأفريقية .

كذلك فإن تلك الصحراء بما كان يوجد بها من مسالك ومسارب أيضا قد ساعدت على صلة الربط والصلة بين مصر وبلاد المغرب العربى بأقسامه الاربعة سواء عن الطريق البرى الداخلى الذى يأخذ مجراه من موانئ مصر وبلادها متصلا إلى مراكش فى أقصى المغرب الأقصى أو استخداما للمدن الساحلية والموانىء المطلة على ساحل البحر المتوسط فيما بين الاسكندرية وطرابلس وتونس وبجاية والمهدية وغيرها من موانىء البحر المتوسط بعد أن سيطر المسلمون على جزر البحر المتوسط بحيث أصبح ذلك البحر بحيرة عربية ، ومن هنا أمن المسلمون حركة النقل والاتصال من الاسكندرية إلى كل موانىء البلاد المغربية .

وبذلك أكون قد أوضحت فى هذا الباب كيف أن هذه الروابط والصلات والأدوار التاريخية التى تحتم على مصر أن تضطلع بها وأن تمارسها فى القارة الأفريقية ماكان لها أن تبرز إلى تلك الصدارة إلا عن طريق محاولة القضاء

على كل العقبات التى كانت تعترض حركة الانطلاق عبر كل هذه الوسائل والوسائط ، سواء ماكان منها بحريا أو نهريا أو صحراويا داخليا عبر رمال الصحراء الواسعة الممتدة على ساحة الصحراء الكبرى .

ولقد أولت مصر اهتمامها كل الاهتمام لهذه المعابر لما لها من دور خطير ومؤثر على مجريات الأحداث التاريخية فى مصر وقدرتها على أداء الدور الذى أراد لها قدرها المحتوم أن تقوم به لأداء تلك الرسالة الإنسانية خير أداء فى كل أحقابها وأدوارها التاريخية وفتراتها الزمنية .

ولقد تبوأت مصر مكان الصدارة والقيادة والريادة فى القارة الأفريقية ، ومن هنا كان الواجب يحتم علينا فى تلك الدراسة التاريخية أن نلقى الظلال والأضواء لكى تكشف الومضات المضيئة فى ذلك الدور التاريخى الذى قامت به مصر فى القارة الأفريقية فى العصور الوسطى الإسلامية حيث كانت مصر حصن الإسلام الأمين ودرع العروبة المتين والتى تكسرت عليه هجمات المغول والتتار والصليبيين ، بل كانت ملجأ وملاذا لكل القادمين إليها طلبا للعلم والرزق والمأوى ، بل كانت قلبا مفتوحا لكل الوافدين من كل الديار الأفريقية والإسلامية فى ظل مقرها للخلافة العباسية بعد سقوط بغداد .

لقد كان وجود الخلافة العباسية فى مصر قد جعل منها قبلة حكام المسلمين الذين وفدوا إلى مقر الصدارة الإسلامية ، إضافة إلى وجود الأزهر الشريف الذى صان الاسلام وحفظ اللسان العربى وحفظ وجوده فى القاهرة كل الميراث الحضارى الإسلامى ، بل إن ذلك الدرع الإسلامى الواقى للإسلام قاوم كل عاديات الدهر ومحن الزمان ، فكان أن أدت مصر بالخلافة والأزهر دورا طليعيا فى القارة الأفريقية بحيث كان تأثيرها عميقا فى شتى المجالات .

ومن هنا استطاعت مصر أن تؤدى دورها وواجبها تجاه الأخوة الأفريقية العربية المسلمة وغيرها من العناصر الأخرى ، وقدمت لها خلاصة ما استطاعت أن تقدمه من خبرة وعلم وفن وتجارة وثقافة وفكر وعقيدة بحيث أصبح العطاء المصرى معترفا به فى كل البلاد التى سنعرض لها فى تلك الدراسة والتى كانت طرق الاتصال البرية والبحرية سببا قويا وعاملا من عوامل الربط بحيث لم تكن هناك موانع طبيعية تحول دون أداء مصر لدورها القدرى الذى ألقت به العناية الإلهية لكى تضطلع به فى كل فتراتها التاريخية وإن كان أكثر وضوحا وتأثيرا فى العصر الإسلامى أو العصور الوسطى قبل قدوم حملات الكشوف الجغرافية والاستعمارية التى أوقعت القارة فى براثن الاستعمار الغربى .

الباب الثانى

دور مصر الحضارى فى وسط وغرب أفريقيا

الفصــــل الأول

دور مصر السياسى فى وسط وغرب القــــــارة

قبل الخوض فى تفاصيل ذلك الدور المصرى السياسى فى القارة الأفريقية سواء فى غرب القارة أو شرقها أو شمالها أو حوض النيل ، فإنه يجب أن نؤكد حقيقة سياسية وتاريخية هامة وثابتة لاتقبل الجدل أو النقاش وهو أن الدور المصرى على مر العصور لم يكن لبسط النفوذ أو فرض السيادة السياسية أو النفوذ الاقتصادى أو الوصاية على هذه الأمم أو الاحتلال إنما هو دور أخوى ثابت كانت تفرضه الظروف والأحوال السياسية الراهنة فى العصور الوسطى .

والذى يتتبع الدورالمصرى فى وسط وغرب القارة الأفريقية يدرك تمام الإدراك قوة وصلابة ذلك الدور منذ أن أشرقت أنوار الدعوة الإسلامية على أرض القارة الأفريقية حيث كانت مصر هى النواة الأولى للنشاط الإسلامى فى القارة الأفريقية منذ أن دخل عمرو بن العاص أرض الكنانة فى عام ٢٠هـ/٦٤٠م ثم تبلور الدور المصرى فى تغذية بقية أنحاء القارة بتلك الأمواج البشرية العربية الإسلامية التى كانت أرض مصر هى موطأ قدمها الأولى ثم بعد ذلك تأخذ فى الانسياح فى بقية أنحاء القارة .

وكان الدور المصرى قد بدأ يأخذ دوره الفعال والمؤثر فى تلك الأنحاء منذ القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، منذ قرار السلطان المملوكى الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة عام ١٢٦١/٦٥٩م ومن ثم

بدأت مصر تتبوأ مكانتها المرموقة فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية ، ذلك لأنه بالنظر للأحداث السياسية السابقة قبل ذلك التاريخ فإن مصر كانت ولاية أموية أو عباسية يسرى عليها ما يسرى على غيرها من الولايات الإسلامية وإن كان لها دور متميز دون سائر الولايات الأخرى كما أن العصر الفاطمى قد شهد بعدا جديدا فى ذلك الدور ، إذ أن اتخاذ القاهرة مقرا للخلافة الفاطمية والتوسع فى بلاد الشام والحجاز قد جعل منها محطا لأنظار العديد من الأقطار الإسلامية ولا سيما فى المغرب وجزر المتوسط ، لكن احياء الخلافة العباسية قد صنع لها دورا بارزا ومؤثرا وفعالا فى الحياة السياسية فى العالم الإسلامى .

وإذا نظرنا إلى دول وسلطنات وسط وغرب القارة الأفريقية نجد أن منها العديد من السلطنات والتى هى كانم أو برنو ، ووادای باجرمى كانت تقع شرق وجنوب بحيرة تشادوالتى كان يطلق على تلك السلطنات اسم سلطنات السودان الأوسط والتى تقع فى منطقة السفانا حيث تحف بها الصحراء الكبرى شمالا ومنطقة الغابات الاستوائية جنوبا .

وقد مارست مصر أدوارا سياسية مع تلك السلطنات والتى منها كانم ـــ برنو لكى ندرك عمق العلاقة السياسية والدور السياسى الذى لعبته مصر فى تلك الأنحاء وكذلك سلطنة البولالا الإسلامية التى قامت حول بحيرة فترى والتى استطاعت أن تقضى على كيان سلطنة كانم السياسى فى شرق بحيرة تشاد وتضطرها إلى الرحيل إلى جنوب وغرب البحيرة .

إننا إذا نظرنا الى دور مصر السياسى فإنه تأكيدا لروح الاخوة الإسلامية وللافادة من الخبرات العلمية والسياسية والثقافية والاقتصادية التى وصلت إليها مصر . فاذا نظرنا إلى سلطنة كانم وصلاتها السياسية بمصر حيث كانت كانم ـــ برنو أقرب السلطنات الإسلامية وسط القارة الأفريقية إلى الطريق الذى سلكته القوافل المصرية فى الصحراء الغربية وطريقها إلى الواحات المصرية وكانت تلك الواحات عامرة فى ذلك الوقت ومتصلة بأرض تلك السلطنات . وكانت تلك الواحات ، كما سبق أن ذكرنا ، تمثل نقطة ارتباط بين مصر وبلاد كانم ـــ برنو ـــ حيث إن تلك السلطنة لم يكن لها اتصال بشىء من الممالك والعمارات إلا من جهة المغرب وذلك لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم وإنه بينها وبين واحات مصر مساحات واسعة من

الرمال ، وبالرغم من ذلك فإنه يمكن القول إن الواحات كانت تمثل نقطة للراحة على الطريق بين مصر والقادمين من بلاد برنو ــ كانم وذلك لأن القوافل كانت تسير عبر الطرق الصحراوية فى مصر الى كردفان ودارفور ثم الى كانم ــ برنو ودارفور .

وعلى ذلك فإنه يمكن القول إنه كانت هناك روابط وعلاقات سياسية قوية استطاعت مصر من خلالها أن تمارس دورها مع تلك السلطنات التى قامت فى النطاق شبه الصحراوى فى القارة والتى كانت منها سلطنة كانم وبرنو وإن هذه العلاقات وتلك الأدوار قد توطدت توطدا ملموسا وذلك لأن مصر كانت تمثل ثقلا سياسيا ممتازا ومرموقا فى العالم الإسلامى بأسره شرقه وغربه .

ولقد أتيح لهذه البلاد باتصالها بمصر أن يكون اتصالها ببلد أرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة فى ذلك الوقت لأن الارتباط المباشر مع تلك البلاد كان صاحب الأثر الكبير فى تشكيل وتوجيه تاريخ هذه البلاد ، ذلك لأن بلاد وسط وغرب القارة ومنها كانم ــ برنو والبولالا لم تنقطع صلتها بالعالم الخارجى فى أى فترة من فترات التاريخ ولم تحل وعورة الصحراء دون هذا الاتصال . وهناك حوادث متناثرة تلقى بعض الضوء على نوع العلاقات التى كانت تربط مصر بهذه البلاد فى العصور الوسطى ، ولعل أبرز تلك النواحى وأكثرها وضوحا (وجود الخلافة العباسية بالقاهرة وحج سلاطين تلك الدول ورعاياهم إلى بلاد الحجاز ومرورهم بمصر) حيث إنه من الثابت تاريخيا أنه كانت هناك صلات قوية وعميقة ولكنها كانت أكثر وضوحا فى نواحى الحج ، فقد كان أداء فريضة الحج عاملا هاما للربط والتفاهم فكان ركب الحجيج يمر بمصر ليتعرف على أهلها وينعم بتيارات الفكر الدينى ، وكان ذلك من عوامل تقوية العلاقات السياسية وتطور الأساليب الحضارية بالإضافة إلى أن الحج كان وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يمثل أقوى الروابط الدينية والسياسية التى ربطت مصر بدول وسط وغرب أفريقيا والتى منها كل السلطنات إلى غانا ومالى وسنغاى وبلاد الهوسا وسلطنة التكرور ، حيث كما سبق أن ذكرنا أن سكان تلك النواحى (غرب أفريقيا) اعتادوا فى طريقهم أن يسلكوا الدروب

الصحراوية والتى منها الدرب المعروف بطريق غات والذى يبدأ من ساحل المحيط الاطلسى غربا والذى ينتهى عند الاهرام المصرية شرقا .

ومن هنا فإن الحديث عن دور الحج فى تعميق الدور المصرى فى وسط وغرب أفريقيا يوضح الصلات الإسلامية والسياسية والاقتصادية التى كانت سائدة فى تلك الفترة .

كذلك فإن الدور السياسى المصرى مع تلك البلاد بصفة خاصة كان يسوده نوع من التعاطف والانسجام بين مجتمعين إسلاميين وهو تعاطف شمل الأمة الإسلامية على جميع مستوياتها الاجتماعية .

فمن الثابت أن حجاج وسط وغرب افريقيا فى ذهابهم لمصر لم يكن لمجرد المرور والعبور للذهاب للأراضى الحجازية بل لإحساسهم العميق بأهمية مصر فى حياتهم ، ذلك لأن الأراضى المقدسة الإسلامية فى الحجاز كانت تخضع للنفوذ المصرى وسيادة القاهرة . بالإضافة إلى أن مصر كان لها رصيد حضارى وسياسى متفوق ، لذا قصدها الحجاج مشوقين لمشاهدة ذلك المركز السياسى من جميع جوانبه الفكرية والسياسية والتنظيمية والدينية والاقتصادية . هذا بالإضافة إلى أن مصر كانت وسيطا حضاريا بين تلك المناطق الأفريقية ومناطق العالم الأخرى ، وذلك بسبب موقعها الجغرافى الممتاز الذى جعلها قلب العالم الاسلامى لدورها فى أفريقيا ذلك بجانب كونها حامية الحرمين الشريفين والأماكن المقدسة فى بيت المقدس . ولقد عنى سلاطين المماليك فى مصر عناية كبيرة ببسط حمايتهم على كل الأراضى المقدسة فى الشام والحجاز ونشر النفوذ المصرى فى تلك الأنحاء .

ولقد كان لمرور سلاطين بلاد وسط وغرب القارة بمصر فرصة طيبة تتيح لهم فرصة الاستقرار بها ريثما يهيأ موكب الحج والمحمل للخروج إلى مكة المكرمة . ولقد اتخذ ملوك وسلاطين تلك البلاد فريضة الحج وسيلة لهدفين : أحدهما دينى ، والآخر سياسى ، ذلك لأن سلاطين تلك البلاد كانوا يقصدون من الحج تأدية الفريضة ، وهذا هو الجانب الدينى ، أما الجانب السياسى فهو مقابلة الخليفة العباسى فى القاهرة والحصول على الخلع والتقاليد والاعتراف بهم سلاطين على بلادهم ومنحهم تفويضا شرعيا للحكم فى ولاياتهم التى استولوا عليها ، كما أنه قد وجد فى سلطنة برنو بعض السائرين على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وهذا خير شاهد على

أثر مصر وصلاتها ببلاد كانم . إضافة إلى انتشار المذهب المالكي الذى وفد أيضا إليهم من مصر .

ولقد ساعدت هذه الصلات والعلاقات السياسية والتى ربطت بين مصر وبلاد برنو على انتشار الثقافة العربية والحضارة الإسلامية فى ربوع تلك الديار ، ومن ذلك اقتباس بعض نظم الحكم واتخاذ اللغة العربية أداة للمراسلات الرسمية وتشجيع الحركة العلمية القائمة على التعاليم الإسلامية وتوطيد العلاقات السياسية والتى كانت تربط مصر ببلاد برنو ووصول حكام هذه البلاد على رأس رعاياهم وإرسالهم الهدايا إلى السلطان المملوكى وحاشيته وذلك لأنه مع بداية القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى ، أصبحت دولة المماليك فى مصر والشام أقوى وأغنى قوة إسلامية على مسرح العصور الوسطى . وساعد على بلوغ الدولة المملوكية تلك المكانة من الازدهار السياسى والاقتصادى ما كانت تتمتع به من مركز جغرافى ممتاز وقوة عسكرية وسياسية فريدة فى ذلك العصر .

والأدلة كثيرة ومتنوعة وهى التى تبين عمق الدور المصرى فى المجال السياسى . ففى مراسلات ديوان الإنشاء المصرى يوجد مايدل على الاحترام المتبادل والتعاطف السامى مع العاطفة الحية بينهما . فها هى الدعوات تنهال على سلاطين تلك الانحاء تبارك خطواتهم وترجو لهم النصر والفوز على أعدائهم الكفرة الوثنيين المجاورين ، وقد حفظ لنا ديوان الإنشاء رسم المكاتبة التى كان يرسلها الديوان إلى سلاطين بعض هذه الأقطار (وقد حفظت لنا المصادر نص رسالة تبودلت بين سلطان برنو وبين السلطان المملوكى الظاهر برقوق تتعلق بشكوى عرب جذام الذين اجتاحوا مع غيرهم من العرب المهاجرين من مصر جنوبا مملكة الزغاوة حتى سيطروا على دارفور ، واتخذ أولئك الاعراب هذه المنطقة قاعدة لشن غاراتهم على ما جاورها من أقاليم فى سلطنة برنو فى الغرب وقد يكون مركز مصر السياسى القوى ودورها فى تلك المنطقة من الأسباب القوية التى دفعت سلاطين برنو إلى مراسلة السلطان برقوق بهذا الشأن .

وقد زادت أعداد العرب بكثرة تدريجيا فى منطقة السودان الأوسط بعد أن قدمت إلى تلك المنطقة هجرات عربية كبيرة والذين تعاونوا مع البولالا فى القضاء على ملوك كانم وتسببوا فى قتل السلطان عمر بن ادريس

واستباحوا استرقاق الأهالى رجالا ونساء كبارا وصغارا ، واستولوا على كميات كبيرة من الذخيرة والعتاد من مدينة تجيمى عاصمة كانم ورحلوا بعد أن أخذوهم أسرى فى شكل رقيق إلى مصر وما جاورها من الأقطار العربية .

وقد وردت رسالة سلطان كانم وبرنو الى مصر عام ٧٩٤هـ/١٣٩١م مع ابن عم سلطان برنو مع هدية قيمة بعث بها إلى سلطان مصر وهى عبارة عن زئبق وغيره وذلك فى طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

وقد كان سلاطين وسط وغرب أفريقيا بما فيهم سلاطين كانم ـ برنو فى نظر ديوان الإنشاء فى مرتبة أقل من ملوك وسلاطين المغرب واحتوت نماذج المراسلات بين مصر وسلاطين تلك الدول والدعاء لهؤلاء باستمرار حضور حجاجهم للأراضى والديار المصرية ، وكذلك تدل هذه النماذج التى حفظها ديوان الانشاء المصرى على معرفة الدولة المملوكية بأحوال تلك الديار .

كما أن بلاد وسط وغرب أفريقيا كانت مهتمة بالأحداث السياسية الكبرى التى كانت تجرى فى الشرق الإسلامى وبصفة خاصة فى مصر وخاصة خطر المغول والتتار والصراع الصليبى .

ويتضح من الرسالة المتبادلة بين سلطان مصر الظاهر برقوق وسلطان كانم أنها تحمل أسلوبا من التوسل والرجاء ، وذلك لمكانة مصر فى تلك البلاد ودورها السياسى فى معالجة مثل تلك الأزمات التى تحدث من جراء هجوم القبائل العربية على تلك البلاد .

كذلك فإنه يمكن أن يستدل من بين سطور تلك الرسالة على المكانة السياسية والنفوذ الأخوى الذى كان لمصر فى تلك الديار ولدور سلاطينها ، إذ من الطبيعى أن يقوم بين مصر بثقلها الإسلامى والحضارى وموقعها الجغرافى وبين الدول الإسلامية وشعوبها فى غرب أفريقيا علاقات وصلات وطيدة ، بل إن العلاقات والصلات كانت قوية ومتنوعة فى شتى المجالات ، إذ كان لانتشار الإسلام فى غرب ووسط أفريقيا أثر بارز فى عمق الصلات بين مصر وشعوب تلك المنطقة كما جاء فى خطاب سلطان كانم بأن سلطان مصر ملك جليل وأن مصر هى أرض الله المباركة أم الدنيا .

وقد حج من سلاطين كانم ـ برنو العديد من سلاطين هذه الديار ، والتى

أشارت إليهم العديد من الرسائل الاكاديمية العلمية ، وان هؤلاء السلاطين استقروا بالقاهرة فترة طويلة وهم فى طريقهم إلى الأراضى الحجازية حتى يتجمع ركب الحجيج ويخرج المحمل والكسوة التى كانت ترسلها مصر سنويا للكعبة المشرفة ، بالإضافة إلى أن هؤلاء السلاطين القادمين من غرب ووسط أفريقيا اختلطوا بحكام مصر وعلمائها وقضاتها ورجال الدين والفكر بها وربما يكونون حضروا دروس العلم والفقه والشريعة واللغة العربية التى كانت تلقى بالجامع الأزهر وناقشوا أمور الدين مع العلماء المصريين وعرضوا المسائل الفقهية التى كان يصعب حلها لعدم وجود العلماء والفقهاء الجهابذة فى بلادهم مثلما هو فى مصر ، بل إنهم اشتروا بعض الكتب الدينية من القاهرة وحملوها معهم عند عودتهم إلى بلادهم واقتبسوا الكثير من أنظمة الحكم والإدارة والطرق التى يسير عليها دولاب الحكم فى مصر ، والأمور الفقهية والقضائية على المذهب المالكى السائد فى بلادهم والتى كان معمولا بها فى مصر وحاولوا تطبيقها فى بلادهم مع ملاءمة ذلك للأحوال والظروف السائدة فى تلك الديار ، ولا يستبعد كما سبق القول أن يكون من أهداف أداء فريضة الحج لهؤلاء السلاطين مقابلة الخليفة العباسى بالقاهرة والحصول منه على تقليد بالسلطة فى بلادهم .

ولقد توثقت العلاقات بين مصر وكانم برنو والبولالا وباجرمى ووادای ، وغيرها من بلاد وسط وغرب القارة (مالى ــ غانا ــ سنغاى ــ امارات الهوسا ، التكرور وغيرها من سلطنات القارة) وزادت هذه العلاقات توثقا بمرور الزمن ، بالإضافة إلى أن مصر ارتبطت بروابط قوية مع كثير من بلاد السودان الغربى والأوسط إذ كان ملوك وسلاطين وسط غرب القارة يخطبون للخليفة العباسى فى بغداد قبل سقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول عام ٦٥٦هـ ثم انتقالها إلى القاهرة عام ٦٥٩هـ . ولكن كيف تكون لهذه البلاد صلات وروابط مع بغداد ولا تكون هناك صلات قوية مع القاهرة بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد وانتقالها إلى مصر ، ذلك لأن القاهرة أقرب إليهم وهم فى طريقهم لأداء فريضة الحج ولا يتصور وجود صلة بين بغداد ووسط غرب القارة أقوى مما هى مع مصر ذلك لأن طرق المواصلات تربط مصر بهذه الأقطار إضافة إلى أن الجوار عن طريق الواحات وأيضا عن طريق مصر ــ غانا الذى كان طريقا معمورا ومناهله معلومة .

وقد ذكر ديشان هوبير فى كتابه الديانات فى أفريقيا السوداء ان أحد سلاطين برنو قابل وهو فى طريقه لأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة الخليفة العباسى بالقاهرة اذ ذاك ، وطلب منه الخلع والتقاليد . ولما عاد من الحج أعاد تنظيم مملكته على أساس ما رآه من نظم إسلامية راقية فى تلك الممالك والسلطنات التى مر بها . ومهما يكن من أمر هذه الروايات فإنها تدل دلالة صريحة على حرص حكام الدول الإسلامية فى غرب أفريقيا على الحصول على تقليد بالحكم فى بلادهم من الخليفة العباسى ، ومن المعروف أن صاحب الحق فى منح مثل هذا التقليد هو الخليفة العباسى بالقاهرة وليس أمير مكة المكرمة كما ذكرت بعض المصادر ذلك .

ذلك لأنه كان للخلفاء العباسيين فى القاهرة مكانة سامية فى نفوس كثير من الحكام المسلمين على مستوى العالم الإسلامى أجمع ، إلا أن ذلك لايعنى أن الخليفة العباسى فى مصر كان له نفوذ على جميع ممالك العالم الإسلامى ولكن الخلفاء العباسيين فى مصر كانوا يضفون الشرعية على حكم ملوك السودان المسلمين فى وسط وغرب أفريقيا مثلما كانوا يفعلون بالنسبة للسلاطين فى مصر والحكام المسلمين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى . ومع أن الخليفة العباسى لم يكن له القوة السياسية إلا أنه ظل يتمتع بالنفوذ الدينى ، وكان بعض السلاطين يستعينون بالخليفة فى توطيد دعائم ملكهم إذا أحسّ أحدهم بأنه قد خرج عليه أمراء دولته ، وكان أمراء تلك البلاد يجدون فى ذلك التقليد الشرعى نوعا من التبرك والقوة والإعزاز والفخر ويكسبهم البهجة والاجلال بين رعاياهم : وقد تلقب بعضهم بألقاب منها سيف الخلافة وظهر الإمامة وعضد الدولة أمير المؤمنين . وهكذا يبين مدى الارتباط الوثيق بخليفة مصر وسعى ملوك وسلاطين السودان الأوسط والغربى إلى إضفاء التقليد الشرعى على سلطتهم فى بلادهم من قبل خليفة مصر العباسى والتى أحياها الظاهر بيبرس وأصبح حاميا للإسلام ، ومنذ ذلك الوقت أصبح إحياء الخلافة له أثر كبير فى توطيد الدور المصرى السياسى فى وسط وغرب القارة لا سيما وأن سلاطين البلاد هذه كانوا يهتمون بأن يحيطوا سلطانهم بسياج من الشرعية الدولية والدينية وتدعيم ملكهم ، ومن هنا حرصوا على الحضور إلى القاهرة يطلبون من الخليفة العباسى تقليدا بتفويضهم حكم بلادهم ، وعادة كان السلطان يمنح مثل هذا التقليد وذلك لأن هذا التقليد

يكسبهم شرعية وطاعة بين مسلمي بلادهم لاعتراف الخلافة العباسية به سلطانا فى ناحيته .

بل إن الذى ساعد على ربط تلك البلاد سياسيا بالقاهرة ازدياد حرص حكام غرب أفريقيا على تقليد الخليفة العباسى فى حالة قيام أسرة حاكمة جديدة أو حدوث انقلاب على السلطة الشرعية (وحدث ذلك من قبل سلاطين البولالا وسلاطين فترى وكانم) وطلبهم الحصول على تفويض من الخليفة العباسى بحكم هذه المناطق ولكن طلبهم لم يلق القبول) لأن هذه الأسرة التى كانت تقيم حول بحيرة فترى استولت على كانم من أبناء عمومتها من أسرة سيف بن ذى يزن) فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، وأرسلوا وفدا من قبلهم إلى القاهرة للحصول على ذلك التأييد الشرعى والدينى لحكمهم تلك البلاد والأقاليم التى سيطروا عليها بالقوة ، ولكن أسرة البولالا لم تستطع أن تظفر بشىء من هذا التأييد بالرغم من الأموال والهدايا التى حملها الوفد معه للخليفة العباسى والسلطان المملوكى بالقاهرة .

ولقد ساعد على اتمام الدور السياسى الذى كانت تقوم به مصر فى غرب أفريقيا هو اتجاه مسلمى تلك البلاد بأبصارهم قبل البيت الحرام ومرورهم بقوافلهم الكبيرة الكثيرة العدد والعدة عبر الأراضى المصرية التى كانت هى المعبر الوحيد لهم ولسكان بلاد المغرب العربى عاملا من أهم العوامل الاساسية فى تقوية الاتجاه الداخلى بين المسلمين حول ضرورة الالتقاء فى ذلك المركز العالمى الإسلامى (مصر)بالإضافة إلى أنه أسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الإسلامى طابعا من الوحدة الإسلامية وصفة التماسك والترابط بين جميع مسلمى العالم الإسلامى .

ولقد كان لدور مصر القيادى فى العالم الإسلامى أثره الكبير فى قيام العلاقات ، وذلك لأن مصر حين صارت دارا للخلافة عظم أمرها وعظمت شعائر الاسلام بها وعلت فيها السنة ومنعت فيها البدعة ، وذلك بسبب سكن خلفاء بنى العباسى بمصر ، والذى ساعد على أن يكون عاملا من عوامل إضفاء الدور القيادى لمصر ، إذ ترتب على إحياء الخلافة العباسية أن فرض سلاطين المماليك فى مصر لأنفسهم مكانا ساميا على العالم الإسلامى باعتبارهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها . وكان سلاطين مصر رغم ثقتهم فى عدم قوة الخلفاء العباسيين سياسيا ، إلا أنهم كانوا حريصين على أن يمنحهم الخليفة

تفويضا بالسلطنة ليكسبوا حكمهم صفة الشرعية وذلك لأنه لا يجوز أن يطلق أحد على نفسه سلطانا إلا إذا بايعه الخليفة العباسى بذلك .

ولقد وجد بعض الأمراء المسلمين فى العديد من الأقطار الإسلامية فى الخليفة العباسى بالقاهرة ضالتهم المنشودة لمنحهم تفويضا شرعيا بالحكم فى ولاياتهم التى استولوا عليها بالخديعة أو القوة أو الاغتصاب من صاحب الحق الشرعى (كما حدث بالنسبة لبولالا مع سلاطين الكانم) كذلك فإن حكام القاهرة لم تكن لهم أية مطامع فى البلدان الأفريقية المجاورة أو غير المجاورة ، وأن الصلات كانت صلات من الوفاق والتفاهم بينهم وبين أخوانهم فى وسط وغرب القارة الأفريقية ، ومن ثم تم خلق نوع من الوفاق والتفاهم والتعاون بين المصريين واخوانهم فى تلك البلاد ، بل إن هذا الدور المصرى الأخوى قد تطور على مر الايام واستمر يسير فى طريقه من عصر إلى عصر حتى كانت نهاية العصر المملوكى وقد احتفظ بطابعه الاخوى بين الفريقين ، وكان الدور الذى لعبته مصر فى هذه البلدان دورا بالغ الأهمية .

وعلى هذا فإنه يمكن القول أن الدور المصرى السياسى والصلات السياسية بين مصر وبلاد غرب ووسط القارة فى العصور الوسطى لم تكن علاقات تستوجب نوعا من الالتزامات ، بل إن تلك العلاقات كانت تسير حرة غير مقيدة بشروط ، وكان لوجود الخليفة العباسى بالقاهرة أثر كبير فى توطيد العلاقات السياسية بين مصر والدول الإسلامية فى وسط وغرب أفريقيا .

ومن هذا المنطلق لدور الخليفة العباسى فى العالم الإسلامى يسعى سلاطين تلك الأقطار بدورهم للحصول على تأييد وضمان مصر السياسى والمادى للاعتراف بشرعيتهم فى حكم البلاد التى تولوا إدارة شئونها ، وعلى هذا فإن نفوذ مصر السياسى والحضارى والثقافى كان قويا فى تلك البلاد بل معترفا به كل الاعتراف فى العديد من تلك الجهات البعيدة عن القاهرة وذلك فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى . وكان المجىء للقاهرة لمقابلة الخليفة العباسى والحصول على التقليد الشرعى فى حالة قيام أسرة جديدة فى الحكم .

وإذا كنا قد نظرنا إلى حالة أسرة البولالا ومحاولة إضفاء الشرعية على حكمها عن طريق الحصول على تفويض شرعى بحكم تلك المناطق المسلوبة من حكام كانم من الخليفة العباسى بالقاهرة إلا أنها لم تتمكن من الحصول على ذلك التقليد ، إلا أننا نجد تلك الحالة تتكرر مرة أخرى مع سلطان سنغاى

فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، إذ نجد أن الاسكيا محمد بن أبى بكر التورى مؤسس أسرة الاساكى فى سنغاى ، قد تولى الحكم لا عن طريق وراثة العرش أو نسب عائلى ، وإنما جاء الحكم عن طريق قيادته لثورة وتمرد على الحكم الشرعى وتولى مقاليد الأمور فى البلاد عن طريق رفضه« مبايعة أبى بكر داتو بنى سنى على » الحاكم السابق للبلاد واستيلائه على مقاليد الأمور بالقوة . ومن هنا فإنه لا يستبعد أن يكون من الأسباب القوية إلى دفعته إلى أداء فريضة الحج هو إحساسه بضرورة توطيد أركان حكمه ودعائم قيادته للبلاد وإضفاء الشرعية على ذلك الحكم . ومن هنا اتخذ طريقه لأداء فريضة الحج ومروره بمصر عام ٨٨٩ هـ / ١٤٩٦م فى موكب حافل لمقابلة الخليفة العباسى بالقاهرة ، وذلك لأنه كانت لدى الاسكيا محمد التورى قناعة نفسية كاملة بأنه لا يستطيع أن يقر الشرعية الكاملة لحكمه فى سنغاى والاعتراف به كحاكم شرعى للبلاد دون الحصول على سند شرعى من الزعيم الدينى والروحى للعالم الإسلامى والمقيم فى ذلك الوقت بالقاهرة والحصول منه على تقليد بالسلطة فى بلاده التى جاء إلى حكمها ليؤسس أسرة جديدة تعرف باسم أسرة الاساكى التورية .

وتضيف المصادر ذاكرة أنه فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى قام الاسكيا محمد بن أبى بكر التورى مع جماعة من علماء دولته قاصدا الحجاز لأداء فريضة الحج ، وهناك التقى بالخليفة العباسى المتوكل على الله فمنحه لقب خليفة بلاد التكرور ، ثم غادر الحجاز إلى مصر واجتمع برؤسائها ، وكان سلاطين سنغاى على اتصال دائم بمختلف العلماء والمفكرين فى مصر وبقية العالم الاسلامى ، كما كانت سنغاى تقيم أواصر الصداقة مع رجال الحكم فى مصر فى ذلك الوقت وقبل سقوطها أمام الغزو العثمانى عام ١٥١٧م .

وقد حصل السلطان محمد بن أبى بكر التورى على تفويض من الخليفة العباسى بأنه الحاكم الشرعى الوحيد لسلطنة سنغاى وخليفته فى بلاد التكرور كما التقى بالقاهرة مع رجال الدولة والدين مثلما فعل من قبله (السلطان موسى سلطان مالى) قبل ذلك بمائة وخمسين عاما ، وترك ركب السلطان موسى تأثيرا فى كل مكان ذهب إليه كما حدث بالفعل للاسكيا محمد .

وكانت رحلة حج السلطان موسى سلطان مالى من الأسباب القوية التى أدت اتساع سمعة وشهرة مالى ، كما ساعدت على تدعيم دور مصر السياسى فى

تلك البلاد أثر تلك الزيارة التى قام بها السلطان لمصر عام ١٣٢٤م . فى موكب مهيب والذى سار فيه السلطان موسى لأداء فريضة الحج ومروره بالقاهرة وقد انتشرت أخبار حجه إلى الديار المقدسة وما وقع له فى هذه الرحلة فى الذهاب والعودة وخلال اقامته بالقاهرة حتى وصلت إلى أوربا وإلى جميع أنحاء العالم الإسلامى . ولقد قام بأداء فريضة الحج العديد من سلاطين كانم وبرنو والبولا وباجرمى ووادای وسنغای ، وكذلك سبق السلطان موسى فى أداء فريضة الحج العديد من سلاطين مالى الذين استقروا بمصر فترة طويلة دعموا فيها صلاتهم بالسلاطين والخليفة العباسى ورجال الدولة .

إلا أن موكب السلطان موسى عام ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م هو الذى بهر شعب مصر والحجاز والعالم الاوربى من حيث الفخامة والروعة ودلائل النعمة والترف .

ويذكر أن السلطان موسى عقد العزم على أداء فريضة الحج وقام بجمع المال والجهاز اللازم للسفر ونادى فى وطنه من كل جانب بطلب الزاد والعون وطلب من بعض رجال الدين أن يختاروا له يوم خروجه من بلاده قاصدا أرض الله المقدسة فقيل له يجب أن تنظر يوم السبت الذى سيكون ثانى عشر من شهر ربيع أول واخرج منه فلا تموت حتى ترجع إلى دارك سالما بإذن الله . وأخذ السلطان ينتظر ذلك الشهر حتى خرج ووصل على رأس قافلته إلى مدينة تمبكتو وهو فى داره مالى وسلك السلطان موسى طريق القوافل الغربى الذى يبدأ من منحنى نهر النيجر إلى المغرب عن طريق سجلماسة فقد كانت هناك أربع طرق رئيسية للقوافل تربط حوض نهر النيجر بشاطىء البحر المتوسط وكانت مصر تتصل بوسط وغرب أفريقيا عن هذه الطرق الا أن الطريق المألوف بين مصر ومالى هو الطريق الشرقى .

وخرج السلطان موسى عام ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م من عاصمته مالى على النيجر إلى مدينة ولاته شمال شرق مدينة كبى صالح عاصمة غانا ثم منها إلى واحة توات ثم إلى طريق ورجلان شمال شرق توات إلى ساحل خليج ستمرس عند تونس ، مما أتاح للتجار الأوربيين الذين يعملون فى تبادل السلع مع أفريقية أن يشاهدوا موكبه .

وقد وصل المنسا موسى القاهرة فى رجب عام ٧٢٤هـ / يوليو ١٣٢٤م حيث

استقبل من قبل السلطنة المصرية بما يليق به من احترام وتقدير ، فقد أوفد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعض كبار الامراء لاستقباله وعين المهمندار أبو العباس أحمد بن على الخاقانى لهذه المهمة طوال اقامته بالقاهرة ــ وكانت مهمته تلقى الرسائل والوفود الواردة الى السلطان وانزالهم بدور الضيافة لكى يكون مرافقا له خلال تلك الفترة فى مصر .

وقد ذكر ابن حجر العسقلانى فى كتابه «الدرر الكامنة» عن المهمندار قوله خرجنا لملاقاة السلطان موسى من جهة سلطان البلاد الناصر محمد بن قلاوون ، فأكرمنى إكراما عظيما وعاملنى بأجمل الأدب ، ولكنه كان لايحدثنى إلا عن طريق ترجمان مع إجادته اللسان العربى . وقدم للخزانة السلطانية حملا من التبر . ويضيف ابن حجر العسقلانى أنه قدم للخزانة السلطانية دون التبر غير المعدنى ، شيئا كثيرا من الذهب الخالص الذى لم يصنع. وقدر ابن حجر قيمة الهدية بنحو خمسة آلاف مثقال .

أما ابن خلدون فقدرها بنحو خمسين ألف دينار ذهبا ، وأشار المقريزى إلى أن هدايا السلطان موسى سلطان مالى كانت جليلة ، وأن ذهبه كان كثيرا . وهذا دليل مادى حيوى ثابت على مكانة مصر السياسية فى ذلك الوقت ودورها السياسى وقوة مكانتها عند سلطان مالى . بل يضيف المهمندار قائلا : إن السلطان موسى لم يترك أميرا ولا رب وظيفة سلطانية إلا وبعث إليه بالذهب .

وعندما دخل السلطان موسى على السلطان الناصر محمد بن قلاوون طلب إليه أن يقبل الأرض فوقف مكانه ورفض وأبى إباءً ظاهرا ، وقال للترجمان «يونس ويمال التكرورى» الذى كان يعمل ترجمانا فى مصر : أنا لا أسجد لغير الله ، وإنما جئت للحج لا لغيره . وأعطاه السلطان الناصر فى ذلك التقليد وقربه وأكرمه وتحدث معه وأمر بإنزاله بقصر عند القرافة الكبرى وأقطعه هذا القصر .

ومما هو جدير بالذكر والملاحظة أن تجار البندقية الذين كانوا يقيمون بالقاهرة وكتبوا تقارير عنه الى بلادهم ، بالإضافة إلى أن السلطان الناصر بعث إلى الخليفة بهدية حافلة متنوعة ، وخلال إقامة موسى بالقاهرة أفاد الكثير من المصريين فى بيع سلعهم إلى أتباعه ، ونشطت حركة البيع والشراء ، وانخفض سعر الذهب فى أيدى الناس بالقاهرة بسبب إغراقها بذهب

غرب أفريقيا وبسبب كثرة الذهب فى أيدى الناس ، ولم يرتفع سعر الذهب بعد ذلك لمدة سنوات طويلة . فلما كان وقت الرحيل للأراضى الحجازية زود الناصر محمد بن قلاوون ضيفه بمبلغ كبير من المال ، وزوده أمير ركب الحاج المصرى الذى صحبه وهو الامير (سيف الله اتيمشى) بالمبالغة فى احترامه والقيام بجميع مايحتاجه فى الحجاز . ثم أدى فريضة الحج وزار المدينة المنورة وأفاض على الحجيج وأهل الحرمين بالإحسان ، ومع قوته واتساع ملكه لم يتصدق فى الحرمين الشريفين بأكثر من عشرين ألف ذهب ، مع أن سلطان سنغاى تبرع وتصدق بمائة ألف ذهب . وطاب المقام للسلطان موسى بالحجاز ومكث به نحو ثلاثة شهور بعد انتهاء موسم الحج . وعند وصوله إلى القاهرة بعث إلى السلطان الناصر بهدية الحجاز تبركا فأجابه السلطان الناصر بن قلاوون بالخلع له ولمن معه من أصحابه .

ويقول ابن أمير حاجب ولى مصر أن السطان موسى كان معه مائة حمل ذهب أنفقها فى سفرته تلك وعلى من بالطريق من مصر إلى الحجاز من قبائل ثم ذهب من مصر إلى الحجاز توجها وعودة حتى احتاج الى قرض فاستدانه على ذمته من كبار تجار مصر وأقرضه ابن الكويك خمسين ألف دينار وأقرض أمراءه كذلك مااحتاجوا إليه من مال (دور أخوى اسلامى) هذا بالإضافة إلى مساعدات سلطان مصر حيث أنعم عليه السلطان بالخيول والجمال ثم اتخذ السلطان موسى فى طريق عودته إلى بلاده طريق القوافل الشرقى والذى يبدأ من مصر إلى برقة إلى طرابلس إلى واحة الكفرة إلى واداى إلى منطقة بحيرة تشاد إلى جاو عاصمة سنغاى حيث كان وصوله إليها عام ١٣٢٥م .

وهذا عن أثر تلك الزيارة فى الروابط السياسية والعلاقات الدبلوماسية بين السلطان وسلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون وعن رحلة الحج التى قام بها السلطان موسى وذاعت أخباره وأدهشت العالم المعاصر . وقد ظل أهل مصر يتحدثون بأخبار السلطان موسى وثرائه وكرمه وضخامة ملكه وعظمته نحو اثنتى عشرة سنة بعد تلك الرحلة .

أما عن رحلة الاسكيا محمد بن ابى بكر التورى سلطان سنغاى فإنه فى طريقه إلى مكة المكرمة مرورا بالقاهرة ، فإنه كان يبحث عن الخليفة العباسى . وذهب الى مقر الخلافة وتلقى دعوة بالمثول بين يدى الخليفة

المتوكل على الله الرابع عشر للحصول على تقليد بحكمه لسنغاى . وأقيم له احتفال استمر ثلاثة أيام ، وأنه فى اليوم الرابع تلقى تقليدا بأن يكون نائبا للخليفة العباسى فى حكم بلاد غرب أفريقيا ، وأن الخليفة العباسى تلقى منه دعوة لزيارة سنغاى (مدى عمق العلاقات السياسية واستمرارها) بل إن هذا التقليد الذى حصل عليه الاسكيا محمد التورى ، تقليد سياسى قديم وبالنظر الى العلاقة بين مصر وتلك البلاد فإنها علاقة الا بن بأبيه نظرا لعمق الروابط فى جميع المجالات ، وقد استقبل فى القاهرة استقبالا رسميا حافلا يليق به كسلطان لأكبر دولة إسلامية فى غرب أفريقيا .

وقد فوض إليه الخليفة العباسى النظر فى أمر ذلك الإقليم وجعله نائبا عنه وعلى من خلفه من بلاد المسلمين ، وانه لما رجع إلى بلاده سار على نهج الخليفة العباسى فى مقعده وملبسه وسائر أموره ومال إلى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم وإحياء طريق العدل .

ويذكر رجال دولة سنغاى أن أهم أحداث عصر الاساكى هو حصول الاسكيا محمد على لقب أمير المؤمنين وخليفة بلاد التكرور ، ذلك لأن رحلة الاسكيا محمد إلى الأراضى المقدسة قد نظمت على نطاق يمكن مقارنتها برحلة المنسا موسى منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، فانها لم تثر نفس الانتباه فى الشرق الاسلامى بل لم تجذب انتباه أحد . ويرجع ذلك إلى أن سلطان سنغاى كان أقل من سلطان مالى اندفاعا وأكثر منه تواضعا واستقامة فى الدين وأنه لا يحب المظاهر البراقة .

وان الاسكيا محمد كان يسعى إلى الخليفة العباسى المتوكل على الله الرابع عشر وقابله وذلك تأكيدا لشرعيته فى حكم بلاده . وكان الاسكيا محمد قد أمضى عامين فى رحلته إلى بلاد الشرق الاسلامى لاداء فريضة الحج وقد عاد الى بلاده حاملا لقب خليفة بلاد التكرور وهو الاسم الذى عرف به فيما بعد أمير المؤمنين وخليفة أرض التكرور ، وبذلك التقليد الذى حصل عليه الاسكيا محمد من الخليفة العباسى فإن سلطنة سنغاى الإسلامية أصبحت تابعة للخليفة العباسى . وقد أجمعت العديد من المراجع الحديثة على مقابلة الاسكيا محمد للخليفة العباسى والحصول منه على تقليد شرعى لحكمه سنغاى .

وكان الاسكيا محمد قبل العودة الى بلاده قد قابل فى مصر الشيخ جلال

الدين السيوطى فسأله الاسكيا عن الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله وسلم أنهم سيأتون بعده ، فقال الشيخ السيوطى هم اثنا عشر ، خمسة فى المدينة واثنان بمصر وواحد بالشام واثنان بالعراق . ومضى هؤلاء كلهم وبقى اثنان بأرض التكرور وأنت واحد منهم ويأتى بعدك الثانى .

ومن الثابت انه استقبل استقبالا رسميا وحافلا بالقاهرة ونظم على شرفه حفلة خاصة تسلم فيها من آخر الخلفاء العباسيين لقب الخليفة الأول على بلاد التكرور .

وهكذا غدت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك قبلة الأصدقاء والأعداء جميعا ، فالأصدقاء يطلبون ودها وتأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء يبتغون ملاطفتها ومسالمتها أو مهادنتها اتقاء بطشها . ومن هذا وذاك تردد السفراء على مصر ، وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما فى عصر المماليك بحيث غدت مركزا لشبكة واسعة فى العلاقات الخارجية بحيث اننا لا نبالغ اذا قلنا إن ديوان الانشاء المصرى فى عصر المماليك غدا يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع فى مصر .

هذا مع ملاحظة ان ملوك وسط وغرب أفريقيا ظلوا فى نظر سلاطين المماليك فى مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقيا بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبونه فى المكاتبات السلطانية الصادرة فى ديوان الانشاء بلقب الجناب الكريم العالى فى حين ان الفريق الثانى كانوا يخاطبونه بلقب المقام العالى .

وقد حج من سلاطين كانم قبل سقوطها فى أيدى البولالا ، العديد من السلاطين الذين استقروا فترات طويلة بالقاهرة والذين منهم السلطان (اومى جلمى) والذى كان عهده فيما بين اعوام ٤٧٩ -٤٩٠ هـ/١٠٨٥ - ١٠٩٧م) وكان قد قرر اداء فريضة الحج بعد اعتناقه للدين الإسلامى ، وقد توفى فى مصر فى طريقه الى حج بيت الله الحرام ، كذلك من سلاطين كانم الذين أدوا فريضة الحج ابنه السلطان (دونامـا) الذى حكم ٤٩١ - ٥٤٥هـ/ ١٠٩٨ - ١١٥٠م . وقد حج مرتين للاراضى المقدسة فى الحجاز ومر بالقاهرة فى المرة الأولى وكذلك فى المرة الثانية ، لكن فى المرة الثالثة فى طريقه إلىالأراضى الحجازية غرقت السفينة التى كانت تقله فى خليج السويس وهو فى طريقه الى مكة المكرمة ، وكانت مصر فى ذلك الوقت تخضع لحكم الخلافة الفاطمية وكان الخليفة الحاكم للبلاد هو (الخليفة جعفر بأمر الله) .

وقد وثق ذلك السلطان علاقة بلاده بمصر حيث كان يترك كل مرة عددا من حاشيته ورجاله لتعلم نظم الحكم المصرية المعمول بها ، كذلك فإن هناك العديد من سلاطين برنو قاموا بأداء تلك الشعيرة من شعائر الإسلام ، والذين منهم على سبيل المثال لا الحصر السلطان إدريس علاء الدين والسلطان إدريس بن السلطان على غازى ، حيث قام بالحج إلى مكة المكرمة وزار بيت الله الحرام وقبر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وتزود بالتقوى والإيمان على يد الشيخ عمر بن عثمان ، وكانت فترة حجه عام ٩١٠ هـ /١٥٠٩ ، حيث مكث بالقاهرة بعضا من الوقت واتصل بالخليفة والمسئولين ولكن المصادر المصرية لم تشر الى ذلك فى حين ذكر ذلك مؤرخ كانم ـ برنو الشيخ أحمد بن فرطو .

كا قام بالاتصال بمصر سياسيا السلطان إدريس ألوما وظلت صلاته بها فترة طويلة طوال فترة حكمه (٩٧٩ ـ١٠١١هـ ـ ١٥٧٠ ـ ١٦٠٣م) وكان قد قام بأداء فريضة الحج حيث سلك نفس طريق القوافل المؤدية للقاهرة ومكث هناك بعضا من الوقت حيث أحضر معه الاسلحة النارية الحديثة فى مصر ، وكان أول من أدخل السلاح الحديث فى وسط وغرب أفريقيا ، بل انه عمل على أن يصحب معه بعض المصريين والطرابلسيين لكى يدربوا رجاله على استعمال السلاح النارى الحديث وقام بتأمين وفتح الطريق بين بلاده ومصر .

وعلى هذا فإنه بانتهاء سلطنة المماليك فى مصر عام ٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ/ ١٥١٦ ـ ١٥١٧م . واستيلاء العثمانيين على مصر والشام وسائر ممتلكات السلطنة المملوكية فى الربع الاول من القرن السادس عشر الميلادى فإن ذلك الانتصار للعثمانيين على المماليك قد نقل محور ارتكاز الدولة الإسلامية من غرب آسيا وشمال شرق أفريقيا إلى ركن استراتيجى آخر بأقصى الجنوب الشرقى من أوربا ، ثم إن استيلاء العثمانيين على القاهرة وهو موضع الأهمية لم يغير من محور الارتكاز فى الدولة الإسلامية فحسب بل إنه أحدث أثرا عميقا فى الحركة السياسية فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية ، وصارت مصر ولاية تابعة لسلطان بنى عثمان بعد أن كان سلطانها أعظم السلاطين فى سائر الأرض فى حينه لأنه خادم الحرمين الشريفين وحامى ملك مصر المحروسة .

وبالرغم من ذلك فإن مصر تحت الفتح العثمانى ظل لها مركزها المرموق ، وظلت تباشر مسئولياتها فى الدفاع عن الأماكن المقدسة فى الحجاز ، وظلت علاقاتها مستمرة مع سائر الدول ، رغم أن السلطان سليم الأول حاول أن يضعف مركز مصر الفكرى والادبى والقيادى وينقل العلماء والتجار والفنيين والثروة العلمية والفنية الى القسطنطينية ، لكنه رغم كل هذا فقد نهضت مصر بمسئولياتها فى العصر العثمانى ، وظل دورها الممتاز بالنسبة للولايات العثمانية .

وليس أدل على مركز مصر السياسى فى القارة الافريقية وهى بلاد وسط وغرب أفريقيا رغم خضوعها للحكم العثمانى من تلك الرسالة التى ذكرها محمود كعت وذلك بعد سقوط سنغاى تحت ضربات الجيش المراكشى عام ١٥٩١م . يقول كعت : كنت عند شيخنا الفقيه محمد بن المختار الملقب محمد بن كريم فى مدينة تمبكتو واخرج الينا ورقة مطوية فاذا فيها مكتوب كتبه الولى الصالح العارف بالله العالم العلامة السيد الكاشف زين العابدين بن الشريف الحسنى بن الولى الصالح العالم سيدى محمد البكرى أحد كبار رجال الدين المصريين ، كتبه إلى لاسكيا نوح بخط يده الكريمة رضى الله عنه بأحسن التحية والاعزاز وقوله كنا ندعو الله لكم فى كل أوقات الإجابة فى ليل ونهار وفى ظلم الليالى .

وهذه الرسالة إن دلت فإنما تدل على حرص سلاطين سنغاى على دوام الصلة والاتصال بعلماء مصر ورجالها حتى بعد سقوط السلطنة المملوكية ، وذلك دليل قوى على دور مصر السياسى والقيادى وعلى عمق الصلات والروابط بين علماء مصر ورجال السياسة فى سنغاى ، بل ان سلاطين بلاد غرب ووسط أفريقيا لم يكتفوا بالاتصالات الشخصية بعلماء مصر ورجال الدولة والدين بها مشافهة بل دارت بينهم رسائل متبادلة ومكتوبة . ومن ذلك تلك الرسالة التى ارسلها محمد البكرى إلى الاسكيا نوح بالإضافة إلى ان الصلات لم تكن مقصورة على الملوك والسلاطين وحاشيتهم ، بل ان ذلك تعدى الى استمرار زيارة علماء تلك البلاد للأزهر الشريف والقاهرة وهى ترزح تحت الحكم العثمانى . وقد قام اسكيا محمد الحاج بن اسكى داود بن محمد تورى الذى تولى سلطنة سنغاى ١٥٨٢/١٥٨٦م . بأداء فريضة الحج حتى أنه لقب بلقب اسكيا محمد الحاج . وقد ذكر انه قد جرى استقبال رسمى للحاج

محمد الثانى أثناء مروره بالقاهرة وقدمت له الكثير من الهدايا عند مغادرة البلاد ، وقد ودع فى احتفال عظيم .

وقد ألقت رسالة زين العابدين الشريف الحسنى بن محمد البكرى إلى الاسكيا نوح بن داود نوعا من العلاقات السياسية ولكن لم تكن بصورة مباشرة انما تدل الرسالة على وجود مراسلات بين سلاطين سنغاى ورجال العلم فى مصر وهو الخطاب الذى تسلمه الشيخ محمد المختار الملقب محمد بن كريم والذى يدعو فيه لنصرة اسكيا نوح .

ونظرا لقوة العلاقات بين سلطنة المماليك فى مصر وسلطنات وسط وغرب أفريقيا فقد حفظ لنا ديوان الانشاء المصرى (وزارة الخارجية فى العصر الحديث) صيغا ثابتة لمخاطبة ملوك تلك الاقطار وهى التى كانت تصدر بها المكاتبات الرسمية ، وكل هذه المكاتبات والصيغ تدل على دور مصر السياسى ووجود العلاقات المتصلة الثابتة على أسس أخوية إسلامية أفريقية . والنظرة إلى تلك الاقطار والشعوب وامدادها بما تحتاج إليه من عون ، كما أنها تدل على عمق الصلات التاريخية والسياسية بين مصر وتلك البلاد .

تلك العلاقات التى كان يتضح فيها عنصر حيوى هو أن زعامة مصر للعالم الإسلامى السياسية والروحية ضاربة فى أعماق تاريخ الأمة الإسلامية ، إذ أن مصر نالت هذه القيادة عن جدارة واستحقاق بفضل موقعها وما بذله حكامها فى الدفاع عن قضايا الوطن الإسلامى . فضلا عن دور مصر فى المشاركة الفعالة فى حياة الأمة العربية والإسلامية حتى بعد أن أصبحت مصر ولاية عثمانية .

ومن ذلك العرض يتضح أن دور مصر السياسى فى وسط القارة كان دورا أخويا ثابتا قائما على أسس إسلامية أفريقية ، ولم يكن فى أية فترة من فترات التاريخ دورا استعماريا أو سياديا ، بل إن مصر لم تتدخل فى شئون تلك الدولة من قريب أو بعيد ، بل إن واجب وحق الأخوة الأفريقية الإسلامية يحتم عليها أداء دورها الذى ألقت به المقادير عليها . ولكن فى عصر استعمار القارة ظهر دور السيطرة والاستعمار العسكرى والسياسى والثقافى .

إن مصر وهى تؤدى رسالتها فى وسط وغرب القارة فى العصور الوسطى

منذ ان اشرقت انوار الإسلام على ديارها حتى سقوطها تحت السيطرة العثمانية كان دورا أخويا مقدما التكامل الإسلامى الأخوى فوق كل الاعتبارات الأخرى التى سعى الاستعمار لتمزيقها بعد إخضاعه القارة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

الفصل الثانى

« دور مصر الثقافى فى وسط وغرب أفريقيا »

مع بداية القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى ، أصبحت دولة المماليك فى مصر والشام أقوى وأغنى قوة إسلامية على مسرح أحداث العصور الوسطى ، وقد ساعد الدولة المملوكية على تلك المكانة من الازدهار السياسى والثقافى والاقتصادى ما كانت تتمتع به مصر من مركز جغرافى بين الدول الإسلامية وشعوبها فى غرب أفريقيا ووسطها ، علاقات قوية متنوعة ، منها العلاقات والدور الثقافى المصرى فى تلك الأنحاء ، ذلك لأن مصر صارت محل سكن العلماء ومحط رجال فضلاء وذلك بسبب سكن خلفاء بنى العباس بمصر ، وليس هناك بلد إسلامى فيه الدين قائم كقيامه بمصر ولاشعائر الإسلام ظاهرة كظهورها فى مصر ولا نشر للسنة والحديث والعلم كما فى مصر .

كذلك فإن مدينة القاهرة الباهرة هى أكثر عمارة واحتشاما واحتراما لأن بها أجل المدارس وأضخم وأعظم دار لسكن الامراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة وأمورها .

ومن ذلك فإن دور مصر وإسهامها فى ثقافة وحضارة بلاد وسط وغرب أفريقيا فأبعد أن ينكر أو يجحد لأن دور مصر مع تلك الديار دور ثابت ومستمر بل هو أزلى ، وأن الروابط والصلات هى صلات تلقائية بحكم قوانين الحضارة وشرائع التلاقح الحضارية ، بل إنه ليس أدل على دور القاهرة ومكانتها فى تلك البقاع الأفريقية وغيرها من الديار الاما ذكره ابن خلدون

فقال : سألت قاضى القضاة بفاس وكبير العلماء بالمغرب ، أباعبد الله المقرى عند مقدمه من الحج فقلت له : كيف حال القاهرة التى يتحدثون عنها ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام ، فشد الرحال إليها وما أن وصلها حتى قال عنها : رأيت حضرة الدنيا وبستان العلم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والدواوين فى جوه وتزهو الخوانك والمدارس بافصاحته وتضىء البدور والكواكب من علمائه .

وتحدث ابن بطوطة عن : القاهرة فقال عنها هى أم البلاد تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانتها وامكانها ، قهرت قاهرتها الامم وتملكت ملوكها نواحىالعرب والعجم ، وخلال الفترة المملوكية كانت القاهرة قلب الإسلام وكعبة الحضارة الإسلامية،فقد فتحت القاهرة ذراعيها لتستقبل اللاجئين من الامراء العالمين والصالحين وغيرهم ، والدور المصرى فى بلاد غرب ووسط القارة الأفريقية دورله جذور عميقة ، وصلات وثيقة وقديمة بين الطرفين حيث كان الاتصال اتصالا إيجابيا ومثمرا افادت منه تلك الأنحاء من حضارة مصر الإسلامية العريقة ، وذلك لأن لمصردوراً كبيراً فى تطوير تلك البلاد لأنها اعتمدت فى بناء كيانها الثقافى ومقوماتها الحضارية على أسس مستمدة من الثقافة العربية الاسلامية المصرية .

لقد قامت كل السلطنات الإسلامية التى ظهرت فى وسط وغرب القارة الأفريقية فى الحياة الإسلامية من حيث اتصالها بالبيئات الإسلامية المجاورة والدول الإسلامية المعاصرة وفى مقدمتها مصر ، وذلك تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية وحقها فى الاستفادة من الدولة الأم حيث استفادت من الخبرات الثقافية والعلمية التى بلغتها مصر ، ذلك لأن مصر أصبحت محور نشاط علمى كبير فى عصر سلاطين المماليك فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الاقطار واختاروها لإقامتهم ونشاطهم ، ولقد كانت المؤشرات الدينية من أبرز الظواهر الثقافية التى ربطت وسط وغرب القارة بحضارة مصر ، ذلك لأن الدين الإسلامى كان عاملا أساسيا فى التغيرات الثقافية والاجتماعية التى شهدتها وسط وغرب القارة فى العصور الوسطى .

ذلك لأن أعظم دليل على التغيرات الثقافية أن مصر شهدت نشاطا علميا فى العديد من المدارس التى أنشأها السلاطين منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس حتى عصر السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك ، وذلك لأن سلاطين المماليك

أكثروا من بناء المدارس والمساجد والكتاتيب ، وإذ كانت المدارس فى ذلك العصر تمثل المعاهد العليا والجامعات فى عصرنا الحديث فإن الكتاتيب نهضت بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم .

ومن هنا فإن مصر اعدت لتكون مركزا للحركات الإسلامية برمتها ، لذلك كان لزاما عليها أن تقوم بدورها فى بلاد وسط وغرب أفريقيا وفى العالم الإسلامى أجمع ، بل إن وضعها فى تلك الحقبة التاريخية قد جعل لها نصيبا موفورا فى توجيه العالم الإسلامى والسيطرة على جهود المسلمين وآرائهم وتقاصرهم ومصيرهم . ولأن مصر أصبحت زعيمة العالم الإسلامى فقد قامت بواجبها إزاء دول غرب أفريقيا ووسطها . ومن أهم ذلكِ المحافظة على التراث الثقافى الإسلامى وايصاله إلى الشعوب الإسلامية وصيانته من التشتت والضياع ، وقد وفقت مصر فى ذلك توفيقا عظيما . ولقد كانت حركة حماية الأدب العربى والتراث الإسلامى من التلف وهى حركة عظيمة لأنها كانت ترمى إلى احياء حركة العلوم وتنشيطها ، وقد اقترن ذلك بالعصر المملوكى بل أن الدور المصرى قد تطور على مر الأيام واستمر بسير فى طريقه من عصر إلى عصر آخر . وقد احتفظت بطابعها الأخوى بين البلدين ، بل أن الدور المصرى الذى أثر فى تلك الاقطار كان بالغ الأهمية وكانت صلاتها بهذه البلاد تعنى فخرا شخصيا تعتز به هذه الدول فى تاريخها ، لأن الروابط الثقافية التى قامت بها والدور الذى لعبته مصر إنما هو مؤثرات حضارية ثقافية وصلت إلى وسط وغرب أفريقيا من المراكز الثقافية المصرية وغيرها من البلاد الاسلامية الاخرى وذلك لأنه صحب انتشار الإسلام انتشار الثقافة العربية الإسلامية .

وكما كان للحج دوره السياسى الهام فى أداء دور مصر لدورها الثقافى الإسلامى ، ذلك لأن أداء فريضة الحج كان عاملا هاما للربط بين البلدين ووسيلة للتفاهم فقد كان الحاج فى بلاد وسط وغرب أفريقيا يمر بمصر ليتعرف على أهلها ويتفهم تيارات الفكر الدينى وكان ذلك من الاسباب القويه للربط بين الثقافة العربية الإسلامية وتطور الحضارة فى إمارات تلك الأرجاء .

ولقد فضلت شعوب غرب القارة ووسطها استخدام طريق غات الأهرام الذى يمر بمصر كطريق للحج فقد كانت زيارة مصر بالنسبة لكثير منهم

جزءاً اساسيا من تلك الزيارة المقدسة للحج ، ولقد كان اداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة والمرور بالديار المصرية من أقوى الروابط والصلات التى ربطت شعوب غرب القارة بمصر وبقية دول العالم الإسلامى .

فقد انفردت مصر بين الامم الإسلامية بهذا الازدهار العلمى والحضارى ، فلقد بلغت فيها الحركة العلمية الأدبية درجة من التقدم ، ذلك لأن القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، حفل بعدد كبير من الاساتذة البارزين فى مختلف العلوم والفنون ، وساهمت المدارس العلمية المصرية فى إعداد عناصر هذه الحركة وفى تخريج العدد الكثير الجم من ابنائها وربما كانت تلك الفترة فى الواقع عصر الازدهار الذهبى من حيث الإنتاج العلمى الممتاز .

والحق يقال أن مصر أصبحت ميدانا لنشاط علمى واسع ، يدل على ذلك التراث الضخم من الموسوعات الأدبية وكتب التاريخ والمؤلفات العديدة فى العلوم الإسلامية والدينية التى تركها علماء ذلك العصر واستفاد منها طلاب وسط وغرب أفريقيا .

ولقد كان من أثر ذلك الدور المصرى الثقافى أن تأثر كتّاب تلك البلاد بكل الاتجاهات التى ظهرت فى الأدب والثقافة من شعر ونثر ، وكانوا يتتبعون آثار أدباء وعلماء وفقهاء ومفكرى مصر يتناقلون أخبارهم ويحفظون لهم بدرجة تدل على مدى تغلغل الأدب فى نفوسهم .

وقد أدى ذلك إلى نهضة ثقافية إسلامية كبيرة فى بلاد وسط وغرب أفريقيا ، وإلى تطور ثقافى يتمثل فى انتشار الإسلام ، وقد ساعد ذلك على توسيع نطاق العلاقات الخارجية وفتح الآفاق الرحبة أمامها من جميع النواحى الثقافية والفكرية ، وان مجموعة من العلماء والدعاة الذين حملوا مشعل العلم والهداية والعرفان إلى تلك الأنحاء إنما تلقوا تعليمهم فى مدارس مصر الإسلامية ، ولقد عرفت بلاد تلك المناطق كل المعارف الإسلامية التى توصل إليها العالم الإسلامى سواء عن طريق الكتب التى ترد على أسواقها بكميات كبيرة وعن طريق الفقهاء والتجار الذين كانوا يذهبون للتجارة وفى نفس الوقت يدرسون ويتعلمون العلوم الإسلامية ، أو عن طريق طلاب تلك المناطق الذين عرفت عنهم فى ذاك العصر حركة دائبة باتجاه مصر وبلاد المغرب العربى .

ولا يمكن الحديث عن أثر مصر الثقافى والحضارى فى تلك الديار دون الحديث عن دور الأزهر فقد كانت مصر مكانا مقصودا لشتى المسلمين ويؤمها الناس من جميع أنحاء العالم الإسلامى بسبب وجود الأزهر وما كان لمكانة الأزهر فى قلوب المسلمين ، ذلك ما يسترعى الانتباه منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، الزيادة الواضحة فى أعداد وطلاب تلك الدول والذين عرفوا بالتكرور وذلك لتلقى العلم والمعرفة والتفقه فى علوم الدين فى مصر وليشهدوا حلقات الدرس فى الجامع الأزهر الشريف بالقاهرة وليصغوا السمع إلى شيوخه الاجلاء جهابذة العلم والفكر والشريعة والدين من امثال ابن الجوزى ، وابن حيان ، وابن الرفعة وسواهم من العلماء .

جاء هؤلاء الطلاب مع غيرهم من أبناء البلاد الإسلامية للاستفادة والتبرك من أعرق وأقدم جامعات العالم الإسلامى ، وذلك لكون مصر أصبحت مكانا مقصوداً لشتى المسلمين ويؤمها الناس من جميع أنحاء العالم الإسلامى وذلك بسبب وجود الأزهر بها وما كان لمكانة الأزهر فى قلوب المسلمين إذ كان مقصداً لطلاب العلوم العربية والاسلامية لكونه مركزا لتعليم اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية فى شتى أنحاء العالم ، كما كان الأزهر مقصد الدعوة الإسلامية إلى مختلف الشعوب وأن علماءه قد أسهموا فى جميع المعارف والعلوم وذلك بحكم ما حبا به الله مصر من مكانة وثقل ثقافى وأيضا بحكم اهتمام حكام مصر الذين كانوا يرسلون الكتب الإسلامية والدينية وأيضا كانوا يرسلون العلماء إلى تلك الأنحاء .

كما أن العصر المملوكى فى مصر يعتبر من أزهى عصور انتشار الثقافة العربية الإسلامية فى وسط وغرب أفريقية ، كما يمثل الفترة التى بلغ فيها ازدهار التبادل الحضارى بين سكان غرب وسط القارة الأفريقية وبين العالم الخارجى . وفى هذا المضمار فإن وصول رجال الدين والعلماء والمثقفين المصريين إلى تلك الأنحاء قد أدى للمنطقة الممتدة من شرق بحيرة تشاد إلى المحيط الاطلسى فوائد حضارية وثقافية رائعة وبارزة لايمكن انكارها لأن هؤلاء عملوا على تدعيم الصلة بينهم وبين الأزهر الذى كان مصدر الدعوة الإسلامية والهداية والنور إلى مختلف الشعوب الإسلامية بالأضافة إلى أن علماءه قد أسهموا فى جميع المعارف والعلوم ، بالإضافة إلى أن سلاطين البرنو

وكانم والهوسا ومالى وسنغاى قد استقدموا العلماء من القاهرة إلى بلادهم بالاضافة إلى أولئك العلماء الكثيرى العدد الذين وصلوا مع حجاج تلك البلاد حيث مكثوا فى تلك الاقطار يؤدون أقدس واجب وأعظم عمل فى تلك البلاد .

ولقد جاء أبناء تلك الأقاليم والسلطنات الإسلامية إلى مصر لتلقى العلم والمعرفة والتفقه فى مصر ويشهدوا حلقات الدرس فى الجامع الأزهر ، جاء هؤلاء القوم مع غيرهم من أبناء البلاد الإسلامية للاستفادة من ذلك المركز العلمى الإسلامى الوحيد حيث أصبحوا يختصون برواق خاص بهم يقيمون فيه كغيرهم من مسلمى الأجناس والنحل المختلفة التى عرفت لها رواقات ، حيث كان لكل طائفة رواق خاص بهم ينزلون به طلبا للعلم والمعرفة .

طامعين كاسين متفرغين للدرس والتحصيل حيث طاب لهم المقام لكى يتمكنوا من معرفة دينهم جامعين بين علوم العربية وعلوم الدين وكل ما يمت للإسلام بصلة ودراسة عميقة ، وذلك لأنه وجد بالأزهر الشريف فريق من العجم والزيالعة المغاربة والأتراك وأهل ريف مصر كانوا قد اتخذوا الأزهر مسكنا لهم وأقام كل فريق من هؤلاء الطلاب فى مكان خاص به أطلق عليه اسم رواق وأصبح الأزهر منذ ذلك الوقت عامرا بمجالس الوعظ والدرس .

وقد كثرت الأروقة داخل الأزهر الشريف ومنها رواق الاكراد ورواق البغداديين ورواق الهنود ، ورواق الأتراك ،ورواق التكاررة ، ورواق البرنيه (أبناء برنو) ورواق الزيالعة (أبناء زيلع) ورواق الجبرت ، ورواق سنار ، ورواق دارفور وغيرها من الأروقة المختلفة ، وهذا دليل قوى على حسن الاهتمام بهؤلاء الطلاب الذين يدرسون بالجامع الأزهر . والذى لاشك فيه أن طلاباً كثيرين من كانم وبرنو ومالى وسنغاى والهوسا وباجرمى ووادای ، قد كانوا يقيمون فى هذه الأروقة ، وكان طلاب وسط وغرب أفريقيا يقيمون فى رواق التكرور وغيره من الأروقة المخصصة لهم بالإضافة إلى رواق « دارصليح » وهو الذى يضم الكانمين من أبناء تشاد .

وكانت هذه الأروقة عبارة عن نوافذ مشرقة يطل منها الأزهر على أفريقية السوداء وبقية العالم الإسلامى لتنعم وتنهل من العلم الذى كان يؤخذ ويستوعب عن طريق حضور حلقات الدرس على ذلك النظام الذى

كان متبعا وسائدا فى ذلك الحين وذلك سيرا على درب الأزهر العتيق .

ولقد كان الأزهر لهذه الأمم بمثابة جامعة قومية وثقافية مشتركة تعمل على توطيد أمانيهم وآمالهم وتعمل على توحيد جهودهم فى حماية تراثهم الحضارى والفكرى المشترك ، ولقد كان مبعوثو هذه الأمم الأفريقية وطلابها سببا فى توطيد أداء القاهرة لدورها وتحسين صلاتها بشعوب أفريقيا وأصبح موضع الثقة والاعتبار لايطلب أحد فى العالم الإسلامى علوم الإسلام إلا عن طريق الأزهر وهكذا طبقت شهرته الآفاق فى شتى أنحاء العالم الإسلامى .

وكان أبناء الأقطار الخارجية ومنهم أبناء غرب ووسط أفريقيا يأتون إلى الأزهر وهم كبار السن فوق سن العشرين سنة وأكثرهم لايحفظ القرآن الكريم ، وكثير منهم يكون قد طلب العلم فى بلاده قبل قدومه إلى الأزهر الشريف فى مصر .

وكان أبناء تلك الأقطار منذ أن دخلوا فى الإسلام سنيي المذهب حيث غلب عليهم مذهب الإمام مالك يسود مصر والمغرب العربى وبلاد وسط وغرب أفريقيا ، ومن هنا ظلت دراسة المذهب المالكى مزدهرة فى الأزهر إلى جانب دراسة المذاهب الأخرى حيث كان هذا بعدا آخر لكى تمارس مصر وأزهرها الشريف دورها الثقافى والحضارى فى تلك الديار .

ولقد أدت الاحتكاكات الحضارية والاتصالات العلمية والزيارات التى حدثت من هنا وهناك بين المصريين وسكان تلك الأنحاء إلى أنه حدث نوع من التوافق والتزاوج والانصهار بين المصريين النازحين الذين استقروا فى هذه الجهات وأن أصبحت مظاهر الحضارة الإسلامية ظاهرة فى شتى الأنشطة والحياة اليومية ، هذا بالإضافة إلى أن وفود طلاب تلك الديار إلى مصر قد استقرت بجانب طلاب الأزهر على طوائف أخرى من بلاد التكرور فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية الكبرى ليشهدوا حلقات الدرس فى الجامع الأزهر وغيره من مساجد مصر الكبرى ليسمعوا كل العلوم الإسلامية شرحا ودرسا وتفهما من أوسع الأبواب العلمية المتوافرة فى ذلك العقل الفكرى الوحيد الوطيد فى العالم الإسلامى .

كذلك لجأ بعض الوافدين من بلاد وسط وغرب القارة إلى مصر للانقطاع للعبادة والالتحاق بالطرق الصوفية واشتغال البعض الآخر بالتنجيم وضرب

الودع والرمل وقراءة الطالع ، وبات فقراء التكرور موضع العطف والعناية والرعاية من جانب السلاطين .

وأيضا فإن الطلاب الذين تعلموا فى الأزهر الشريف أسهموا بنصيب كبير وموفور عند عودتهم إلى بلادهم فى شتى نواحى الحياة اليومية الفكرية والثقافية والدينية والعلمية والقضائية والسياسية والقومية والاجتماعية ، بل ساهموا بدور فعال فى الحياة الاقتصادية وتنشيط حركة التبادل التجارى بين مصر وتلك الديار . ونستطيع أن نتبين مدى عمق وأثر الثقافة المصرية ودورها المؤثر فى بلاد وسط وغرب القارة من مظاهر شتى ، فمثلا عندما رجع السلطان موسى من الحج إلى مصر اشترى عدة كتب عن فقه المالكية ، وكذلك حذا حذوه السلطان إدريس بن على غازى سلطان برنو ، وكذلك السلطان إدريس ألوما من سلاطين برنو ، وأيضا السلطان محمد بن أبى بكر التورى سلطان سنغاى ، بل إن كل سلاطين وأمراء تلك البلاد كانوا يقومون بشراء الكتب الدينية الإسلامية من مصر عند مرورهم بالقاهرة .

بل أكثر من ذلك فإن المتعلمين يعودون من مصر ليحتلوا مراكز القيادة فى بلادهم ، فكان منهم الأئمة والقضاة والمعلمون فى المدارس والمساجد فى نجيمى ونجازومى ونيامى ومالى وجاو وجنى وتمبكتو وغيرها من المدن والمراكز العلميه الهامة فى تلك الأنحاء .

بل الأكثر من ذلك فإن هؤلاء المتعلمين لم يقصروا نشاطهم على الجوانب المهنية فقط ، بل من خلال نشاطهم المهنى يبعثون روحا إسلامية صميمة تقوم على الفهم الواعى والإدراك الواسع للحياة الإسلامية العربية . ولم تقتصر هذه النهضة التى يعيشها هؤلاء العلماء على الجوانب النظرية بل تعدتها إلى الجوانب العملية وما كان لهذاالتطور أن يحدث لولا أن تلك المنطقة فى القارة الأفريقية قد تهيأت لها فرص الاتصال بمصر فى أزهى وأبهى عصورها الثقافية ، ويبدو أن هؤلاء الطلاب قد استفادوا كثيرا من مزايا الحياة العلمية والتعليمية فى مصر خلال القرن الرابع عشر الميلادى إلى درجة أصبحت فيه بعض المراكز العلمية فى تلك الدول صورة مصغرة فى حياتها العلمية للمجتمع المصرى وتستطيع أن تلمس هذا الأثر فى النظام التعليمى .

ومن ذلك حرص سلاطين تلك البلاد على الاتصال بالعلماء وأخذ

مشورتهم فى كثير من الأمور الهامة بالبلاد (كما فعل السلطان محمد بن أبى بكر التورى سلطان سنغاى يأخذ مشورة الشيخ السيوطى والشيخ المغيلى) وهذا دليل قوى على انتشار الثقافة العربية ، كذلك فإن السلطان التورى حرص كل الحرص على دعوة الشيخ السيوطى لزيارة بلاده والاستفادة به علميا للتدريس فى جامعة سانكرى بتمبكتو والاتصال بالعلماء والسلاطين وقد رحل العالم البارز الشيخ جلال الدين السيوطى إلى بلاد الهوسا وسنغاى واتصل بسلاطينها ، وقد ذكر ذلك السيوطى عن نفسه .

وقد تبع أداء فريضة الحج تعميق الصلات الثقافية وتدعيمها واتساعها ووصولها إلى غايات أوسع وآفاق أرحب إذ كان الحج والمرور بالأراضى المصرية والاستقرار لفترة حتى خروج المحمل ومصاحبة القوافل السودانية للمحمل المصرى من أقوى الروابط بين مصر وشعوب غرب القارة الأفريقية كما ساعدها على أداء دورها .

ولقد تأثر الاسكيا محمد بن أبى بكر التورى سلطان سنغاى (١٤٩٣ - ١٥٢٨ م) بما شاهده من نظم ثقافية فى مصر ومن حضارة إسلامية راقية مزدهرة ، فكان أن عمل على الاتصال بالعديد من علماء مصر ورجال الدين فيها والاطلاع على المقدسات الدينية والعلمية والثقافية ، وعندما عاد إلى بلده عمل على تطبيق كل ما شاهده بمصر وغيرها من الدول العربية فى المشرق ، وعلى هذا فإن الاسكيا محمد لم يدخر وسعا ولا وسيلة إلا اتخذها للاستفادة من التراث الحضارى المصرى وكذلك لرعاية العلماء حيث يكثر قدومهم إلى دياره .

ولقد كان ذلك السلطان من أوائل السلاطين السود فى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى الذى أنشأ علاقات وصلات ثقافية وسياسية مع مصر ، بل إن الاتصال قد استمر بعده حيث قام أبناؤه وأحفاده من بعده بشئون الملك فى تلك البلاد ، وكانوا يشجعون أبناء شعوبهم للوفود إلى الجامع الأزهر لكى ينهلوا من مناهله الصافية . بل إنه كان للسياسة التى انتهجها السلطان محمد الكبير فى تشجيع الثقافة العربية أثرها الكبير فى البلاد وقد ساعد الفقهاء أن أصبحت بلاده تعج بالطلاب والمدارس .

كذلك ليس أدل على دور مصر الثقافى والحضارى فى تلك البلاد من أن الاسكيا محمد الكبير عند خروجه لأداء فريضة الحج فإنه صحب معه فى

موكبه عددا كبيرا من العلماء من بينهم الشيخ محمود كعت صاحب كتاب الفتاش وذلك لكى يلتقوا بعلماء وقضاة مصر ورجال دينها ، وذلك لكى يتعمقوا ويتفهموا أكثر فى علوم الدين الإسلامى ، ولكن يجنوا ثمرة ما وصل إليه العلماء المصريون من فكر إسلامى وثقافى .

وكان من أثر ذلك الدور المصرى الثقافى وتلك الروابط الثقافية ما يقال من أن السلطان محمد بن أبى بكر التورى فعل مافعله غيره من سلاطين بلاد وسط وغرب أفريقيا ، إذ انتهز فرصة وجوده فى مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانبا من الثقافة العربية الإسلامية بالإضافة إلى أن الطلاب الوافدين إلى أروقة الأزهر كانوا يقصدون مصر ليجدوا العلماء المبرزين فى كل علم اسلامى بل ليجدوا الرعاية المالية والصحية والتعليمية والأرزاق مما أوقفه السلاطين . وكان عندما ينتهى هؤلاء الطلاب من دراستهم فإن بعضا منهم يعود إلى وطنه وبعضهم الآخر يفضل البقاء والسكون فى مصر حيث يجد أرزاقا وفيرة ، كذلك كان سلاطين وملوك تلك الديار على اتصال بمختلف العلماء والمفكرين فى العالم الإسلامى حيث كانت مصر فى صدارة هذه الدول .

كما جرى تبادل الرسائل بين كل من الإمام جلال الدين السيوطى وبين الاسكيا محمد سلطان سنغاى والسركناسلطان كانو فى إمارات الهوسا ، كما كانت تلك الدول على اتصال مستمر بمصر عن طريق السفارات الرسمية وتنقلات الحجاج والطلاب .

ولقد تركت تلك العلاقات أثرا ثقافيا رائعا فى غرب أفريقيا وذلك بسبب العلاقات الجدية التى طورها الإسلام بين المصريين والعرب والأفارقة وذلك لأن ابرز مظاهر الحضارة العربية والدين الإسلامى هو الحماس المتزايد للعلم والثقافة ، فقد ترك الإسلام أثره عميقا وساهم فى اثراء الحركة العلمية والثقافية فقد اعترف الأفريقيون للعرب والمصريين بالتفوق الثقافى .

وكان تأثير مصر واضحا فى مضمار الرقى الحضارى والثقافى لسنغاى ، إذ أنه بذلك الأثر توطدت العلاقة بين الأزهر الشريف ومدارس القاهرة وبين المراكز الثقافية الاسلامية فى تلك الأقطار الأفريقية ، ذلك لأن الوافدين من تلك البلاد إلى الجامع الأزهر كانوا يتفقهون فى فقه المذهب المالكى .

وقد أنشأ بعض أهالى غرب أفريقيا بالقاهرة مدرسة لتعليم مذهب الإمام

مالك بالفسطاط اسمها مدرسة ابن رشيق ، وكان تمويلها يتم عن طريق أهالى هذه البلاد . وقد أشار Palmer فى الوثائق المحلية التى نشرها عن رحيل بعض علماء برنو وكانم ومالى وسنغاى والهوسا إلى الجامع الأزهر ، ونزودهم بالعلوم الإسلامية والثقافية العربية ثم عودتهم إلى بلادهم واشتغالهم بتدريس القرآن الكريم وتعليم الحديث وشرح تفاسيره ، وكان من أثر الدور المصرى والاتصال الحضارى أن تمكن المصريون والعرب من حمل هذه الشعوب على اتخاذ اللغة العربية واللسان العربى لغة لهم وانتحالها أسلوباً لحضارتهم ، بل لقد تأثرت الشعوب بالأسلوب والسلوك الحضارى المصرى ، فقد اعتنق الشعب الافريقى معتقدات المصريين والعرب وعاداتهم وطباعهم وتقليده لملبسهم وشرابهم وطعامهم ، بل اتخذ من خلق الإسلام والقرآن نموذجا لطباعهم كما تأثروا بفن العمارة المصرى العربى . وقد ظل النفوذ المصرى والعربى الحضارى والثقافى مسيطرا على البلاد التى تسرب إليها ، وكان هذا التأثير قويا وواضحا .

وقد عرفت فى مصر واشتهرت مدرسة ابن رشيق وهى ضمن مدارس القاهرة وهى مدرسة للمذهب المالكى ودراسة المالكية ، ولها فى بلاد الكترور سمعة عظيمة وواسعة وقد بناها ابن رشيق وهو القاضى علم الدين بن رشيق الذى عهد إليه ببناء المدرسة والتدريس بها . وكانت تصلها الاعانات من سلاطين وأغنياء والمتبرعين الخيرين لتلك البلاد بطريقة منظمة ومستمرة حيث تعتمد على هذه المعونة وما إليها كل سنة وأوقافها معروفة وثابتة .

وكان أهل برنو وغيرهم من تكاررة وسط وغرب أفريقيا فى طريقهم إلى الحج مرورا بالقاهرة قاصدين الحجاز ، ينزلون قبل نهايتها عند القاضى علم الدين بن رشيق فى داره ولكن سرعان ما تطورت الفكرة عندما قدموا إليه مالاً يبنى به تلك المدرسة فشرع فى بنائها والتدريس بها بنفسه ثم استقر فيها فيما بعد ابنه زين العابدين وكان ذلك فى عام ٦٦٢هـ / ١٢٤٢ م . وقد عاد تلاميذ هذه المدرسة من التكارزة الذين تعلموا المذهب المالكى إلى بلادهم يتابعون نشاطهم الثقافى فى تلك البلاد .

كذلك إذ كانت طوائف الكانم هى التى أسست هذه المدرسة فليس من المستبعد أن ينزل بها الحجاج التكرور من سكان وسط وغرب أفريقيا بصفة عامة ، وهو ما يتضح فى استخدام ابن دقماق والمقريزى للفظ التكرور دون

الكانم فى حديثها عن مدرسة ابن رشيق.ولقد كان اعجاب التكرور بالثقافة العربية الاسلامية المصرية وتأثرهم بها قد دفعهم لكى يساهموا فى بناء تلك المدرسة التى أصبحت من المدارس المصرية المشهورة فى العصور الوسطى ، حيث إننا نجد المقريزى يشير إليها بصدد حديثه عن المدارس فى مصر إذ يقول هذه المدرسة للمالكية وهى بخط حمام الريس فى مدينة مصر .

وكان المغتربون من أجل العلم من أبناء غرب أفريقيا يجدون وسائل الراحة والاقامة فى القاهرة التى زخرت بالفنادق والوكالات والخانات ، هذا فضلا عن مناهل العلم التى كان يقصدها هؤلاء الطلاب ، فكان الأزهر كعبة القاصدين ومنهلا عذبا للواردين .

وبهذا نرى أن طلاب غرب أفريقيا كانوا يجدون وسائل سبل الاقامة ميسرة ، الأمر الذى جعل مدارس القاهرة والأزهر الشريف يضم بين جوانبه من الطلاب دائما العدد المعقول الحجم ، وفوق هذه الميزة فقد كان مجال الدراسة فى الأزهر متسعا ومتنوعا إذ كان مفتوحا للطلاب من كل مذهب وتدرس به سائر العلوم الدينية واللغوية وهو مالم يكن ميسورا فى مدارس أنشئت على قاعدة التخصص .

وقد غدا الأزهر الشريف منذ أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أى منذ أن اضمحلت معاهد بغداد وقرطبة كعبة العلم والعلماء ، فقصده المشايخ الأجلاء والطلاب النجباء من سائر العالم الإسلامى ، وغدا أعظم مركز للدراسات الإسلامية ، ومنذ القرن الثامن الهجرى تقلد الأزهر فى مصر وفى العالم الإسلامى الزعامة الفكرية والثقافية . وفى هذه الحقبة ظهر بمصر مجموعة من العلماء الأفذاذ الذين قادوا الفكر فى مختلف فروع الإنسانية الإسلامية ومن هؤلاء ابن خلدون ، وشمس الدين الاصفهانى ، وابن رقيق العيد ، النويرى ، ابن عقيل النحوى ، وغيرهم الكثيرين من العلماء فى مصر بل إن ابن خلدون يخبرنا بنفسه أنه قام بالتدريس فى بعض مدارس القاهرة التى كانت منتشرة بكثرة فى ذلك الوقت وكانت تؤدى خدمتها لأبناء مصر والعالم الإسلامى ومن بينهم طلاب وسط وغرب أفريقيا .

وعن دور مصر الثقافى والحضارى فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية تأثر سلاطين تلك البلاد بسلاطين مصر من المماليك فى تشجيع الحركة

العلمية والعلماء ، إذ المعروف أن الكثير من سلاطين المماليك قد حرص على الاهتمام بأمر العلم والعلماء ، بل حرص معظمهم على حضور المجالس العلمية والدينية فى غرب أفريقيا ، فنجد بعض هؤلاء السلاطين (إدريس ألوما ، موسى ، محمد بن أبى بكر التورى وغيرهم الكثيرين) يشجعون العلماء ويجزلون لهم العطاء ، الامر الذى شجع بعض العلماء فى بلاد كثيرة ليقصدوهم ، بل أن بعض هؤلاء العلماء أقام اقامة دائمة ببعض سلطنات تلك الدول حتى لقى ربه ، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر الشيخ ابراهيم بن محمد الطوبجنى والذى نشأ وتعلم واستقر فترة طويلة فى مصر وأخيرا طاب له المقام فى بلاد مالى واتصل بسلاطينها ولقى منهم تشجيعا فأقام هناك حتى مات عام ٧٢٩ هـ / فى دولة مالى ، وكان بارعا فى عدة فنون وعلوم وهو الذى وصفه ابن خلدون بأنه فارس الادباء وهكذا أدى علماء مصر دورهم الثقافى والدينى والتعليمى فى تلك الأنحاء من القارة الافريقية .

وكان لهؤلاء العلماء المصريين وغيرهم فى البلاد الإسلامية أثر كبير فى الحياة العلمية والاجتماعية ببلاد السودان الغربى والأوسط ، فكانوا يقومون بالتدريس وعليهم واجب التوجيه الدينى فى المجتمعات الإسلامية التى قامت هناك وبالفعل فقد قام بعضهم بتسجيل التراث الأدبى والفكرى لتلك البلاد بالاضافة إلى مساهمة هؤلاء العلماء فى تطوير الحياة الاجتماعية فكانوا يقومون بدور الوسطاء فى حل المشاكل الاجتماعية والسياسية أحيانا . وقد ألقيت على كواهلهم كل هذه الأعباء لما لهم من خبرة عظيمة ولما لهم من احترام وإجلال عند العامة والخاصة .

كما كان لمصر دور وأثر كبير فى النهضة الدينية والعلمية التى انطلقت من عقالها فى بلاد غرب القاره أثر الزيارة التى قام بها السلطان منسا موسى للقاهرة حيث إن تلك النهضة لم تخمد بوفاته عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م بل استمرت متصلة صاعدة ولعل من أسباب ذلك أن فترة حكمه اتصلت خمسة وعشرين عاما عمل منها على توطيد دعائم النهضة العلمية الإسلامية ووضع لها أساسا متينا ووثق صلتها بالينابيع التى تغذيها سواء فى مصر أو غيرها من بلاد العالم الإسلامى لذا فإنه تلك النهضة استمرت قوية من بعده .

وقد أمدنا ابن بطوطة بصورة واضحة لهذه النهضة الثقافية والعلمية بعد وفاة السلطان موسى والذى كان قد زار بلاد غرب أفريقيا عام ٧٥٣ هـ /

١٣٥٢ م حيث أشار إلى أمثلة حية فى تطور الحياة العربية الاسلامية فى تلك البلاد سواء على مستوى الرعية والحكام ، فقد ذكر أن ما استحسنته من أفعال أهل تلك الديار مواظبتهم على الصلاة وأدائهم لها فى جماعات وكذلك حرصهم على تنشئة أبنائهم تنشئة دينية صحيحة تقوم على أداء الصلاة وحفظ القرآن الكريم وأداء الصلوات الخمس فى مواعيدها والتزامهم لها وضربهم أولادهم عليها بل أنهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه فيقيدوهم حتى يحفظوه .

وقد أشار ابن بطوطة إلى ظاهرة واضحة فى الحياة الدينية لأهل السودان غرب وسط أفريقيا ، وذلك قوله : وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد مكانا ليصلى فيه لكثرة الزحام بالمسجد ، ثم عقد ابن بطوطة مقارنة بين ملوك السودان من الذين تهيأت لهم فرصة الاتصال بالعالم الإسلامى الخارجى وأولئك الذين ظلوا منعزلين عنها لسبب من الأسباب فأعجب بأهل (زاغة) وذكر أنهم قدماء فى الإسلام متمسكون بأهداب الدين ويقبلون على طلب العلم ، كذلك فإنه عندما أخذ يتجول شرقا فى أقاليم وسط وغرب أفريقيا لاحظ تمسك أهل تلك الديار بروح الإسلام وتعاليمه ، ولعل السبب فى ذلك كثرة العلماء والمعلمين بها ، هذا فضلا عن شدة اتصالهم بالديار المصرية تلك الديار التى هى المركز العلمى الوحيد والفريد فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت .

كذلك لمس ابن بطوطة الاهتمام بالثقافة العربية الإسلامية واضحا فى المناطق الشرقية فيكمل أنه وجد أحد الأمراء فى تلك الأنحاء (إمارات الهوسا) يحتفظ بمجموعة من الكتب العربية منها كتاب المدهش لابن الجوزى ،كما تستطيع أن تلمس أثر الدور المصرى من الصورة التى أبرزها ابن بطوطة عن تلك البلاد فى القرن الرابع عشر الميلادى أى بعد توسع نطاق العلاقات مع مصر وانفتاح المجال أمام الدور المصرى وأثر العنصر البشرى فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ذلك لأن ابن بطوطة أشار إلى وجود جاليات مصرية فى بعض المدن الهامة مثل مالى وتمبكتو وتوات وغيرها من المدن ، ويبدو أن هذه الجاليات قد اتخذت لنفسها أحياء خاصة فى تلك المدن فقد نزل ابن بطوطة ضيفا على شمس الدين ابن النقويشى المصرى الذى أفرد له داراً لينزل بها وكان ابن بطوطة قد كتب له قبل وصوله إلى مالى .

وقد أصيب ابن بطوطة بمرض لتناوله وجبة طعام فى مدينة مالى ، فتولى أحد أفراد الجالية المصرية علاجه وتمريضه حتى عوفى،إذ يقول ذهبت لصلاة الصبح فغشى علىّ فيها وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فأتى بشىء يسمى بيدر فشربته وعافانى الله من الهلاك .

وهذا دليل قوى وثابت عن عمق صلة مصر بمالى حيث إن تلك الدولة لم تخل من المصريين العاملين فى مجال العلم والفكر والمعرفة والطب والعلاج وميادين العلم المختلفة وكذلك فى مجال المال والتجارة ، كما أنه يجب أن يكون واضحا أن هذه الجاليات العربية لم تعش هناك فى شبه عزلة عن الحياة اليومية المحلية بل الثابت أن تلك الجاليات المصرية كانت مترابطة متلاحمة مع أهالى البلاد وهو ترابط حققته القيم والأهداف الدينية فى ظل الإسلام وحق الاخوة الإسلامية وليس هناك أدنى شك فى أن هذه المشاركة النفسية والفكرية والوجدانية لمن أهم مقومات العلاقات الإنسانية وذلك تطلبا للدور الهام الذى كان يقع العبء الأكبر على مصر باعتبارها صاحبة الحضارة الإسلامية فى أفريقيا وحامية الإسلام ودرع الفكر وحصن العلم والدين ، ولعل أبرز الدلائل الحية الباقية إلى اليوم تلك المعالم التى مازالت بالقاهرة تنبىء عن وجود الصلات القوية المستمرة عبر العصور بين مصر وبلاد السودان الأوسط والغربى ، ذلك الحى الذى يقع بمدينة الجيزة ويسمى حى (بولاق الدكرور) المحرف عن التكرور ونسبته إلى أحد علماء التكرور الذين دفنوا فى مصر وهو الشيخ (أبو محمد يوسف التكرورى) وقد استفاد أهالى تلك البلاد من تفاعل الحضارة المصرية الإسلامية بالحضارات الأخرى ، ذلك لأن مصر تعهدت بلاد السودان الغربى والأوسط بالرعاية الثقافية والفكرية ، وقد أدى الاحتكاك الحضارى والثقافى بين مصر وتلك البلاد إلى اقتباس سلاطين تلك البلاد لبعض نظم الحكم المعمول بها فى مصر واتخاذ اللغة العربية أداة فى كل الأمور الحكومية وتشجيع الحركة العلمية وتقريب العلماء والفقهاء وبناء المساجد والمدارس والترحيب بالعلماء من العالم الإسلامى . وقد أدى ذلك إلى ازدهار الدراسات الإسلامية والعربية فى المراكز الإسلامية الثقافية والتى قامت فى كانم وبرنو وإمارات الهوسا . وفى غانا ومالى وسنغاى والتكرور ، وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة الدين والدواوين وامتد أثرها وفعلها ومنفعتها إلى مجالات أخرى فى السياسة والتجارة .

كذلك من أعظم المؤشرات على امتزاج الثقافة وتعمق الدين فى نفوسهم إلى درجة بلغت أن تنصلوا من أسمائهم الوثنية الأفريقية القديمة واستبدلوها بأسماء عربية إسلامية .

ومع ذلك فإنه يمكن القول أن مصر لم تكن بمعزل عن القارة الأفريقية وما يجرى فيها من أحداث إنما كانت تؤثر فى البلاد الأفريقية وتتأثر بها وخاصة تلك البلاد التى كانت تجاورها جغرافيا وظهر ذلك واضحا فى كانم وبرنو فقد كانت أقرب السلطنات إلى واحات مصر ، كذلك كان من أثر ذلك الدور المصرى أن انتشر الإسلام على نطاق واسع وتأثرت الحركة الإسلامية فى جنوب البلاد واندفعت القبائل الوثنية إلى اعتناق الدين الإسلامى بدافع من مجاورتها لأهل برنو ويسبب تمسك أهل هذه البلاد بدينهم الإسلامى تمسكا شديدا وتأثرهم بالثقافة الإسلامية المتجددة القادمة مع الحجاج والعلماء والتجار من مصر .

ولقد كان من أثر ذلك الدور الثقافى والحضارى أن قامت فى برنو وكانم وسنغاى ومالى الكثير من المراكز العلمية (جامعة سانكرى بتمبكتو) لكى تمارس دورها الهام فى الحياة الثقافية العربية فى البلاد ، ومن بين تلك المراكز التى تأثرت بما جاء من الشرق الإسلامى وقامت بدور هام فى نشر العلوم الإسلامية فى شرق برنو مركز دوميالوا Dumbulwa . وكان هذا المركز محط أنظار القادمين من غرب أفريقيا لتأدية فريضة الحج حيث يتزودون بالتعاليم الإسلامية التى كان يقوم بشرحها لهم عدد من الائمة والمشايخ ، وذلك لمحاولة خلق روح إسلامية قوية بين شعوب السودان الأوسط ولقد ترك هؤلاء العلماء الذين تعلموا فى مصر أثرا كبيرا فى الحياة العلمية والاجتماعية فى البلاد .

وكما ظهرت فى برنو بعض المراكز الإسلامية من أثر الدور المصرى ، كذلك ظهر فى سنغاى العديد من المراكز الإسلامية من أثر الارتباط الثقافى والحضارى والعلمى والتى منها تمبكتو وجنى وجاو ، توات ، مالى ، وهكذا ظهرت مدينة تمبكتو بفضل العلاقات الثقافية بين مصر وسنغاى بمظهر إسلامى رائع حتى أنها كانت منارة العلم وكعبة العلماء ومقصد الزهاد وسكن العلماء ودار القضاة وملتقى الفقهاء ومنتجع الدين ، كذلك فإنه إلى جانب تمبكتو فإنه ظهرت مراكز إسلامية أخرى كان لها دور هام فى تعميق المفاهيم

الإسلامية ونشر الثقافة العربية الإسلامية على نطاق واسع فى جميع أنحاء بلاد السودان الغربى ، ومنها مدينة جنى التى شهدت نهضة علمية واسعة أثر مجيء العلماء من مصر والمغرب وغيرهما من البلاد الإسلامية ليقوموا بتدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، بل أن بعض هؤلاء العلماء كان يأتى إلى مدينة جنى بصفة شخصية من القاهرة وذلك بصحبة قوافل الحجاج العائدة من مصر .

ولقد كان من أثر الصلات والدور المصرى الثقافى سواء عن أثر الأزهر أو غيره من المدارس الإسلامية المصرية أن ظهرت فى جنى مدارس عربية ساعدت تلك المدارس على تبادل الأفكار والثقافات العربية ، كما أن انتشار الثقافة العربية وشمولها لجميع سكان المنطقة هو أولا بسبب ذيوع اللغة العربية بين الناس ثم انتشار العقيدة الإسلامية مما خلق هذه النهضة العلمية الثقافية وأسهم فى تدعيمها وانمائها وازدهارها . ومن هنا فقد اشتركت الشعوب السوداء مع الشعوب العربية الإسلامية فى جميع مقومات الثقافة العربية .

ومن هنا صارت جنى مركز علم بارزا وازداد عدد سكانها المسلمين الذين استقروا بها فى ظروف الأمن والأمان ، وأصبحت مدينة عظيمة لها شهرة فى العالم الإسلامى ، ومع كل هذا التقدم الثقافى الذى فرضه الدور المصرى مع بقية بلاد المغرب العربى والعالم الإسلامى فإن مدينة جنى كانت من المدن الهامة والكبرى التى ترك الإسلام فيها بصماته القومية والواضحة ، ذلك لأن الإسلام من خلال تأثيره فى تلك المدينة استطاع أن يكسب أرضا واسعة حولها بحيث أصبح قوة للحياة ومن دعائم الحكم الإسلامى والثقافة الإسلامية العربية .

بل أن مدينة جنى أصبحت تنافس مدينة تمبكتو فى مجال العلوم الإسلامية والثقافة العربية وازدهرت فيها الدراسات المتعددة وظهر بها العديد من العلماء ، وهكذا شاركت مدينة جنى بفضل الدور المصرى الإسلامى جارتها الكبرى مدينة تمبكتو فى نشر الثقافة العربية الإسلامية وفى إيجاد قاعدة إسلامية صلبة فى أرض سنغاى حيث استطاعت من خلالها أن تظهر تلك البلاد بمظهر إسلامى رائع من خلال اتصالها بمصر وغيرها من البلاد الإسلامية الأخرى .

إلا أن دور مصر الحضارى والثقافى كان هو الأساس الأول فى تدعيم تلك الحركة الثقافية وفى إثرائها إذ أنه كما سبق أن ذكرنا لم يكن فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى من منارة علمية على مستوى العالم الإسلامى أجمع غير منارة الأزهر ومدارس مصر الإسلامية التى جذبت طلاب جنى وتمبكتو وجاو وغيرها من المراكز الإسلامية فى بلاد غرب ووسط القارة .

وكما تركت الثقافة العربية الإسلامية المصرية دورها فى تلك المدن فإنها تركت أيضا بصماتها قوية فى جاو حيث كانت تلك المدينة تحتل فى السودان الغربى (غرب أفريقيا) نفس المكان الذى احتلته تمبكتو وجنى فى عالم الثقافة والفكر والعلم والمال . وقد عرفت تلك المدينة (جاو) وباقى المدن الأخرى فى غرب أفريقيا كل المعارف الإسلامية التى توصل اليها العالم الإسلامى سواء عن طريق الكتب التى كانت ترد على أسواقها بكميات كبيرة أو عن طريق الفقهاء والتجار الذين كانوا يذهبون بالتجارة وفى نفس الوقت يدرسون ويعملون على دعوتهم فى مناطق العالم الإسلامى المختلفة وخاصة من مصر للتدريس ، حيث إن هؤلاء العلماء قد ألقوا دروسهم وعلومهم الإسلامية فى مساجد العاصمة جاو لأنها كانت أول المدن التى تستقبل العلماء قبل رحيلهم إلى تمبكتو وجنى وغيرهما من المدن المختلفة .

بالإضافة إلى أن ظهرت مراكز حضارية إسلامية أخرى فى وسط وغرب أفريقيا مثل كانو وكاتسينا ونجيمى ومالى وولاته وتوات، بالإضافة إلى العديد من المراكز الإسلامية والحضارية التى ظهرت فى سنغاى ، فإن تمبكتو وجنى وجاو وصلت إلى مكانة ثقافية عالية لاتقل عن القاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وغرناطة وغيرها من المراكز الإسلامية الأخرى فى شتى أنحاء العالم الإسلامى ، ولقد أعطت مصر كل خبرتها الثقافية والعلمية الإسلامية لبلاد السودان الغربى والأوسط حتى بعد سقوطها تحت الاحتلال التركى عام ١٥١٧ م وذلك لأنه من المعروف أن العصر التركى من أكثر العصور فى تاريخ مصر الإسلامية غموضا واضطرابا ذلك لأن الغزاة الأتراك قد عملوا على تقويض صرح المدينة فى مصر عقب الفتح مباشرة .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر عقب الفتح التركى ، كما انهارت عناصر القوة والحياة فى المجتمع المصرى وتضاءل انتشار العلوم والآداب

وانحط معيار الثقافة . على أن الأزهر الشريف تحت ضربات ، الاحتلال التركى ظل يقوم بدوره فى ظل العسف التركى المطبق الذى بسط ظله على مصر كلها بأعظم وأسمى مهمة أتيح له أن يقوم بها فقد استطاع خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئا من مكانته ، وأن يؤثر بماضيه التليد وهيبته ، لكن الاحتلال أحدث أثرا عميقا فى الحركة العلمية فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، ذلك لأن السلطان سليم الأول حاول أن يضعف مركز مصر الفكرى والثقافى والمادى والقيادى والعلمى .

ولكنه رغم كل هذا نهضت مصر بمسئولياتها فى العصر العثمانى ، بل أن هناك بعض المصادر تشير إلى استمرار زيارة علماء بلاد غرب ووسط أفريقيا للقاهرة بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين وذهابهم للحج عن طريقها واتصالهم بعلماء مصر ، بل أن بعضهم كان يقيم بعض الوقت فى القاهرة حتى ينهل ويعب من علومها وآدابها فكانوا بذلك يتزودون بكل جديد من المعرفة على يد كبار علماء مصر وغيرهم وعند رجوعهم إلى تمبكتو يعكفون على كتابة مؤلفات من دراساتهم الجديدة وظهر هذا الاتصال الروحى على أشده فى القرن السادس عشر الميلادى .

ولكن فى بعض فترات الحكم التركى فقد غدا الأزهر من القلة بحيثَ لم يعد عددهم يزيد على الألف طالب فى حين كان عددهم فى العصر المملوكى يقدر بالآلاف الكثيرة ولكن رغم كل هذا فقد بقى الأزهر محتفظا بزعامته العلمية والفكرية ونفوذه الروحى القديم .

والحقيقة أن الاتراك العثمانيين أهملوا العناية بالتعليم فى كل البلاد التى صارت تحت سلطانهم بل وتخربت فى عهدهم المدارس والكتاتيب التى شيدت من قبل وحُبست عليها الاوقاف ، والذى لاشك فيه أن سقوط مصر تحت الاحتلال العثمانى قد أثر تأثيرا بالغا على دور القاهرة فى بلاد وسط وغرب أفريقيا .

ومن هنا بات واضحا أن العلاقات الثقافية قد تأثرت إلى حد بعيد ، وأن الدور المصرى فى العصر التركى لم يكن فعالا وحيويا كما كان فى العصر السابق وخاصة فى العصر المملوكى .

وهكذا استطاعت مصر أن تؤدى دورها الثقافى والحضارى والتعليمى فى

تلك البلاد انطلاقا من الدور الذى قدره الله عليها أن تؤديه للعالم الإسلامى وليس للقارة الأفريقية التى نبحث هنا فى تلك الدراسة عن دور مصر القيادى والحضارى والثقافى والرائد فى تلك القارة التى أعطتها مصر كل ما استطاعت أن تبرزه من تفوق ثقافى وحضارى إسلامى فى وقت كانت هى صرة العالم الإسلامى ، وبؤرة ذلك الاشعاع العلمى والثقافى والحضارى .

ومن هنا كان عليها أن تقوم بقدرها الذى سخره الله لها للقيام به فى كل العصور والدهور مهما كانت المحن وعظمت الشدائد ووقفت العقبات فى طريق ذلك الانطلاق المصرى الذى تساهم به مصر من رقى وتقدم وتطور .

إن تلك المناطق من القارة لولا الدور المصرى لما استطاعت أن تنتقل تلك النقلة وتتدرج فى مدارج الرقى الحضارى الذى كان دور الأزهر وطريق الحج والمدارس المصرية له العلامات المميزة والبارزة فى ذلك المجال الأفريقى .

الفصل الثالث

« دور مصر الاقتصادى فى وسط وغرب القارة »

قبل الخوض فى تفاصيل ذلك الفصل عن دور مصر الاقتصادى فى وسط وغرب أفريقيا يجب أن نؤكد حقيقة علمية وتاريخية ثابتة بأن ذلك الدور المصرى كان من منطلق مبدأ التكامل الاقتصادى والتعاون التجارى والأخذ والعطاء فى سبيل رخاء واستقرار الأمة الإسلامية ، وأن منطلق الدور الاقتصادى المصرى كان من باب الحرص على أداء رسالة إنسانية أخوية نحو أشقائها فى الإسلام فى تلك المناطق ، بحيث يمكن أن نطلق على ذلك الدور أنه تكامل اقتصادى أو سوق إسلامية أفريقية تعطى فيه مصر وتتبادل مالاتحتاج إليه من فائض إنتاجها وتأخذ من تلك الدول ماهى فى أمس الحاجه إليه دون استغلال أو فرض نفوذ أو احتكار التجارة فى تلك البلاد . إنما ما كان يقوم به التجار المصريون ورجال الاقتصاد المصرى فى ذلك الوقت يشكل حلقة فى سلسلة حلقات التكامل والوحدة الاقتصادية الإسلامية .

وكان لهذا الدور وما يحتمه الموقع الجغرافى الذى جعلها مركزا للتجارة العالمية منذ القدم حيث كانت التجارة العالمية فى العصر المملوكى متمركزة وقتئذ فى مصر ، ولقد حرص سلاطين المماليك على إغراء التجار من مختلف البلاد إلى المجىء إلى مصر للتجارة ، لهذا فقد ازدهرت الأسواق المصرية وكثر رخاؤها ووصلتها البضائع والسلع من الشرق والغرب ومن كل أنحاء الأرض

المعمورة فى ذلك الوقت من أقصى الصين شرقا إلى بلاد أوروبا شمالا ، وفى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية جنوبا .

ولما كانت مصر لم تزل تدرك الدور الحقيقى الذى تلعبه فى التجارة العالمية فقد فتحت أبوابها للتجارة الخارجية والعلاقات الاقتصادية . ومن تلك العلاقات مارست مصر دوراً هاما فى الاقتصاد العالمى فى العصر المملوكى حيث كانت التجارة دعامة قوية من الدعامات الكبرى فى بنائها الاقتصادى وتأكيدا لزعامتها فى الشرق والغرب فازدهرت فيها التجارة وأقبل عليها التجار من حدب وصوب لاسيما التجار الكارميه الذين اصبحوا أعظم طبقة تتحكم فى أهم تجارة عالمية فى ذلك الوقت .

وقد استفادت مصر كثيرا من الثراء الذى جنته نتيجة مرور تجارة الشرق والغرب عبر أراضيها ، ذلك لأنه قبل أن ينتهى القرن الرابع عشر الميلادى فقد ظهرت فى جنوب الصحراء الكبرى مدن تجارية انصرف أهلها إلى التجارة وسط القارة الأفريقية وغربها وشرقها وجنوبها . وكانت هذه التجارة عندما تصل إلى القاهرة والاسكندرية تجد التجار الأجانب فى انتظارها .

ولقد ساعدت طرق القوافل الممتدة من مصر عبر الدروب والمسارب الصحراوية فى الصحراء الكبرى إلى بلاد وسط وغرب القارة إلى قيام روابط اقتصادية قوية وإلى تبادل السلع المختلفة ، وإلى قيام حركة تجارية نشيطة بين مصر وتلك البلاد . ونشط تردد التجار المصريين وازداد قدومهم إلى بلاد وسط وغرب القارة بعد رحلة حج السلطان موسى وحج الاسكيا محمد التورى سلطان سنغاى ، فقد فتحت تلك البلاد أبوابها على مصراعيها لكى يؤدى رجال الاقتصاد والتجارة المصريين دورهم فى تلك الأنحاء حيث أصبح كبار التجار المصريون يبعثون بعملائهم ووكلائهم إلى هذه الأقطار الواسعة ، وكانت مصر وتلك الاقطار تتبادل السلع والتجارة فى مختلف الأصناف التجارية ، بالإضافة إلى أن العلاقات التجارية بين البلدين كان يغلب عليها طابع الجهود الفردى سواء فى مجال التجارة أو التنقل حيث كان التجار يقومون بتجارتهم دون توجيه أو تدخل من الحكومة فى بداية العصر المملوكى ، إنما كان الواجب الإسلامى بحكم التعاون الاقتصادى ، وقبل قيام دولة الأساكى فى سنغاى مما زاد من أهمية الحركة التجارية ونشاطها .

ولقد كان من نتائج هذه التجارة قيام وتوسع بعض المراكز التجارية عند التقاء والسفانا بالصحراء الكبرى مثل تمبكتو وجنى وجاو ومالى وكانوا وغيرها من المراكز المختلفة مما ترتب على هذه التجارة بين مصر وتلك الأقطار قيام سكان الإقليم الأوسط والغربى فى أفريقيا بدور هام فى تبادل السلع والحصول على ما يحتاجونه من أسواق مصر وبلاد المغرب العربى ، ولقد أضحت مصر الوسيط الأوحد فى استيراد سلع الشرق والغرب مما أوجد عدداً كبيرا من الجاليات الأجنبية ، ولقد أدى ذلك إلى قيام العديد من الفنادق الكبرى والوكالات التجارية الخاصة بهم وكانت هذه الفنادق عبارة عن وكالات فخمة ضخمة مريحة ومسورة على شكل الحصون تضم مساكنهم وتجارتهم ، وكانت أهم المبادلات والمعاملات التجارية تتم فى هذه الوكالات التى كانت عبارة عن رقعة واسعة تتسع للعديد من السلع المختنفة التى يأتى بها التجار من مختلف الأقطار ، ولقد كان تجار مصر يرسلون بتجارتهم نحو الجنوب عبر الصحراء الكبرى إلى زنوج غرب أفريقيا ، وكان يتم نقل هذه التجارة عن طريق قوافل الجمال التى تسلك الطرق التجارية المعروفة والتى تمر من مصر ومدنها عبر الواحات إلى المدن الموجودة على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ، وكان لهذه الطرق دور فى الوصول إلى موانىء الصحراء الجنوبية مثل تمبكتو وجنى وجاو وكانوا وكاتسيا وزاريا وغيرها من المدن الكبرى .

وعلى الجانب الآخر فإن الفترة الأخيرة من العصور الوسطى تعتبر من أنجح فترات الازدهار التجارى ، فقد عمل المماليك فى مصر وسطاء فى تجارة التوابل والعقاقير الطبية والمنسوجات والصينى والأحجار الكريمة والأخشاب وكافة السلع التى يكثر طلبها ولعبت الطرق البرية دورا هاما فى هذا المجال كما ارتبطت ثورة البلاد وقوتها العسكرية فى العالم بتجارتها .

ولقد كانت الطرق فى القارة الأفريقية والتى يستخدمها التجار والتى تتجه من مصر إلى بلاد سنغاى وبالعكس هى همزة الوصل أو بالأحرى المسلك الرئيسى للتجارة بين الشرق والغرب سواء كان ذلك بالطرق البرية أو غيرها أو عن طريق القوافل التى تسلك المعابر المتجهة إلى غرب القارة حامله السلع والمتاجر إلى مصر . ولقد ربحت مصر الكثير من جراء هذه التجارة .

وعملا من مصر على تشجيع الحركة التجارية مع تلك البلاد ، فإنه كان

يسمح للتجارة القادمة مع الحجاج بوصولها إلى مصر ليس فقط دون جمارك بل دون تفتيشها سواء جاءت عن طريق القوافل أو عن طريق البحر .

واتصلت مصر ببقية بلاد القارة الأفريقية فى السودان الغربى والأوسط بمواصلات تتفق مع البيئة الجغرافية الممثلة فى الصحراوات الواسعة التى لايستطيع الإنسان عبورها وقطع دروبها إلا بالقوافل التى تربط واحاتها بالبلاد المتصلة بأجزائها ، وكانت تجارة مصر تصل عبر طرق القوافل التى تنقل السلع من بلاد السودان وبلاد المغرب ومصر وبالعكس فى فترات معينة من السنة .

ولقد أدى قيام مصر بدورها فى تلك الأنحاء إلى ظهور الانتعاش والازدهار الاقتصادى حيث أدى ذلك الازدهار إلى تحول كبير ، فى حياة سكانها الاجتماعية ودخلوا المدينة الإسلامية على نطاق واسع واكتسبوا المعارف والخبرات الفنية وأصبح الكثير منهم أرباب مال .

ولقد كان دور مصر بارزا فى الحركة الاقتصادية ، إذ أن القوافل المصرية التى كانت تتحرك إلى بلاد السودان الأوسط الغربى عن طريق الواحات التى كانت ترتادها القوافل المصرية ومنها غربا إلى تمبكتو حيث لاتوجد حواجز طبيعية ، وكان لمصر دور هام فى تحضر هذه النواحى سياسيا وثقافيا وكان للحركة التجارية دور فى نشر الثقافة الإسلامية .

وفى القاهرة فإن المصريين كانوا يديرون الأسواق ويبيعون البضائع القادمة من بلاد وسط وغرب أفريقيا إلى التجار الأوروبيين والأسيويين وغيرهم . وكانت هناك أسواق متخصصة فى بيع كل صنف من أصناف التجارة التى كانت تجىء من بلاد السودان ، وكان ذلك يتم عن طريق الوكالات المنتشرة فى أنحاء كثيرة من القاهرة والمدن الكبرى .

ولعل مما ساعد على نمو حركة التجارة وزيادة التأثير المصرى فى العلاقات الاقتصادية بين مصر وبلاد وسط وغرب السودان أن مصر ظلت قوية قائمة بدورها الحضارى والتجارى رغم ضعفها فى بعض الفترات التاريخية ، وكان ذلك يتبع اندثار بعض طرق القوافل وتحول الحركة التجارية لمسلك آخر لكى تواصل تأدية دورها فى خدمة الاقتصاد الإسلامى والحركة الاقتصادية العالمية . وكانت هذه الطرق تصل إلى نهايتها عند الأسواق الكبرى فى تلك البلاد ، والتى كان يقع أغلبها فى شمال البلاد حيث كانت تجرى عن طريقها

حركة التصدير والاستيراد مع الخارج ، وكان يتم فيها عقد الصفقات الكبرى بين كبار التجار ووكلائهم ، وكان يقصد هذه الاسواق التجار من جميع الجهات ، ولكن وجود التجار المصريين بها يمثل ظاهرة كبرى بالإضافة إلى التجار المغاربة والبغداديين ، ذلك لأنهم كانوا أهم العناصر السائدة (المصريين والمغاربة) والمسيطرة على حركة التجارة فى هذه المدن الكبرى . وكانت قوافل التجارة التى تتم عن طريق الجمال تصل من مصر إلى مدن جنى وجاو وتميكتو وكانت تقف عندها وقلما تتجاوز هذه القوافل تلك المدن إلى الداخل ، بل أن التجار المصريين وغيرهم كانوا يجدون فى تميكتو وجنى وجاو وولاته التجار المحليين وتجار الجنوب (الغابات) فى انتظارهم .

ولقد قامت مصر بدورها الرائع فى التجارة العالمية حيث ازدهرت التجارة ، وشمل هذا الازدهار العظيم التجارة المملوكية . ولكن سقوط مصر فى أيدى العثمانيين عام ١٥١٧ م وتحول التجارة تماما إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، كان من الأسباب التى أفقدت مصر دورها فى تلك المناطق من القارة الأريقية .

إلا أن الفترة الطويلة التى سبقت سقوط مصر وتحول التجارة عن طريق رأس الرجاء الصالح قد شهدت ازدياد النشاط التجارى وزيادة عدد القوافل وعدد الجمال وما تحمله من السلع والبضائع المختلفة ، ومن هنا كانت حركة القوافل التجارية بين مصر وأقاليم التكاررة المختلفة فيها تزداد حركة التطور الاقتصادى .

ولقد أدى انتقال التجار المصريين إلى تلك المناطق وظهورهم بكثرة فى المدن المختلفة وإقامتهم فى مختلف الأقاليم إلى قيام كبار رجال الدولة فى هذه البلاد بل وأمرائها بالإضافة إلى أهالى الأقطار المجاورة فى السودان الأوسط والغربى بالنزول عند هؤلاء التجار بالقاهرة ، وذلك أثناء مرورهم بها فى سفرهم إلى الأراضى المقدسة بالحجاز ، وكان من العوامل التى ساعدت على وصول المصريين إلى تلك الأنحاء وذهابهم فى قوافل كبيرة أنهم كانوا قد عرفوا طرق التعامل مع أهالى تلك البلاد بالإضافة إلى اتقانهم معالم طرق القوافل المؤدية إلى تلك الأقاليم وقد أدى ذلك إلى نتائج عظيمة المدى فى المجال التجارى وأصبحت الحركة التجارية أكثر سهولة بسبب استخدام القوافل المصرية الدائم والمستمر لهذه البلاد .

ولقد ساعد على أداء مصر لدورها الاقتصادى فى البناء الإسلامى ، ذلك أنه إذا كانت الشئون الاقتصادية فى مقدمة العلاقات الإنسانية فإن التجارة وهى تؤدى مهمتها الجليلة فى تبادل السلع وتداولها تعتبر الأداة الفعالة من أدوات الترابط بين الأقطار حيث إنها أداة من أدوات العمران وهذا ماربط بين مصر والأقطار الإسلامية ، ولقد لعبت العلاقات الاقتصادية بين مصر وهى أحد بلاد الشرق الإسلامى وتلك الاقطار دورا هاما فى زيادة الروابط بل وتوثيقها ، فالتجارة فى العصور الوسطى والتجار الكارميه قد ساهموا فى بناء العصر بما نقلوا من الافكار فضلا عن السلع والمنتجات بين الشرق والغرب ، وبذلك أصبحت بلاد كانم وبرنو وامارات الهوسا ومالى وسنغاى محطات استراتيجية لخدمة الطرق التجارية العابرة للصحراء .

ولقد نتج عن زيادة التعامل بين مصر وهذه الأقطار أن أصبحت الدراهم التكرورية معروفة فى مصر بل من أهم العملات المتداولة فى مصر نظرا لثبات قيمتها فى الاسواق وتبعا لازدهار التبادل التجارى بين مصر وبلاد غرب ووسط أفريقيا ، فقد وجدت جاليات مصرية كثيرة بهذه البلاد ، ولقد أتيح لمصر أن تمارس دورها تجاريا مع هذه الأقطار إذ نجد مصر جاءت منها سلع عديدة مثل الأدوات المعدنية والحلى والخرز والعقود والأساور المصنوعة من الفضة والذهب والأقمشة الكتانية وأدوات التجميل والزينة مثل الكحل وأنواع من الأدوات النحاسية التى تستخدم فى كثير من الأغراض ، ومن تلك الصلات فقد مارست مصر دورا هاما فى الاقتصاد العالمى فى العصور الوسطى وخاصة فى العصر المملوكى ، فقد كانت التجارة الكارمية دعامة من الدعامات الكبرى فى بنائها الاقتصادى وتأكيدا لدورها فى العالم الاسلامى بل وفى الشرق والغرب ، وازدهر الكارمية فى مصر حتى أصبحوا أعظم طبقة تتحكم فى أهم تجارة عالمية فى ذلك الوقت ، وقد بلغ التجار الكارميه الذين ربما كان معظمهم من بلاد كانم وبرنو وبلاد التكرور مكانة عالية حازوا بها على الثروة والجاه ، ولم تقتصر مكانتهم على عالم المال ، بل تعدوها إلى آفاق أخرى حيث عرف كثير منهم بعلمهم العزيز وثقافتهم الدينية الإسلامية الواسعة وتفهمهم فى أمور الدين واشتهروا بأعمالهم الخيرة والصلاح وامتد أثرهم فى أكثر من جانب .

وقد أصبح تجار كانم الكارميه لهم فى مصر وسائر بلاد العالم الإسلامى

ثروات جمة وأسطول تجارى عظيم ، وأن نشاط الكانم فى أفريقيا قد اتخذ مركز انطلاق غير بلادهم الأصلية ، ذلك المركز هو مصر التى كانت همزة الحركة التجارية والاقتصادية العالمية .

وكانت تجارة بلاد الشرق والغرب فى مصر شبه احتكار فى يد تجار الكارميه حتى احتكرتها الدولة المملوكة فى عهد السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ - ١٤٣٧ م) ومن هنا فلا مجال للحديث عن دور التجار الكارميه فى حركة الصلات الاقتصادية بين مصر وبلاد وسط وغرب أفريقيا ، وذلك لأن الأشرف برسباى قد قضى على دورهم التجارى .

وكان قيام السلطان الأشرف برسباى بفرض نظام الاحتكار للتجارة فى مصر لصالح السلاطين قد أدى إلى قيام كل سلاطين المماليك الذين تعاقبوا على حكم مصر من بعده وقد حافظوا على هذا الاحتكار حتى نهاية عصر الدولة المملوكية فى مصر ، بل أن التجار الكارميه صاروا موظفين فى الدولة .

ولقد تطورت النظم التجارية فى مصر فى القرنين الخامس والسادس عشر الميلادى تطورا كبيرا فى مختلف فروع التجارة حيث كانت طوائف التجار يؤلفون طبقة مقربة إلى سلاطين المماليك الذين أحسوا بالتجارة التى أضحت المصدر الأساسى الذى يمدهم بالمال وأن التجار فى عصر المماليك تمتعوا بثروات ضخمة . وقد شهد عصر المنسا موسى فى مالى والاسكيا محمد الكبير فى سنغاى والماى ادريس ألوما فى برنو ازدهاراً لحركة التجارة مع مصر وغيرها من البلاد الإسلامية فقد كانت القوافل تأتى بالبضائع بما يفى حاجة شعوب وسط وغرب القارة حيث كانت تقوم شعوب وقبائل السودان من سكان سنغاى بنقل هذه البضائع التى تصل إلى بلادهم بدورها إلى حافة الغابة جنوبا وإلى مجارى الأنهار حيث تتم المقايضة بطريق التجارة الصامتة واستبدالها بالذهب الذى ينتجه الزنوج من الساحل الغينى وقبائل الاكن والأشانتى فى غانا وساحل العاج .

ويبدو أن تجارة الذهب قد أصبحت رائجة بين مصر وبلاد غرب القارة وسطها ، إذ يشير القلقشندى إلى بلاد التكرور كأهم منطقة يستورد منها الذهب فيقول الذهب أصله ما يجلب إلى الديار المصرية من التبر من بلاد التكرور ، ويذكر أن التجار المصريين المترددين على مالى قد ابتاعوا من

ملكها (مارى جاطه الثانى) حجرا كبيرا من الذهب كان فى جمله الذخيرة عن أبيهم وهو حجر يزن عشرين قنطارا منقولا من المعدن من غير علاج أو تصفية بالنار . وقد كانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندرة مثله فى المعدن ، وشراء التجار المصريين لهذا الحجر الكبير من الذهب يدل على قوة وقدرة المصريين الشرائية ومدى تغلغلهم فى قلب الاقتصاد الأفريقى ودور مصر الاقتصادى فى تلك البلاد .

وليس أدل على عمق الدور المصرى والصلات بين مصر وتلك الأقطار من أن الحفريات التى تمت فى جاو عاصمة سنغاى والتى قام بها بعض الباحثين والاركيولوجين وما ذكره أحد الباحثين الفرنسيين (رونالدموى) من العثور على الكثير من الدنانير المصرية من العصر المملوكى ، وكذلك وجدت بعض الدنانير والدراهم الفاطمية والمغربية أيضا وذلك ما يقيم الدليل القاطع على أن تلك الدنانير قد وصلت عن طريق التجار المصريين والسودانيين وأنها استعملت فى أسواق جاو ولكنها كانت قليلة الكمية ، ومعنى ذلك أن استعمالها كان مقصورا على الطبقات العليا فى المجتمع كالأسرة المالكة والأمراء والموسرين بالعاصمة .

ولقد امتاز العصر المملوكى بنشاط اقتصادى واسع النطاق ، فقد كانت التجارة بين سنغاى والممالك السودانية الأخرى تدر أرباحا طائلة لكلا البلدين ، وكان التجار فى حركة دائبة ودائمة بين مصر وهذه البلاد على مدى قرون عديدة ، فقد كان التجار المصريون المقيمون ببلاد السودان المختلفة يقومون بنشاط اقتصادى من شأنه تنظيم العلاقات التجارية وتسهيل المعاملات بالإضافة إلى تأجير المساكن لهم فى هذه البلاد حتى تبدو المدن السودانية وكأنها أسواق عالمية حرة يجتمع فيها التجار من مصر وبلاد المغرب العربى ومدنه المختلفة وغيرها من البلاد يشترون من البضائع المحلية ويبيعون منتجات بلادهم . ولعل خير مدينة تمثل هذه السوق العالمية فى وسط وغرب أفريقيا مدينة أيرAir التى كان لها دور فعال فى الحياة التجارية والاقتصادية قبل تأسيس مدينة تمبكتو بل قبل قيام كثير من المدن السودانية ، بل أن قيام كثير من المدن السودانية كان منذ البداية أساسا لخدمة التجارة والتعامل بين البلدين . وأضاف أن عملية تبادل السلع التى تمثل قوى التكامل الاقتصادى حيث كانت عملية التبادل بالذهب العينى

والدينار والدرهم قد وصلت بالتجارة إلى أوجها وازدهارها خلال القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ، بالإضافة إلى أن دور مصر الاقتصادى لم يقتصر على اتجاهها إلى الغرب على الإقليم الساحلى ، بل كانت القوافل المصرية تجوب الصحراء الكبرى حاملة إليها المصنوعات المصرية لقاء ما تأتى به من منتجات محلية وقد وصل التجار المصريون حاملين بضاعتهم إلى سلطنات النيجر الإسلامية وإلى مدنها المختلفة ، بل أن القافلة المصرية التى كانت تسير إلى تلك الجهات كانت تصل فى بعض الأحيان إلى اثنى عشر ألف جمل أى مايوازى حمل ثلاثين سفينة بحرية . وقد حمل التجار المصريون مصنوعات حازت اعجاب سلاطين تلك الجهات ، فقد كان معظم هذه المصنوعات من الأنواع الراقية الغالية الثمن والتى اقتصر استعمالها على السلاطين وعلية القوم والأمراء .

ذلك لأن المصنوعات المصرية التى ترد من مصر كالأوانى النحاسية والمصنوعات الحديدية والفضية والذهبية وأدوات الزينة ومصنوعات الزجاج كان يتمتع بالحصول عليها وتداولها سكان المدن والأغنياء فى البلاد بوجه خاص فعرفوها وولعوا بها .

ولقد كان لسوق الذهب نشاط رائج لأن التجار المصريين والعرب كانوا يأتون لشرائه من التجار المحليين فى هذه البلاد وينقلونه إلى أسواق بلادهم ثم يصدرونه إلى بلاد البحر المتوسط ، ولهذا كانت تمبكتو محط القوافل القادمة من مصر والقوافل القادمة من المناطق الجنوبية فى أعالى السنغال والنيجر ، ولهذا كانت مركزا تجاريا عظيما تزودهم فيها القوافل التجارية ، وتكثر فيها مستودعات التجار الأجانب والذين من بينهم المصريون على وجه الخصوص والذين كانوا يقيمون فى بيوت يبنونها فوق مخازنهم .

ولقد كانت الصادرات إلى مصر عبارة عن العاج وريش النعام والصمغ وبعض الجلود وجوز الكولا وغيره من المنتجات الأفريقية الأخرى بالإضافة إلى الذهب الذى كان المادة الأولى فى الثروة الوطنيه ، أما القوافل المصرية والمغربية فكانت تتحمل النسيج والمصنوعات الجلدية ومصنوعات الزينة وبعض الأدوات وتعود محملة بالذهب والبضائع الأفريقية ، على أن رواج التجارة بين مصر وبلاد تلك المناطق بشكل عام يعود إلى أن الأمن كان سائدا فى جميع الطرقات فى السلطنة مما ساعد على نمو الحركة التجارية ،

والحركة التجارية ليست دليلا على وجود رخاء وحضارة مزدهرة فحسب بقدر ما هى دليل على قيام أمن واستقرار وكيان دولة . ومن هنا يكون التاريخ لحركة التجارة ومراكزها التى تتقاطع عندها طرق القوافل إنما هو فى الواقع تأريخ للحضارات والأمم التى صحبت هذه الحضارات ، وهكذا نجد أن تاريخ حركة التجارة بين مصر وسنغاى على طريق الصحراء وفى تاريخ تمبكتو هو تاريخ للمدينة القديمة بقدر ما هو تاريخ لتطور العلاقات الاقتصادية بين البلدين وتأريخ لهذه الدول والسلطنات التى عاشت على أرض وسط وغرب القارة الأفريقية حتى قدوم رجال الكشوف الجغرافية ورجال الاستعمار ومن خلفهم رجال التبشير الأوروبى .

ولقد كانت الفعاليات الاقتصادية النشطة فى غرب أفريقيا تتركز على التجارة بالدرجة الاولى ، فعندما قضى الإسلام على التكتلات القبلية ساعد على توحيد الأفارقة فى دولة قوية مستقرة أو دولة أخذت التجارة تشكل تنظيما لها بوجود طبقة من التجار العرب والأفارقة فى كل من غانا ومالى وسنغاى ، ويدل على ذلك ظهور وتطور المدن التجارية الدولية المذكورة سابقا بالإضافة إلى مدينة « كبارا » التى كانت الميناء الهام لتميكتو وهو ملتقى البضائع والتجارة القادمة من مصر وشمال أفريقيا ومنها توزع نحو مالى والنيجر وداهوى ، وإلى هذا الميناء تنتقل بعض البضائع المنقولة عبر نهر النيجر فى طريقها إلى مصر وشمال أفريقيا . ولقد كان التجار فى وسط وغرب أفريقيا يشكلون طبقة كبيرة فأطلق عليهم (الوانكارا) أو الديولا وذلك لأن بعض القبائل قد امتهنت التجارة وعرفت بها مثل قبائل الساركولا والمالانكة وهؤلاء عملوا فى تجارة الذهب .

وفى المدن التجارية الكبرى المنتشرة فى تلك الأقطار توجد أحياء خاصة للتجار المصريين والعرب يقيمون فيها . وكانت هذه الأحياء هى مراكز الأسواق الرئيسية حيث كان التجار ينزلون ببضائعهم ، وكانت لهم مستودعات فى تلك الأحياء . وكان أغلب التجار العرب القادمين إلى تلك الأماكن من مصر واليمن والجزيرة العربية وشمال أفريقيا ، وكان شعب المدن التجارية يرحب بهم ، بل أنه ليس أدل على عمق الصلات الاقتصادية بين مصر وهذه البلاد من أن سلاطينها وحاشية البلاط السلطانى فى العواصم المختلفة كانوا يتعاملون لشراء الأشياء الغالية مثل الكتب والتحف وغيرهما

من الأشياء الثمينة ، وكان التجار وأغلبيتهم الساحقة من المصريين والمغاربة يقومون برحلات موسمية حاملين معهم بضائعهم إلى أقاصى الغابات الاستوائية وكان وصول البضائع المصرية إلى تلك الجهات أكبر دليل على التأثير المصرى وعلى تشجيع الأفارقة على الخروج عن عزلتهم ، وذلك لأن العلاقات الاقتصادية بين الأفارقة والعالم الخارجى كانت محصورة بالبلدان العربية والإسلامية ، وقد نظم الإسلام التجارة بين الطرفين ومن هنا كانت أفريقيا دوما حافلة بالأسواق التجارية وبالطرق التجارية التى كانت تربط هذه المناطق فى كل الاتجاهات ، وبفضل هذه التجارة نشأت لدى السكان فى تلك المناطق وخاصة المدن التجارية الكبرى تقاليد ثابتة فى التعامل مع هؤلاء التجار فهم يستقبلون القوافل بالترحاب ، وأحيانا بالدفوف لأنهم يستفيدون منهم ويعيشون على التبادل التجارى معهم .

ومن هنا فإن ازدهار تلك البلاد اقتصاديا فى بعض فترات حكمها إنما كان قائما على حد كبير على التجارة وحركة التبادل التجارى بينها وبين الأقطار المجاورة ، وذلك لأن عدم قدوم التجار إلى تلك الأنحاء فإنه كان يؤدى بالضرورة إلى كساد اقتصادى وعدم تصريف البضائع المحلية . وكان الأمراء فى تلك الأقطار يستقبلون التجار بحفاوة بالغة ويهيئون لهم أسباب الأمن ويدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم فى بلاطهم وما إلى ذلك للأهمية الاقتصادية والحضارية التى كانت تنتج عن مجيء التجار بأعداد كبيرة إلى السلطنات الإسلامية وقد حافظت كل المكونات الأفريقية على التقليد السودانى القديم منذ أيام مملكة غانا ومالى فى ضرورة الاهتمام بمصالح التجار وتيسير سبل إقامتهم وحل المشكلات التى تواجههم والاحتفاء بهم .

وعلى الرغم من أن بعض مسارب الطريق الغربى المتصل إلى ساحل المحيط الاطلسى قد شاهدت بعض الاضطرابات ، إلا أن ذلك لم يوقف دور التجار ، وإنما جعلهم ذلك يغيرون اتجاههم إلى طرق أخرى مما أعطى لهذه الطرق عوامل للازدهار أكثر من السابق ، أما بقية الطرق فقد شاهدت ازدهاراً كبيرا فى ذلك العهد بكل تأكيد وذلك لتوافر البضائع وتكاثرها وورود البضائع الأوروبية على أسواق مصر ولازدياد الانتاج فى كل من مصر والمغرب فى العهد السابق .

ويبدو أن تجارة الذهب كانت رائجة بين مصر وتلك الأقطار السودانية ،

وذلك لأن تلك البلاد كانت أهم منطقة تستورد منها مصر الذهب ، وأن الذهب فى تلك البلاد كان أكبر مصدر للثروة المصرية ، إذ كانت تجارة الذهب تدر عليهم الكثير من المكاسب والربح ، ولقد كان كثير من التجار المصريين يقصدون تلك الأقطار لأجل الحصول على كميات كبيرة من الذهب والعودة به إلى ديارهم المصريه بعد أن يكونوا قد باعوا ما حملوه من بضائع مصرية غاية فى الروعة والتقدم ، وكان ذلك يعود عليهم بالقيام بالدور الأخوى الإسلامى إضافة إلى الأرباح التى كانوا يحصلون عليها . ولقد اشتهرت المناطق الواقعة إلى الجنوب من امبراطورية سنغاى بالذهب الذى كان يصل إلى مصر وبلاد المغرب من السودان الغربى . ولقد كان الذهب الأفريقى هو أول ما أثار لعاب الأوروبيين إذ كانوا يسمعون بقوافله التى تعبر الصحراء ، وكانت سنغاى أهم مصدر له بالإضافة إلى البلاد المجاورة والتى امتدت من النيجر شرقا إلى السنغال غربا وإن كان مصدره الاصلى إقليم ونجارا . وقد ظل هذا القسم من إفريقية مصدرا للذهب منذ القرن الثامن الميلادى حتى تم اكتشاف الأمريكتين ، بل أن البعض يعزو التدهور الاقتصادى والسياسى الذى أصاب تلك السلطنة الإسلامية والذى كان إيذانا بأفول دول غرب أفريقيا كان فى قيام حكام المغرب الذين قضوا على أكبر سلطنة فى السودان الغربى وهى سنغاى عام ١٥٩١ وذلك بالإضافة إلى ظهور البرتغاليين على الساحل الغربى الأفريقى حيث كانت سيطرة المغرب على تلك الديار لمحاربة النفوذ البرتغالى وتكوين الدولة الإسلامية الكبرى جنوب الصحراء ، وقد كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح هو بداية ظهور منفذ جديد لتصدير الذهب عبر المحيط الأطلسى بدلا من عبوره للصحراء ، وبالإضافة إلى الذهب فإن القوافل السودانية قد حملت العاج والمسك والعنبر ومنتجات تلك الأقطار ، وقد ظلت تلك التجارة قوية بين الجانبين حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وكان التجار المصريون الذين يرحلون إلى تلك الأقاليم أداة طيبة لنشر الإسلام والعلوم الإسلامية والتجارة .

وليس أدل على دور التجار المصريين مما ذكره ابن خلدون فى أن عدداً من التجار ساهموا فى تدعيم الوضع الاقتصادى لدولة مالى فى عهد السلطان (مارى جاطه) الثانى عندما قربت الدولة على الإفلاس ، بالإضافة إلى أنه نظرا لعظم دور التبادل التجارى بين مصر وبلاد السودان الغربى والأوسط

فإنه لم تكن لسكان مدينة « تكادا » المركز الرئيسى لتجارة القوافل مع مصر من عمل سوى التجارة مع مصر فيسافرون إليها كل عام لجلب أزهى الثياب وغيرها من مختلف المنسوجات المصرية والتى يتباهى باقتنائها عظماء القوم ، وقد ضمت قائمة السلع المستوردة من تكادا معدن الذهب والنحاس والذى كان بكثرة فى منطقة تكادا . ولا يخفى ذكر معدن النحاس بالنسبة لمصر فى عصر المماليك إذ أن النحاس استخدم فى صناعة المشربيات والأوانى المنزلية والأباريق والصحون وغيرها كما أستخدم فى تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء ، كذلك انتشرت فى العصر المملوكى صناعة تكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة .

كذلك ليس أدل على رواج وازدهار التجارة بين مصر وبلاد غرب أفريقيا عما ذكره ابن خلدون من أن قافلة خرجت من إحدى المدن الكبرى - مدينة تكدا - فى طريقها عبر الطرق الصحراوية إلى القاهرة بلغ عدد جمالها اثنى عشر ألف جمل ، وبالرغم من المبالغة الظاهرة فى هذا الرقم فإنه يدل على ضخامة التجارة المتبادلة وعلى دور مصر فى الحركة التجارية فى تلك المنطقة . ولقد كان أهم ما تحمله تلك القوافل التى تمر بتلك المدينة معدن النحاس الذى يأخذ منه المصريون والبربر وبلاد برنو ومالى وأمارات الهوسا وغيرها من السلع الأخرى ، وهذا يعطينا صورة عن كثرة البضائع التى كانت تنقلها هذه القوافل وعن مقدار الربح الذى كان يحصل عليه التجار فى أسفارهم إلى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية ، وهكذا أصبح هؤلاء التجار أهم طبقة فى الأمبراطورية المصرية نظير ما أسهموا به من أجل البقاء على دورها الحضارى وقوتها وفنونها .

ولقد نتج عن زيادة التعامل والمعاملات بين مصر وبلاد غرب القارة أن أصبحت الدراهم التكرورية من العملات المعروفة والمشهورة فى مصر ، بل ومن أهم العملات المتداولة فى أيدى الناس ، وذلك نظراً لثبات قيمتها فى الأسواق وجودة عيارها . وليس أدل على ذلك من أن السلطان أشرف برسباى عندما أراد إصلاح أحوال العملة فى مصر عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م فإنه رسم ألا يتعامل إلا بالدراهم المسكوكة فى الديار المصرية والشامية ويبطل ما سوى ذلك ماخلا الدراهم التكرورية ، ومن ثم فإن الاتصال بين مصر وتلك الديار يعود إلى فترة طويلة متصلة فى التبادل التجارى ، فقد تمت العلاقات

التجارية عبر العصور ، ويكفى دليلا على أهمية التجارة أن الضرائب التى كانت تحصل فى سجلماسه أهم مداخل القوافل إلى بلاد غرب القارة الأفريقية بلغت أوائل القرن العاشر الميلادى نحو أربعمائة ألف دينار ، وأن عبدالرحمن الاموى خليفة قرطبة بعث قواته إلى سوانا عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م . لحماية الطرق التجارية المؤدية إلى السودان الغربى حتى إذا تحكمت دولة مالى فى طريق القوافل الصحراوية عملت على ازدياد حركة التبادل وحمايتها ، فاستوردت السلع والمصنوعات المختلفة من مصر وغيرها من بلاد المغرب العربى وبكميات كبيرة ، وكان أهم ما يستورد من مصر أنواع الثياب ، ويقول ابن بطوطه إن أهل تكدا إحدى ولايات مالى شغلتهم التجارة يسافرون كل عام إلى مصر يجلبون كل مابها من حسان الثياب .

وكانت توجد حقول ومناجم النحاس الأحمر فى حقول تكدا ، ويقول ابن بطوطة . النحاس خارج تكدا يحفرون عليه ويسكنون فى المدينة فى دورهم ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم يسكبون النحاس الأحمر ويصنعون منه قضيانا فى طول شبر ونصف ويحملون النحاس إلى مدينة . كوبر . من بلاد الكفار إلى زغاوى وإلى برنو وهى على مسيرة أربعين يوما من تكدا ، وكانت هذه المدينة على علاقة تجارية نشطة مع ورجلان ومع مصر .

كذلك فإنه من أهم الأدوار التاريخية لدور مصر الاقتصادى فى غرب القارة ذلك الدور الذى لعبه تجار السودان الغربى المستقرون بمصر بالنسبة للاقتصاد المصرى ، ذلك لأنهم كانوا يمدون الدولة المملوكية بسلعة تعد من أهم البضائع التى قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها وهى التوابل والفلفل والبهار وغيرها من تلك المواد . ولقد كان أهم ما عنيت به قوافل التجارة المتجهة لبلاد السودان وتستورده من مصر لترسله إلى سلاطين تلك الجهات هو المنسوجات الحريرية والكتانية ولقد كانت بمصر صناعة راقية لهذه المنسوجات على اختلاف أنواعها . ولقد كانت طائفة التجار الكارميه أبلغ دليل على العلاقات الودية بين مصر وتلك الأقطار ذلك لأن هؤلاء التجار قد هاجروا إلى مصر وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور فى تجارتها الخارجية واشتغلت هذه الطائفة بتصريف المحاصيل السودانية ومارسوا تجارة البهار من اليمن والهند والصين وشرق أفريقيا وزنجبار ، وكان وصول قوافل الكارميه حدثا هاما فى مصر إذ كان تجار الكارميه يصلون إلى مصر فى

مواسم معينة من السنة وأن طريق التجارة لاستجلاب الفلفل قديما هو بلاد كانم فى وسط أفريقيا وأن مصر كانت السوق الرائجة لسلع بلاد السودان لأسباب دينية وتجارية .

كذلك فإن كثيرا من التجار المصريين والمغاربة كانوا يرحلون فى قوافل كبيرة العدد إلى تلك الديار لكى يقوموا بعمليات الاستبدال التجارى ، وكانت الاقمشة الفاخرة والأسلحة والذهب من الأشياء ذات القيمة فى التبادل ، كما أن بعض التجار المصريين لجأوا إلى إرسال وكلائهم إلى غرب أفريقيا لمباشرة أعمالهم التجارية ، وقد زادت ثروة كلا الطرفين ، ذلك لأن حركة التجارة كانت نشطة بين مصر وتلك الأقطار وهذا يعطينا صورة عن كثرة البضائع التى كانت تنقلها هذه القوافل ، وعن مقدار الربح الذى كان عليه التجار من أسفارهم إلى بلاد السودان . وهكذا أصبح هؤلاء التجار الكارميه أهم طبقة تجارية فى الإمبراطورية المصرية ، كما أسهموا به من أجل البقاء على فنونها وقوتها وازدهار ورخاء الحالة الاقتصادية بها .

كذلك فإن مصر أرسلت إلى تلك الجهات كميات كبيرة من الدمور المصرى الذى كوّن نسبة كبيرة من هذه التجارة . ولم تقتصر هذه القوافل التجارية على أن تحمل إلى سنغاى (بلاد غرب القارة) المصنوعات المصرية بل حملت إليها كل ما كانت تستورده مصر من أوروبا من بضاعة .

وفى أواخر عصر الدولة المملوكية فى مصر فإن المماليك لم يجدوا ما يسدون به حاجتهم المالية والمادية لذا فقد اتجهوا نحو الاشتغال بالتجارة ، واتبعوا سياسة احتكار السلع التجارية لتعويض النقص الناجم عن إلغاء نظام الاقطاع ، واحتكروا التجارة احتكارا كاملا . وقد أثروا من التجارة وتغالوا فى احتكارها .

وقد أضحت مصر همزة الوصل فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب . ولقد كان الهدف من التحالف بين (البرتغال وأسبانيا) هو الوصول إلى مناجم الذهب الموجودة فيما وراء الصحراء الكبرى والبحث عن طريق لانتزاع التوابل من مصر وتركيز التوابل فى أسواق لشبونة .

وكما سبق أن ذكرنا فإن الدور المصرى قد ساعد على الازدهار التجارى بين كل الأطراف بحيث كان الوجود المصرى فى شكل جاليات كبيرة أمراً طبيعياً

سواء كان هؤلاء المصريون من الفقهاء أو العلماء أو التجار ولقد سافر كل منهم بنفسه ، ومنهم بعض كبار التجار المصريين قد لجأ إلى إرسال وكلائهم عنهم لمباشرة أعمالهم التجارية ، ومن هؤلاء التجار المصرى الشهير (محمد بن مسلم بن أحمد البالسى) الذى كان يرسل وكلاءه إلى بلاد التكرور ثم بعد ذلك يعودون له بالأرباح الكبيرة ، ولقد كان وجود المصريين فى المحطات التجارية الهامة على طريق القوافل مثل تكدا وغدامش وغات ومرزق وكوار وبلما وأيسر وغيرها من المدن الكبرى شيئا مألوفا وطبيعيا فى هذه المدن والمحطات التجارية التى كانوا يترددون عليها . ذلك لأن التجار المصريين كانوا يقصدون تلك الأنحاء بانتظام وبصفة مستمرة ودائمة بالإضافة إلى أنه كلما ازدادت أعداد المصريين بغرب أفريقيا كلما زادت صلات الربط وتعمق الدور المصرى الاقتصادى الأخوى ، ولقد كانت كثرة عدد الأجانب فى تلك المناطق وخاصة المصريين دافعا قويا للسلاطين لكى يُعيّنوا وزيرا فى وزارتهم يختص بشئون الأجانب وهو ما أطلق عليه وزير (كورى فارما) .

وكان الدور المصرى الاقتصادى بدافع العلاقات التجارية والاقتصادية يمثل رباطا قويا فى دعم العلاقات بين دولة المماليك وبين سكان تلك الأنحاء فى القارة الأفريقية ، ذلك لأن سلاطين المماليك قبل سقوطهم وسقوط دولتهم لم يدخروا وسعا فى تقوية تلك الرابطة الاقتصادية بينهم وبين تلك الأقاليم وغيرها من بلاد العالم المختلفة وذلك عن طريق الاتصالات التى كانت تتم سواء الاتفاقيات أو تبادل السفراء الذين كان أغلبهم من التجار العاملين بين مصر وتلك الجهات ، إضافة إلى أن المحطات التجارية المنتشرة فى الصحراء الكبرى والتى كانت تمثل نقطا لإراحة القوافل على الطريق الطويل فإنها ساهمت فى دعم التجارة الداخلية والخارجية لغرب أفريقيا إضافة إلى زيادة النشاط الاقتصادى بصورة عامة .

وقد أدى الدور المصرى الاقتصادى فى تلك الانحاء إلى انعكاس قيم أخلاقية سامية كان من شأنها أن تقوى الروابط الإنسانية بين الطرفين فميدان التجارة والعلاقات الاقتصادية يتطلب الاستقرار وخلق الثقة فى النفوس بين سائر الأطراف المشتركة فى هذا الميدان التجارى بالرغم من أن هدف أولئك التجار المصريين كان تحقيق التكامل الاقتصادى الإسلامى وحق الأخوة الأفريقية الإسلامية ونقل منتجات بلادهم إلى غرب أفريقيا بما

يسد حاجتها ويساعدها على دعم اقتصادياتها وتطورها بالمشاركة الإسلامية ، إلا أنهم كانوا فضلا عن ذلك رسلا للحضارة والمدنية الإسلامية ذلك لأن العمل التجارى والاقتصادى يتطلب الاحتكاك بأهل البلاد الأصليين ، ومن ثم نقل ألوان الثقافة العربية الإسلامية إليهم من ناحية أخرى . ويرجع أولئك التجار إلى بلادهم بانطباعات عميقة عن الحياة الأفريقية ومزايا حضارتها ، وبهذه الطريقة فإنه يصبح تفاعل الثقافات أمراً ميسورا بين الطرفين،وذلك لأن الحكام حين يتيسر لهم الرقابة الكاملة على طرق القوافل عند نهايتها فى الصحراء فإن ذلك يؤدى إلى اتساع مدينة الإمبراطورية .

وتيسر بعد ذلك لتجار تلك الأنحاء احتكار السلع التى كانت ترد من مصر ومن غيرها ، فإن ذلك قد أثر فى غنى الاقليم كله . ولقد وجد ما يقنع الحكام والسلاطين بأن التجارة الواسعة التى كانت تصل دول هذا الإقليم بالعالم الخارجى كله . لاتقل شأنا عن التجارة فى أوروبا المعاصرة ، لكن الدور الاقتصادى المصرى قد تأثر بسقوط مصر واحتلال العثمانيين عام ١٥١٧ م ، كذلك كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح هو السبب الثانى من أسباب اضمحلال ذلك الدور الاقتصادى ، وقد أثار الرحّالة بارث فى رحلته إلى ذلك الإقليم عام ١٨٧٨ م أنه لم يجد تجارة يمكن مقارنتها بما وجد فى ذلك الوقت فى أوروبا ، ولكنه وجد شواهد تقنعه بأن الأداة التجارية التى تمت هناك قبل قرون هى التى أعانت تلك الدول على النشوء والظهور والبقاء والتطور ، وظلت تحكم طوال العصور الوسطى فى إقليم السفانا . ويمكن أن نقدر مقدار التجارة التى كانت تمر عبر أراضى أغماديس حيث إن أميرها كان يدفع لسلطان سنغاى جزية سنوية مقدارها مائة وخمسون ألف دكوتا كل عام ، وذلك دليل قوى على ثراء المنطقة بوجه خاص .

لكن مما يذكر عن دور مصر الاقتصادى أنه فى الفترة ما بين أعوام (١٥٦٣ - ١٥٦٩ م) فقد شهدت الطرق الممتدة بين مصر وبلاد السودان الغربى ومنطقة سنغاى ، نشاطا تجاريا ملحوظا حيث كان قدوم البضائع بصورة مستمرة ومتصلة ، ومن ثم زادت صلة الربط التجارى حيث كانت تأتى لقوافل إلى مصر من الغرب ومن الجنوب حتى تطرق دارفور . لقد كانت

العلاقات التجارية بين بلاد وسط وغرب أفريقيا قوية جدا فى تلك الفترة مع مصر .

ويكاد يجمع الباحثون على أن العصر الذهبى للتجارة والعلاقات التجارية الاقتصادية بين مصر وهذه البلاد قد شارف النهاية فى القرن السادس عشر الميلادى ، وذلك لتوسع التجارة البحرية التى أنهت طريق البرووجهت التجارة نحو الساحل الغربى لأفريقيا خاصة بعد عدم الاستقرار السياسى فى هذه البلاد فى منطقة غرب أفريقيا نتيجة القضاء على مملكة سنغاى عام ١٥٩١ م على يد القوات المغربية فى عهد الخليفة المنصور السعدى منعا لقوات البرتغال من السيطرة على الديار الإسلامية ولكن يبدو أن التحليل السابق فيه شىء من المبالغة ذلك لأنه ليست هناك شواهد كبيرة على أن وصول الأوروبيين إلى ساحل غرب أفريقيا كان له تأثير سريع على اقتصاديات الداخل وعلى دور مصر الاقتصادى ، ذلك لأن التجارة استمرت عبر الصحراء خلال القرن التاسع عشر الميلادى ولكن بصورة أقل عما كانت عليه قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح .

لكن مدينة تمبكتو التى كان وجود التجارة المصرية بها أمرا مألوفا ، والتى كانت من المدن والمحطات الهامة التى كان يتردد عليها المصريون وغيرهم من التجار المسلمين قد انقطعت الصلة بينها وبين أوروبا بعد القرن السادس عشر الميلادى ، بعد أن كان الأوروبيون يتحدثون عن جمالها ووفرة ثروتها وتجارتها من الذهب وريش النعام والعاج وغيرها من منتجات تلك البلاد ، وظلت على هذه الحال حتى زارها الفرنسى (رينه جبيبه) عام ١٨٨٢ م فقال إنه كان واهما فى تقدير شأن تلك المدينة وفى مقدار ثروتها وحالة الرخاء التى يعيش فيها سكانها .

وعلى هذا فإن دور مصر الاقتصادى مع تلك البلاد قد جعلنا نؤكد أنه يمكن القول بأن التجارة فى تلك الأنحاء كانت هى عماد الحياة الاقتصادية وذلك لأنها كانت معتمدة على العلاقات الاقتصادية القائمة بينها وبين تجار مصر وغيرها من البلاد والاقاليم الداخلية والمجاورة لها والتى كانت ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه المناطق أو المدن التى كانت محطات للقوافل العابرة للصحراء ، ولقد كان من عوامل قيام مصر بدورها الاقتصادى فى تلك الأنحاء فى غرب ووسط القارة الافريقية أن تلك الدول كانت تسيطر على

مصادر الثروة فى أراضيها والتى هى الذهب والملح ، كما سيطرت على طرق التجارة الرئيسية بين الشمال والجنوب ، وفى ظل الأمن والطمأنينة التى نعمت بها سنغاى فى عهد سلاطين الأساكى كانت التجارة ناجحة ومزدهرة ، وكانت تدر الرخاء والثراء على الحكومة والشعب معا . ولقد بلغت التجارة عبر الصحراء فى عهد أسرة الأساكى درجة عظيمة لم تبلغها دولة غانا أومالى من قبل ، وذلك لأن سنغاى كانت أكبر وأعظم ، وهكذا تدفقت الأرباح على حكومة سنغاى وشعبها ، وهكذا استفادت تلك البلاد كل الفائدة من صلاتها الاقتصادية مع مصر طوال العصر المملوكى وبداية العصر العثمانى ، وذلك لأن مصر كانت هى الطريق الوحيد الذى تصل بواسطته علاقات بلاد الغرب والحبشة والشرق الأدنى وبلاد المغرب ، وكانت مصر ملتقى التجارة العالمية طوال العصر المملوكى .

وكان للدور الذى لعبه التجار الكارميه أكبر الأثر فى صلة الربط بين مصر وتلك المناطق من القارة الأفريقية ذلك لأن مصر على أيديهم قد شهدت نشاطا كبيرا فى التعامل التجارى قام بها هؤلاء التجار وزادت التجارة مع بلدان السودان الغربى وأفريقيا الوسطى . وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى مصر المملوكية محاصيل بلادهم ومحاصيل البلاد الأخرى والتى كان الأوروبيون يبذلون كل جهد للحصول عليها . وكانت البضائع التى ترد من مصر كالأوانى النحاسية والمصنوعات الحديدية وأدوات الزينة ومصنوعات الزجاج يتمتع بالحصول عليها وتداولها سكان المدن الكبرى والأغنياء فى البلاد بصفة خاصة ، أما سكان البوادى والأرياف فلم يكونوا يعرفون عنها إلا القليل وذلك باستثناء سكان القرى الواقعة على مشارف بلاد السودان من جهة الشمال ، فقد كان سكانها يستقبلون قوافل التجار ويعرضون عليهم خدماتهم كأدلاء أو معاونين فيعطيهم هؤلاء شيئا من البضائع التى يحملونها حيث عرفها السكان وولعوا بها .

وكان أثر هؤلاء التجار فى حياة مصر تأثيرا قويا ، حتى أن بعض السلاطين من المماليك عندما كانوا يضطرون لخوض الحروب والتجهيز لها كانوا يقترضون منهم الاموال،وأيضا كلما اضطرتهم الظروف إلى ذلك ، وقد ساعد اتصالهم بالسلاطين ودفع الضرائب والتبرعات للدولة على توطيد أقدامهم فى ميدان التجارة المصرية .

وقد قام هؤلاء التجار بتوسيع نطاق الدور المصرى فى القارة الأفريقية ، إذ امتد نشاط هؤلاء التجار فى شمال بلاد السودان الأوسط الغربى وبلاد السودان الشرقى وتاجروا فى مختلف السلع ، وقد ساعد ذلك على نمو اقتصاد هذه البلاد وازدياد ثروتها ، وقد نمت ثروة هؤلاء التجار نمواً عظيما بحيث أصبحوا يقومون فى عالم التجارة والمال بما تقوم به البنوك الحديثة فى عالم الاقتصاد اليوم ، وقد حال تجار الكارميه وغيرهم من تجار العرب والبربر دون اتصال تجار أوروبا إلى قلب القارة الأفريقية اتصالا مباشرا وذلك لأسباب دينية وتجارية .

وكانت مصر وتركيا بعد سيطرتها على مصر من بين سائر دول العالم الإسلامى التى قام التجار الكارميه أنفسهم بدور عظيم فى سد احتياجاتها من السلع بالإضافة إلى أنهم تاجروا مع إمارات الهوسا وارتبطوا بتجارة واسعة مع الأسواق الأجنبية عن طريق مصر .

بالإضافة إلى أنه قد زاد نفوذهم الحالى فى مصر حتى استولى سليم الأول عام ١٥١٧ م على حكم المماليك فى مصر ، وكان قد احتل القاهرة عنوة وهى المدينة الإسلامية الكبرى والتى كان للاستيلاء عليها معنى واضح يعنى خضوع تلك البلاد . وقد لاقت مصر الكثير من المحن والنكبات من جراء النظم التركية العنيفة لاسيما فى النواحى الاقتصادية وقد تحقق الأتراك منذ البداية أن عظمة ورقى مصر متوقف على دورها التجارى ،ومن هنا فإن سليم الأول عمل على إعاقة استخدام الطرق التجارية ، والذى لاشك فيه أنه حتى بعد احتلال العثمانيين لمصر وقضائهم على دولة المماليك (١٣٨٣ - ١٥١٧م) فقد استمرت القوافل فى حركتها السابقة بين مصر وبلاد وسط وغرب القارة والتى كانت تسيطر على معظم أرجائه سلطنة سنغاى وبرنو ، ومع أن العثمانيين فى فتوحاتهم قد أخفقوا فى أن يحلوا محل المصريين فى السيادة الاقتصادية لاختلافهم عن المصريين والعرب التجار بالفطرة بعد أن نجحوا فى السيطرة على مصر والشام مفتاح التجارة العالمية فى العصور الوسطى . وقد بذلوا (أى المصريين) جهودا عظيمة وطيبة لتشجيع التجارة ولكن أسواق الشرق العربى قد انهارت وفقدت أهميتها فى التجارة العالمية التى انتقلت إلى غرب أوروبا . وكذلك فى العصر التركى صارت مصر ولاية لها أهمية من الناحية الاقتصادية ، فقد أهملت طرق القوافل التجارية

القديمة.وكان من نتيجة ذلك أن تدهورت مصر إلى هوة الخراب الاقتصادى الذى تجرعت فيه الأمرين وقاسى منه أهلها نحو ثلاثة قرون ثم اضمحل شأنها .بالرغم من كل هذا فقد بقيت لمصر تجارة ترد إليها من وسط أفريقيا حيث تلك السلطنات الإسلامية وبقية بلاد السودان الغربى .

بل أنه مما يذكر أنه فى العصر العثمانى قد تم نهائيا اقصاء التجار الكارميه من التجارة ، واحتكر العثمانيون تلك التجارة.وقد أضر هذا الاحتكار بالتجارة ، كذلك فقد أغلقت القوات العثمانية الطريق التجارى المصرى الذى يربط مصر بأفريقيا الغربية ، وكذلك فإن الأسواق الواقعة على هذا الطريق قد نضب ما فيها من السلع شيئا فشيئا نتيجة الأعمال العسكرية المتصاعدة ، كما قل مرور قوافل التجارة تجنبا لأخطار الحرب ، وهكذا كانت السيطرة العثمانية سببا فى تدهور العلاقات الاقتصادية التى ازدهرت بين مصر وبلاد وسط وغرب القارة الأفريقية خلال القرن السادس عشر الميلادى ، والتىكانت مزدهرة طوال العصور الوسطى منذ أن وصل الإسلام إلى الأراضى المصرية ، كذلك منذ أن طبع الإسلام طابعه الخاص على دول وسط وغرب القارة والأقاليم المجاورة ، ولهذا فقد لعبت التجارة والتجار والمصريون دورا هاما فى حركة الاقتصاد والسياسة والثقافة ، وذلك بما لهم من خبرات واسعة فى هذه المجالات المتعددة .

ومن هنا فإنه يمكن القول إن دور مصر الاقتصادى كان واضحا كل الوضوح فى تلك المناطق، وقد كانت هناك روابط اقتصادية قوية مع تلك الأنحاء . وقد ساهم فى تلك الروابط التجار المصريون الذين رحلوا إلى تلك الديار والتجار الكارميه الذين استقروا فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية .

وهكذا لعبت مصر دورا اقتصاديا لايقل أهمية عن الدور السياسى والثقافى الذى لعبته فى تلك المناطق ، بل أنه يمكن القول إن الدور الاقتصادى الذى قامت به مصر فى تلك الأنحاء كان أحد الأسباب فى تقوية العوامل السياسية والثقافية التى سبق الاشارة إليها ، لأن قوة الاقتصاد هى التى تدعم الوضع السياسى والثقافى ، ولأن الثقافة تزدهر وتؤتى ثمارها فى ظل الرخاء والعمران الذى توفره العوامل الاقتصادية ، وبذلك يتضح دور مصر السياسى والثقافى والاقتصادىفى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية فى

العصور الوسطى لاسيما فى القرن الرابع عشر الميلادى ـ السابع الهجرى ـ الذى شهد عصر ازدهار مصر وتفوقها فى كل ميادين الحياة .

وهكذا قامت مصر بدورها الاقتصادى فى مناطق وسط وغرب القارة خير أداء متجهة فى ذلك الاتجاه بدافع الأخوة الإسلامية الأفريقية التى كان يجب عليها أن تقوم بها إزاء أخوة الإسلام فى تلك المناطق ، وكان تحرك مصر الاقتصادى دافعا لبناء التكامل الاقتصادى وبناء وحدة اقتصادية أفريقية لم يكن فيها دافع السيطرة أو الاحتكار أو فرض النفوذ ، وإنما كان ذلك التحرك الاقتصادى المصرى فى تلك الأنحاء وليد عمق العلاقات والدور الذى أبقى على عاتق مصر لكى تمارسه وتؤديه فى العصور الوسطى أومايسمى فترة الازدهار الحضارى السياسى والثقافى والاقتصادى المصرى ، وذلك قبل ظهور سفن الاستعمار الغربى البرتغالية وغيرها من الدول الأوروبية على شواطىء غرب أفريقيا لكى تحول دون قيام الطرق الصحراوية الداخلية المؤدية إلى مصر وغيرها من بلاد شمال أفريقيا ليكون الاتجاه إلى لشبونه وأسبانيا وغيرهما من الدول الأوروبية الاستعمارية التىأخضعت كل القارة الافريقية لسيطرتها .

الباب الثالث

دور مصر الحضارى فى شرق أفريقيا والحبشة

الفصل الأول

دور مصر السياسى فى شرق أفريقيا والحبشة

مارست مصر دورها التاريخى فى شرق القارة الأفريقية والسودان والحبشة منذ العصور القديمة ذلك لأن الآثار المصرية القديمة ، منذ عصر الدولة القديمة خيرشاهد على الدور الذى لعبته مصر مع بلاد شرق القارة الأفريقية سواء فى المجال السياسى أو الاقتصادى أوالثقافى ، وإن كان دور مصر فى منطقة شرق أفريقيا قد ظهر أثره منذ أن أشرقت أنوار الدعوة الإسلامية فى الأراضى المصرية عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م . ومن ثم بدأ الدور المصرى يأخذ طابعا مغايرا للدور الذى كان يؤدى فى العصور السابقة ، إذ أن الإسلام ومآثره من تغير فعال قد جعل مصر تقوم بواجبها المقدس تجاه تلك المناطق التى لعبت فيها أدوارها فى العصور القديمة وفى العصر المسيحى ، وذلك لأن علاقات مصر وبلاد الحبشة وشرق أفريقيا لم تنقطع منذ القدم غير أن صلة مصر بهذه البلاد استوثقت إلى أبعد الحدود ابتداء من القرن الرابع الميلادى ، وبعد أن انتشرت المسيحية فى مصر ، فقد أصبحت كنيسة الحبشة ومصر متصلتين أشد الاتصال فكلتاهما تستوحى تعاليمها من المذهب

اليعقوبى ، وكانت كنيسة الحبشة تابعة للكنيسة اليعقوبية فى مصر ، غير أن القرن السابع الميلادى وما يشهده من أحداث هامة سيؤثر على مصر وعلى شرق أفريقيا ويكتب لهذه الصلات أن تتخذ شكلا آخر ، فقد ظهر الإسلام وفتح المسلمون مصر وأصبحت هذه البلاد تابعة للدولة الإسلامية ، بل ولاية إسلامية كبرى ، وخضعت كنيستها اليعقوبية للنفوذ الإسلامى ، وامتد هذا النفوذ إلى شمال أفريقيا ، ووصل الزحف الإسلامى إلى حدود مصر الجنوبية ، وكما تأثرت مصر بهذه الاحداث الهامة فقد تأثرت الحبشة وغيرها من بلاد شرق أفريقيا ، بل كانت هذه التطورات نقطة تحول هامة فى تاريخ الحبشة على وجه الخصوص ، فقد كانت هذه البلاد قبل ظهور الإسلام وانتشاره على هذا النحوعلى اتصال ببلاد البحر المتوسط فتسبب الفتح الإسلامى فى عزل الحبشة عن هذه المناطق التى كانت على اتصال وثيق بمصر بل بدأت أحوال شرق أفريقيا والحبشة الاقتصادية تتأثر بهذه الأحداث ، ذلك لأن مدن شرق أفريقيا الساحلية كانت تنزل بها جاليات من المصريين واليمنيين وغيرهم من التجار الذين كانوا يسيطرون علىتجارة الحبشة . وقد بدأ هؤلاء التجار ينسحبون من الداخل متمركزين فى مدن الساحل . وقد تأثرت هذه العلاقات والتطورات التى خضعت لها مصر وتأثرت بها الحبشة مما أثر فى طبيعة العلاقات بين القطرين،فمصر استجابت وبسرعة فائقة للتأثيرات الإسلامية وللدين الإسلامى الحنيف ، وبدأ أغلب المصريين يدخلون فى الإسلام أفواجا وقل عدد المسيحيين فى البلاد وخضعت الكنيسة اليعقوبية للدولة الإسلامية وأصبحت هذه الدولة هى التى تعين بطريرك الحبشة وتقرر سياسة الكنيسة فى علاقاتها بالعالم الخارجى .

وفى بلاد الحبشة وشرق أفريقيا بدأ الإسلام ينتشر وتكونت جاليات إسلامية ليست قليلة العدد وامتدت التأثيرات الإسلامية إلى قلب الحبشة نفسها . وأصبحت هذه الإمارات الإسلامية على صلات روحية قوية وممتازة بمصر الإسلامية علىوجه الخصوص حينما أصبحت لمصر مكانة طبيعية فى العالم الإسلامى . وتشتد هذه الصلات وذلك الدورالمصرى منذ القرن الرابع الهجرى ، وكما أن صلات المسلمين بالحبشة وشرق أفريقيا لم تنقطع ، وكذلك فإن اتصال المسيحيين الأحباش بالكنيسة المصرية لم ينقطع أبدا ، ومن هنا

كان مسلمو الحبشة وشرق أفريقيا يتطلعون إلى مصر ، ذلك لأن كل هذه الأوضاع المتغيرة كانت عاملا حاسما فى تاريخ العلاقات بين كل من مصر والحبشة وشرق أفريقيا ، ولذلك كان انتشار الإسلام المطرد فى شرق أفريقيا واهتمام الدولة الإسلامية فى مصر بإخوانهم فى الدين من هذه المنطقة سببا فى أن مصر قد اضطرت لاتخاذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن إخوانهم فى العقيدة وتأمين انتشار الإسلام فى الداخل إلى مناطق شرق أفريقيا ، بل أن القرن الثالث عشر الميلادى شهد ظهور إمارات إسلامية كبرى تقوم فى صميم الوطن الحبشى نفسه وانتشار الإسلام فى المناطق الساحلية الممتدة حتى موزمبيق جنوبا بل امتد التيار الإسلامى إلى قلب الهضبة الحبشية ، هذه الأمور التى تحدد دور مصر السياسى بين مصر والحبشة وبلاد شرق القارة حيث ساد هذه العلاقات نوع من التسامح والتفاهم المتبادل بين مسلمى الحبشة ومسيحيي الهضبة وقد كان من الطبيعى أن تساعد هذه الأمور على أن تمارس مصر دورها السياسى وأن تنمو هذه العلاقات بين مصر والساحل الإسلامى والهضبة الحبشية وبقية أنحاء شرق أفريقيا الممتدة من عيذاب شمالا حتى موزمبيق جنوبا .

ولقد كان دور مصر فى نشر الإسلام فى ذلك الجزء من أفريقيا لايقل عن دور الجزيرة العربية وبلاد الخليج وساحل عمان وجنوبا الجزيرة ، ذلك لأن مصر لعبت دوراً كبيرا أكثر فاعلية فى الفترات التاريخية التى تلت لأن قيام مصر ونشر الإسلام كان متوقفا على مدى سرعة الحركة والتأثير على إسلام القبائل البدوية أولا . ولقد كان انتشار الإسلام فى منطقة أريتريا وساحل البحر الأحمر الغربى الممتدة من الحدود المصرية حتى منطقة الطرف الأفريقى لابد أن تؤثر فيه الظروف الجغرافية ، ذلك لأن تلك الظروف تعيننا على معرفة الطرق التى سلكها الإسلام وهى لايمكن أن تعدو طريقين لا ثالث لهما - الطريق الأول وهو الطريق الذى مارست فيه مصر دورها وهو الطريق البرى الذى ينحدر من مصر على طول ساحل البحر الأحمر مخترقا ديار البيجة ومتجها إلى ساحل أرتيريا ، والطريق الثانى البحر المتصل بجزيرة العرب مهد الإسلام ومبعث الأنوار القرآنية .

أما الطريق الأول وهو الأكثر فعالية لأنه طريق برى وعبوره بل سلوكه لايحتاج لبعض المشقات والمخاطر التى يتعرض لها سالكو الطريق لبحرى لاسيما وأن العرب لم يكونوا مهرة فى فن الملاحة البحرية ، فقد بدأت

المؤثرات الإسلامية تنحدر من مصر عبره ، بعد أن أتم العرب فتح مصر مباشرة وأدخلوها فى دائرة النفوذ الإسلامي ، ولقدكان طبيعيا أن يدعم الإسلام ولا يقطع الصلات التجارية القديمة والعلاقات السياسية بين مصر وتلك الأقطار عبر الساحل الشرقى لأفريقيا ولا يقطع الصلات العقائدية بل يدعمها ويرسخها بل لقد كان طبيعيا أن يقوم البيجة الذين تمتد ديارهم فى شمال أريتريا والحبشة بدور الوساطة فى كل هذه الصلات والمبادلات التى تتم بين مصر الإسلامية وتلك الأقطار فى شرق القارة الأفريقية بل أن كان أمرا طبيعيا أن يتصل هؤلاء البيجة بمصر العربية الإسلامية منذ اللحظة الأولى التى توطدت فيها دعائم العقيدة الإسلامية ، ولم تلبث مصر أن أضحت بل صارت مقصدا للكثير من القبائل العربية المهاجرة والتى استقرت بها وطال استقرارها بل ومكث بعضها وتصاهروا إلى المصريين ، بينما قصر مكوث البعض بها وعبروا الحدود المصرية إلى الجنوب حيث استقروا فى شمال السودان ، وأوغل بعضهم فى الهجرة فوصل إلى السودان الأوسط ، بل واصل البعض منهم شد الرحال فى الاتجاه جنوبا حيث وصلوا إلى أريتريا والصومال ونهاية الطرف الأفريقى ووصلوا إلى غرب السودان .

وكانت العلاقات بين مصر ـ الحبشة وشرق أفريقيا فى العصور الوسطى استمراراً طبيعيا للعلاقات بين الطرفين وللدور المصرى الذى تلعبه مصر فى تلك الأنحاء منذ القدم ذلك لأن مصر تقع عند الطرف الشمالى للبحر الأحمر وتقع الحبشة عند طرفه الجنوبى ، ومن المعروف أن البحر الأحمر كان هوصلة الربط بطبيعته منذ العصور التاريخية القديمة ، ذلك لأن علاقة مسلمى الحبشة وأريتريا بمصر فى العصور الوسطى لم تقتصر على العلاقات التجارية ولكنها امتدت إلى النواحى السياسية والدينية والثقافية خاصة بعد أن تم احياء الخلافة العباسية بمصر عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م فتوافد على مصر أساتذة العلم وطلابه من مسلمى الحبشة وشرق القارة حتىصار لهم بالأزهر الشريف أروقة مثل رواق الزيالعة ، ورواق الجبرت وغيرهما من الأروقة التى اختصت بها إدارة الأزهر طلاب شرق أفريقيا والحبشة ، بل أنه لم تقتصر علاقة الحبشة بمصر الإسلامية فى العصور الوسطى على مسلمى الحبشة بل تعدتها إلى العلاقات الوطيدة مع الجانب المسيحى ، ذلك لأن العلاقات والدور المصرى بين البلدين قد امتدت جذوره إلى عصور قديمة

قبل ظهور الإسلام وربطت بين مسيحيي الحبشة وكنيسة الإسكندرية ، إذ أنه منذ انتشار المسيحية فى مصر والحبشة أصبح لمصر ولبطريرك البلاد حق تنصيب مطران مصرى ليرأس الكنيسة الحبشية واستمر الحال على هذا المنوال حتى التاريخ الحديث وبالتحديد حتى عام ١٩٤٦ م .

ولقد سيطرت مصر بنفوذها على الساحل الممتد من ميناء عيذاب فى الشمال والذى ينتهى فى الجنوب عند سفاله فى موزمبيق حاليا وذلك طوال العصر المملوكى وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر حيث كانت تلك المنطقة الساحلية فى الجانب الأفريقى من البحر الأحمر وبر العجم (صوماليا) وبرالزنوج ، بل أن السودان أطل على مساحة تقترب من ثلاثمائة ميل على البحر الأحمر، ويمتد الإقليم جنوبا من ظهر الهضبة الحبشية الأثيوبية إلى قلب القارة الأفريقية أى إلى منطقة البحيرات والمعروف أن هذه المنطقة على اتساعها مفتوحة لمرور القوافل وحركة الهجرات العربية التى كانت تزحف فيها القبائل من طريق مصر البرى إلى تلك الأنحاء .

ولقد كانت المنطقة الممتدة من ميناء عيذاب حتى بوغاز باب المندب يكاد يكون الوجود المصرى بها بصفة مستمرة نظرا لسيطرة الأسطول المصرى على البحر الأحمر من جميع شواطئه ، وقد أدركت الدولة الإسلامية فى مصر مدى أهمية قبائل البيجة فى حركة الاتصال بين مصر وتلك المناطق ، ومن ثم قدرت الدور الذى يضطلعون به فى التجارة بين مصر والحبشة وأرادت أن تعيد الصلات التجارية القديمة التى كان البيجة قد قطعوها حتى مستهل القرن السابع الميلادى ، وقد ساعد ذلك فى أن القبائل العربية المهاجرة أو الأفراد العرب المهاجرين لم يقتنعوا بالمناطق القريبة من أرض مصر جنوبا وإنما توغلوا إلى الجنوب أكثر فأكثر فقد أثبتت الأبحاث الأثرية وجود جاليات إسلامية فى منطق خورنيت الواقعة على مسافة سبعين ميلا غرب سواكن فقد عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى ودل البحث الاثرى كذلك على وجود مسجد فى سنكات يرجع تاريخه إلى عام ٨٣١ م .

لقد أحدث دور مصر الإسلامى انقلابا خطيرا فى حالة الدور الذى بدأ يمارس عن طريق حركة الهجرة العربية الكثيفة التى بدأت تتسرب سلميا

إلى الجنوب على الساحل الشرقى لأفريقيا ، وذلك لأن الإسلام قد جعل الصلة مستمرة . وقد نتج عن ظهور الإسلام أن ظهرت مصر كقوة إسلامية مؤثرة فى تاريخها الإسلامى الطويل وإن ظهر عامل آخر غير العامل التجارى ، إذ أصبح المصريون العرب القادمون من الطريق الشمالى البرى يفضلون الاستقرار بصفة دائمة وإقامة كيانات إسلامية فى الأجزاء الشمالية الممتدة من ميناء عيذاب حتى ساحل صوماليا بصفة خاصة ، وكثر عدد المصريين المقيمين فى زيلع وبربرة وسواكن عيذاب وغيرها من الأماكن والموانىء المطلة على ساحل البحر الأحمر . وقد أدى ذلك بمساعدة إخوانهم العرب القادمين من الجزيرة العربية إلى ظهور الإسلام وانتشاره بين السكان .

وعلى كل الأحوال فقد أحدث الإسلام أثره فى الساحل الشرقى لأفريقيا ، وأثرت التجارة المصرية عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندى فى استيطان عربى إسلامى على الساحل تأثيرا كبيرا ، وتحولت الموانىء الشمالية الغربية من الطريق الشمالى إلى مدن بل إمارات عربية تخضع لحكم مصر المباشر كعيذاب وسواكن وزيلع وبربرة ، وانتشرت اللغة العربية وثقافتها الإسلامية فى تلك الأنحاء ، ذلك لأن منطقة شرق أفريقيا حتى ساحل البحر الأحمر الغربى قد كانت مهجرا طبيعيا لسكان الجزيرة العربية ومصر منذ أقدم العصور ، واستقرت هجرات المسلمين إليها كنتيجة طبيعية للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سادت مصر وأثيوبيا والسودان بعد الإسلام .

وقد اشتغل المسلمون بالتجارة على نطاق واسع وعن طريق الانتقال بالتجارة انتشر الدعاة فى تلك البقاع حيث أدى ذلك إلىوجود عربى مصرى حيث أتت التجارة الهندية إلى مصر فارتبطت هذه الأجزاء مع مصر ارتباطا قويا على مدى العصور الوسطى ، إلى جانب ماجلبوه إلى مصر من منتجات هذه البلاد . وقد كان التجار العرب والكارميه والهنود والفرس أو تجار المدن التى قامت على الساحل الشرقى لأفريقيا الجنوبى كزنجبار وكلوه يحملون التجارة الهندية من شواطئها بعد أن عرفوا سر الرياح الموسمية واتجاهاتها الصيفية والشتوية إلى ميناء عدن ، ومن هذه الاخيرة بدأ نشاط التجار الاثيوبيين أو العرب بسفنهم الصغيرة ليحملوا هذه التجارة إلى موانىء البحر الأحمر ومنها إلى ميناء عيذاب وقلزم

السويس ولقد كان ميناء عيذاب وقلزم السويس المصريين يلعبان دورا هاما فى أداء الدور المصرى .

ذلك لأن السفن كانت تسير فى البحر الأحمر صوب الشمال إلى احد هذين الميناءين وليس أدل على نشاط هذين الميناءين قول ابن جبير حين شاهد عيذاب أنها من احفل مراسى الدنيا لماكان يصلها من أحمال الفلفل الذى كان يترك فى بعض مراحل الطريق الصحراوى بين عيذاب وقوص دون حراسة فلا يجرؤ أحد على أن يقربه حتى يأتيه صاحبه .

كما مارست مصر دورها السياسى والدينى فى الحبشة كبرى بلاد شرق أفريقيا منذ العصر الإسلامى وطوال العصور الوسطى، وذلك لأنه كما سبق أن ذكرنا أن مصر كانت ترسل المطران أو البطريرك للحبشة والذى كان منصبا دينيا مصريا حتى عام ١٩٤٦ . وكان للمطران المصرى فى الحبشة مكانة كبيرة حتى فاقت أهميته فى بعض الأحيان مكانة ملوك الحبشة أنفسهم ، والواقع أن الحبشة بعد انتشار المسيحية بها صارت لاتستغنى عن المطران المصرى فيها فضلا عن قيامه بالشعائر الدينية والاشراف على كنيستها بالإضافة إلى أنه كان للمطران المصرى مهام أساسية اجتماعية وسياسية فهو الذى يقوم بتتويج كل امبراطور جديد للبلاد ، بل يقوم برئاسة الاحتفال الكبير الذى يقام بمناسبة التتويج هذه التى تتم على يديه وتحت إشرافه الفعلى ، كما أنه كان عليه واجب كبير وهو مصاحبة الامبراطور فى كل الحروب التى تخوضها الحبشة لكى يكون لهذه الحملات شرف مباركة المطران المصرى الأكبر لها ، بل أنه هو بشخصه الذى كان يضفى على القوانين واللوائح والشرائع الامبراطورية صيغتها القانونية ، والأكثر من ذلك فإن المطارنة المصريين كانت لهم آثار بعيدة المدى فى المجتمع المسيحى الأثيوبى بما يمثلونه من مكانة عالية ومرموقة لدى الخاصة والأمراء فى الأسرة المالكة ولدى عامة الشعب حيث كان يتحتم عليهم إرساء كثير من القواعد فى البلاد مثل القضاء على عادة تعدد الزوجات بدون حساب ، كما وقع على كواهلهم عبء نشر المسيحية وإرساء قواعد المذهب الأرثوذكسى فى البلاد ، ولذا انتشر هذا المذهب على نطاق واسع بين الرعية الحبشية إذ ظهرت الأديرة التى عرفتها مصر منذ القرن الرابع الميلادى والتى بدأت تنتشر فى الحبشة منذ القرن السادس الميلادى فصاعدا ، كما قام الرهبان المصريون بترجمة الكثير من الكتب

الدينية إلى اللغة الأمهرية لغة أهل الحبشة ، كما امتد التأثير المصرى أيضا إلى النواحى الفنية فكثير من كنائس الحبشة التى شيدت فى هذا العصر قام بإنشائها مهندسون وعمال مصريون ، ويعتز الأثيوبيون بارتباطهم الوثيق بالكنيسة المصرية ، ويظهر هذا الاعتزاز فى تكريمهم للمطران المصرى ، هذا إلى أن الأثيوبيين فى رواق الشعب المصرى وفى الكنيسة المصرية أخوة صادقة لاترمى إلى سيادة سياسية أو استعمار ولا إلى أى نوع من أنواع التبعية بين سيد ومسود فهم لم يروا يوما جيشا مصريا يتقدم إلى بلادهم غازيا مستندا على ذراع الكنيسة بل وقفت الكنيسة دائما فى صف الشعب تدافع عن استقلال بلاده .

كما أن أباطرة الحبشة كثيرا ماكانوا يرسلون إلى سلاطين مصر وأمرائها وخلفائها الكثير من الهدايا والرسل من أجل طلب المطران الذى يرأس كنيستهم ومن أجل حفظ حقوق المسلمين المقيمين فى الحبشة وهى الإمارات التى كادت يوما أن تسقط عرش الحبشة المسيحى فى عهد المجاهد الحبشى أحمد القرين .

وتذكر الأحداث التاريخية دور مصر السياسى فى الحبشة إضافة إلى إرسال المطران المصرى أنه منذ وقت مبكر فى تاريخ الدولة المملوكية وصل إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى رسول من سلطان اليمن يقول فيه إنه وصله وفد حبشى يقصد مصر من أجل طلب المطران ، وأنه قد احتجز الوفد حتى تأتيه الأوامر من سلطان مصر بما يفعله بشأنه ، أما ماكان يحمله ذلك الوفد من خطابات وكتب فإن سلطان اليمن قد أرسل بها إلى سلطان مصر والذى وجد فى خطاب امبراطور الحبشة طلبا يسأل الموافقة على أن تعين الاسكندرية مطرانا مصريا لأثيوبيا يقول فيه .. يرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهزلنا مطرانا يكون رجلا صالحا عالما لايحبى ذهبا ولافضة ويرسله إلى الحبشة يسير إلى الملك المظفر صاحب اليمن وهو بسيره إلى مولانا السلطان ويقول إن فى معسكره مائة ألف فارس مسلم ، وأن كل من يصل إلى بلادنا من المسلمين نخدمهم ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون ونحن نحفظ كل من يأتى من بلاد المسلمين فسيّروا مطرانا يحفظهم .

لكن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى رغم كل ما كان يقوم به من حروب فى بلاد الشام ومقاتلة التتار والصليبيين فلم تتح له الفرصة للرد

على رسالة امبراطور الحبشة وأن يقيم لهم مطرانا، فالمطران ضرورى للأثيوبيين كما سبق أن شرحنا دوره فى الحياة فى أثيوبيا وذلك من أجل تتويج الامبراطور فمنذ أيام الامبراطور (يوكدنا أملاك) أصبح تتويج المطران المصرى للامبراطور ضروريا دليلا على صحة ولايته للعرش وأنه يصح لأحد غيره أن يحكم وفى استطاعة الشعب أن يخرج عن طاعة من لايتوجه المطران المصرى .

وقد ألف الشعب الاثيوبى المطارنه المصريين ولم يرض عنهم بديلا ، وفى الفترات التى تعذر فيها حضور مطران مصرى لظروف سياسية معينة استحضر الأحباش مطارنة سوريين من أنطاكية أو كاثوليك غربيين ، ولكن لم يلبث الأحباش أن يلحوا فى طلب استقدام المطران المصرى . وقد حدث أن أرسل امبراطور أثيوبيا رسالة يطلب بيطريرك من أنطاكية من أجل أن يرسل مطرانا يحل محل المطران المصرى إلا أن الشعب الأثيوبى لم يرض عن هذه الخطوة الجريئة من جانب الامبراطور وهدد ومعه الاكليروس الوطنى بالثورة على الامبراطور لاسيما أن المطران السريانى الجديد لم يكن فوق الشبهات .

وكما ذكرنا فى الرسالة السابقة الموجهة إلى الظاهر بيبرس البندقدارى فإن العصور الوسطى أحيانا شهدت كثيرا من المكاتبات بين ملوك الحبشة وسلاطين مصروأمرائها وخلفائها ، كما تم تبادل السفارات بين البلدين فأرسل ملوك الحبشة السفارات والهدايا من أجل موافقة سلاطين المماليك على إيفاد مطران مصرى إلى الحبشة ، كما أرسل سلاطين المماليك السفارات إلى الحبشة من أجل الكف عن إيذاء المسلمين فى الحبشة .

ومن المراسلات التى دارت مرة أخرى بين ملوك الأحباش وسلاطين مصر ذلك الخطاب الذى أرسله الامبراطور (يجياصون بن يوكونـا املاك) إلى السلطان قلاوون فى شهر رمضان عام تسع وثمانين وستمائة (٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م) يقول فيه إنه يحفظ المسلمين فى مملكته ، كما أن مولانا يحفظ النصارى فى بلاده ويطلب ارسال المطران لأن المطران السريانى الذى اتلف البلاد فى زمان والده ، وهذا المطران من اعداء المسلمين ، وأن الامبراطور الاثيوبى يشتهى أن يحضر المطران المصرى وأن يكون جواب السلطان بما يصلح المسلمين والنصارى حتى تنصلح بلاد الحبشة .

وكان من نتيجة ذلك الخطاب أن وافق السلطان قلاوون على قيام البطريرك باختيار مطران مصرى وسفره إلى هناك ، كذلك واصل ملوك الحبشة الحرص على إرسال الهدايا إلى سلاطين مصر رغبة فى تدعيم العلاقات ، ومن ذلك الهدية التى أرسلت إلى الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٢ هـ / ١٣٢٢ م ، والتى بلغت قيمتها ألف دينار أو أكثر حتى غدت من النوادر ، كذلك قدم رسل ملك الحبشة إلى مصر فى عهد السلطان برقوق عام ٧٨٨ هـ / ١٤٤٣ م وهى عبارة عن سبعين جارية وطشت وأبريق من ذهب وسيف من ذهب وأشياء أخرى ذهبية وغيرها من الهدايا الأخرى .

ولقد كان تبادل الرسائل بين سلطان مصر وأباطرة الحبشة أمرا كثير الحدوث حتى ليحفظ لنا ديوان الانشاء المصرى فى القاهرة صيغاً خاصة لما كان يرسله السلطان من رسائل إلى ملوك الحبشة، فلابد أن تبدأ هذه الرسالة كما جاء فى الجزء الثانى من صبح الأعشى فى صناعة الانشاد ، وهى أطال الله بقاء الحضرة العلية ، الملك الجليل ، الهمام الضرغام ، الأسد ، الغضنفر ، الخطير ، الباسل ، المسميدع ، العالم فى ملته ، العادل فى مملكته ، المنصف لرعيته ، المتمع لما يجب فى أقضيته ، عز الملة النصرانية ناصر الملة المسيحية ، ركن الأمة اليسوعية ، عماد بنى المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحوارين والأحبار ، الربانيين والبطاركة والقديسين ، منظم كنيسة صهيون أوجد ملوك اليعقوبية ، صديق الملوك والسلاطين ، ثم يدعى له بدعاء يليق به ، أظهر الله فضله ، على من يدانيه ، من ملك هو بالتاج يجلس ...) صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته العلية وفى حضرة القديس مسراها .

والكتب التى تبادلها ملوك أثيوبيا مع سلاطين الدولة المملوكية تبين بجلاء أصداء بعض هذه الأغراض التى ذكرناها . ففى شهر المحرم عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٤ م وصل إلى السلطان محمد بن قلاوون خطاب من الامبراطور (عمدا صهيون) ١٣١٢ - ١٣٤٣ ، ، يطلب فيه معاملة الاقليات المسحية بالحسنى .

كذلك ورد إلى السلطنة المصرية خطاب أرسله الامبراطور داود (١٣٨٢ - ١٤١١م) إلى السلطان برقوق يعلن فيه أنه تولى الحكم الذى هو موروث من الملك داود إلى ابنه سليمان ، كذلك فإنه لم يفت الامبراطور داود أن يرسل معه خطابه هذا هدية كانت مضرب المثل فى الكثرة حملها عشرون جملا وكانت

قدورا من الذهب مملوءة بحبوب صغيرة تشبه الحمص من الذهب الخالص ويبلغ كيلها مائة وخمسين طنا من الذهب الخالص وغيرها من الأدوات الأخرى ، وقد بلغ وزن الأوانى الذهبية وحدها تسعا وعشرين ألفا ومائتى مثقال .

وقد قوبلت هذه الهدية كما قوبل الوفد والخطاب أحسن قبول وأجاب بقبول كما طلبه الامبراطور ، وكانت الوفود تأتى من أثيوبيا لطلب المطران وحمل خطابات الرد وكانت تستقبل بما يليق بمرسلها من التبجيل والاحترام .

ولقد كان هؤلاء المطارنة المصريون الذين يرسلهم البطريرك إلى الحبشة دائما مثلا من أمثلة القيادة الدينية النقية الواعية والمدركة للدور المصرى التى يطلبه هؤلاء باسم مصر وباسم الكنيسة الأرثوذكسية، ولقد مرت على الحبشة فى تاريخها الطويل فترات من عدم الاستقرار عزلت فيها عن العالم الخارجى ، ورغم ذلك ظلت هناك علاقة واحدة مستمرة وتلك هى علاقتها مع مصر ، فلم يخف عن الأباطرة أهمية الدور الذى يضطلع به المطران المصرى فى المحافظة على الاستقرار فى بلادهم ، لذلك بذلوا كل ما فى وسعهم للحيلولة دون انقطاع هذا الرباط القوى بين مصر والحبشة ، كما أنه كان يتردد على مصر العربية الاسلامية فى العصور الوسطى أعداد كبيرة من الأحباش وهم فى طريقهم إلى زيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين إذ كانوا يفضلون اجتياز الطريق البرى عبر مصر بحذاء ساحل البحر الأحمر وهو الطريق الذى مارست فيه مصر دورها فى شرق أفريقيا سواء الساحل الممتد من سفالة فى موزمبيق ، وسواء داخل الأراضى الحبشية ومنطقة شرق نهر النيل ، وقد حرص حكام مصر على حمايتهم من كل أذى يتعرضون له خلال الطريق بخاصة فى عصور اشتهرت بالتعصب الدينى والحروب الصليبية ، ومن ذلك حرص السلطان صلاح الدين الأيوبى عقب استيلائه على بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م على اعفاء الحجاج المسيحيين من أية ضريبة يدفعونها مقابل زيارتهم للأماكن المقدسة أو مقابل حراسة أرواحهم وأموالهم ، واستمر هذا الاعفاء حتى نهاية العصور الوسطى ، كما سمحت مصر العربية الإسلامية فى العصور الوسطى وهى صاحبة السيادة على بيت المقدس بأن يكون لرهبان الحبشة دير فى بيت المقدس يتجمع فيه الحجاج

الأحباش عند زيارتهم للأماكن المقدسة وقد شمل صلاح الدين الأيوبى هذا الدير بعطفه ورعايته وحسن معاملته .

وإذا كانت العلاقات لم تنقطع قط بين الشعبين المصرى والأثيوبى فليس معنى ذلك أنها كانت دائمة وبصفة مستمرة ، بل أتت عليها أيام كادت تندثر فيها هذه العلاقات ولمدد طويلة لأسباب متعددة منها سوء المواصلات فى هذه الأيام مما كان يؤدى إلى طول المدة التى يستقر فيها الوفد الأثيوبى للوصول إلى مصر طلبا للمطران ، كما أن اضطراب الأحوال الداخلية فى أثيوبيا كان يؤدى إلى تقاعس صاحب السلطة فى إرسال الوفد إلى مصر حتى تستقر له الأمور ، ولكن لاتكاد هذه الأزمة تمر حتى يبادر الأثيوبيون ويحاولون وصل ما انقطع ، فقد حدث أن ضعفت الأسرة المالكة فى أثيوبيا فى أواسط القرن العاشر الميلادى حتى استطاعت أسرة جديدة من الأسرة الأجوية الاستيلاء على العرش عام ٩٤٠ هـ لكن لم يكتب لها طول البقاء نظراً لموقف الشعب والكنيسة والمطران من تلك الأسرة .

بالإضافة إلى أنه نتيجة لطبيعة العصور الوسطى التى شهدت بعض فتراتها قمة التعصب أن تدور المراسلات بين حكام مصر العربية الإسلامية وبين ملوك الحبشة من أجل حسن معاملة المسلمين فى الحبشة أو حسن معاملة المسيحيين فى مصر ، وكان من نتيجة استمرار محاربة الملوك المسيحيين للمسلمين فى بلادهم واستيلائهم على زيلع عام ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م بأن يرد على ذلك سلطان المماليك بعمل معاكس من شأنه أن يرفع القيود على المسلمين،كما لجأ بعض أهل الحبشة من المسلمين إلى بلاد السودان أو الصومال ، كما لجأ بعض الأمراء المماليك المسلمين ربما لخلافات داخلية بينهم وبين السلطان وخوفهم على أنفسهم إلى الحبشة ، والواقع أن ملوك الحبشة فتحوا بلادهم للفارين من مصر سواء من المسيحيين أو المسلمين ، كما كانت هناك مكاتبات تدور بين ملوك أثيوبيا والبطريرك حيث لم تكن المكاتبات تقف عند حد الرغبة فى اختيار المطران وإرساله بل كان البطريرك يرسل رسالتين سنويا يسأل فيها عن أحوال شعب أثيوبيا لكى يطمئن من ناحية العقيدة التى تسير عليها أو يعتنقها وإن كان هناك ما يتطلب الكتابة أكثر من مرتين فإنه لم يكن يتردد فى الكتابة إليه أو إلى المطران ينصحه فى أدق الأمور .

بل أن الكتاب الذى وصل من ملك الحبشة إلى السلطان قلاوون يذكر فيه بشأن المطارنة السريان الذين كانوا عندنا فى بلادنا من غير الدور بعضا منهم والتى يذكر أنه قام بطردهم وأنه يطلب تسيير مطران حتى يشكره الرب المسيح .

وهذه الرسالة تدل دلالة قاطعة لاتقبل أدنى شك على الدور المصرى الذى كانت تلعبه كنيسة الأسكندرية فى الحبشة ، وما كان يتمتع به نفوذ هؤلاء المطارنة الذين كانت ترسلهم مصر إلى الحبشة بعد موافقة سلاطين مصر وحكامها على ذلك ، والذين كانوا يمارسون دورهم باسم كنيسة الإسكندرية الأرثوذوكسية ومؤسسها مرقس الرسول .

وفى خلال عصر الخلافة فى القاهرة وبالتحديد فى عصر الحاكم بأمر الله والذى شهد عصره بعض المضايقات للأقليات مما جعل هذه الأقليات تضيق ذرعا بسياسة الحاكم بأمر الله تجاههم فطلبوا منه الإذن بالسماح بمغادرة الديار ، فسمح لمن أراد منهم أن يخرج من البلاد حيث يريد ، فخرج كثيرون منهم إلى السودان وأثيوبيا ورحب بهم الملك (الاكبيالا) سابع ملوك الأسرة الأجوية ، واستعان بمهرة الصناع منهم فى تشييد مجموعة من الكنائس كان معظمها محفورا فى الصخر على مثال معبد أبى سمبل ، ولم يكن يجيد هذا العمل وهو حفر المقابر والهياكل فى الصخور سوى العامل المصرى الذى ورث هذا الفن عن أجداده من قديم الزمن ، ومازالت هذه الكنائس موجودة فى أثيوبيا فى مكان حمل اسم ذلك الملك ومازال الأثيوبيون يعتزون بها ويعدونها مفخرة لبلادهم .

ولقد لجأ الكثير من المسلمين إلى الحبشة أيضا ، كما لجأ إخوانهم المسيحيون وفى ذلك لم يكن هناك اضطهاد للمسيحيين بدليل هجرة إخوانهم المسلمين معهم ، وكذلك لجأ العديد من المسلمين فى عهد السلطان الملك الكامل الأيوبى ، واستمر الحال كذلك فى عهد سلاطين المماليك . وقد كان لهؤلاء المصريين أثر كبير فى نقل الكثير من مظاهر الحياة الحضارية من مصر العربية الإسلامية إلى الحبشة ومن أمثلة من فرّ من المسلمين إلى الحبشة (فخر الدولة الكاتب) ورحب به اسحاق ملك الحبشة وأدخله فى خدمته ، ولم يلبث فخر الدولة أن قام بتنظيم ديوان ملك الحبشة على نمط الديوان السلطانى بالقاهرة ووضع قواعد جديدة لجباية الأموال والضرائب ، وبفضل هذا التنظيم

والنظم التى انتقلت من مصر العربية حتى صار ملك الحبشة على حد تعبير المقريزى ملكا له سلطان وديوان بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجا ولا نظم ولا دواوين .

وكذلك عندما فرّ أحد المماليك المسلمين. وهو الطنبغا مفرق « حاكم إقليم قوص فى عهد السلطان المؤيد شيخ ، إذ قام هذا الأمير بعد وصوله إلى الحبشة بتدريب الأحباش على استخدام النار الأغريقية والرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف بعد أن كان الأحباش لايعرفون غير استخدام الحراب ، كما فر أحد المماليك الزردكاتية إلى الحبشة فعهد إليه الملك اسحاق بعمل زردخانات (خزائن للسلاح) عظيمة فعمل له زردخاناه ملوكية .

وهكذا نجد المجتمع الحبشى بشقيه المسلم والمسيحى كانت له بمصر علاقات قوية ، وكان دور مصر بارزا وفعالا ومؤثرا فى الحبشة وعلى الساحل الشرقى ، للقارة الأفريقية أو وادى النيل ، وكان لهذه العلاقات تأثير مباشر ومصالح متبادلة بين كل من الأحباش والمصريين .

كما أن هجرة المصريين والمسيحيين خاصة لم تتوقف نحو الجنوب حيث النوبة وأريتريا وأثيوبيا ، إذ أخذ المصريون تزداد أعدادهم خلال تلك العصور ، ومن ثم أخذوا ينشرون الحضارة المصرية بين الأثيوبيين ويعلمونهم الدين وينشرون الكتب المقدسة ، وتذكر المصادر الأثيوبية أن كثيرا من المهاجرين المصريين من المسلمين والمسيحيين قدموا إلى الحبشة أيام حكم الامبراطور (لاليبالا) الذى كان معاصرا لفترة حكم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وكان من بين المهاجرين كثير من الصناع المهرة الذين استعان بهم هذا الامبراطور فى إقامة العديد من المشروعات الانشائية فى البلاد ، وفى بناء الحصون والقلاع والكنائس التى اهتم بإقامتها ، وإلى هذه الهجرة يعزو المؤرخون تشابه بناء الكنائس الأثيوبية التى بنيت فى هذا العصر بالكنائس المصرية فقد بقيت بعض هذه الكنائس محفورة فى صخور الهضاب الأثيوبية .

وعندما قامت الأسرة السليمانية فى القرن الثالث عشر فإنه لم يمض قرن من الزمان على قيامها حتى اجتاحت الحروب الأهلية أثيوبيا حين دفع

أمراء اليمن (قول الدكتور زاهر رياض) وتجار الرقيق أمراء الولايات الشرقية المسلمين إلى إعلان الثورة على الأباطرة منذ أيام عهد الامبراطور (عمداصهيون) ودارت الحرب سجالا بين الفريقين وكان كل منهما يستعين بالمصريين ، إذ تحدثنا المصادر الأثيوبية أن عددا من المماليك هربوا أيام حكم الامبراطور (زرء يعقوب) فاستعان بهم فى تدريب جيشه وأدخلوا فيه النظام الحربى المصرى ، كما أدخلوا فيه سلاح نافثات اللهب مما كان سببا فى نصرة الجيوش الامبراطورية على جيوش الثوار بعد أن يأس الامبراطور من انتصار الثوار المسلمين عليه مما دفعه إلى طلب الاستنجاد من البابا فى روما والبرتغال .

لكن ما هى الأقاليم الشرقية التى أشار إليها دكتور زاهر رياض وقامت بالثورة ضد الامبراطور والتى تطلق عليها المصادر العربية والإسلامية دويلات الطراز الإسلامى . إنها الإمارات التى تمتد من الساحل إلى داخل أثيوبيا ، وكانت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل لجنوب غرب الجزيرة العربية المجال الحيوى للجماعات العربية التى قدمت من الجزيرة العربية ومن الطريق البرى الشمالى الموصل إلى مصر ، وقد حدثت هجرة عربية من قبيلة مخزوم القرشية فى منطقة الشوا ، وكان ذلك حوالى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، وكان دور مصر بارزا فى تلك المناطق منذ ظهور تلك السلطنات حيث إنه ليس من المعقول أن تمارس مصر دورها فى بلاد النوبة والبيجة ولا يكون لها مثل هذا الدور فى سلطنات الطراز الإسلامى لاسيما أن الكتاب الغربيين أنفسهم قد اعترفوا بمساندة مصر لسلاطين هذه الإمارات فى صراعها ضد امبراطور الحبشة ومحاولة استيلاء السهل على الهضبة .

وقد تأثر قيام المراكز الإسلامية فى تلك المنطقة بحياة المجتمع المحلية حيث كان السكان أقرب إلى البداوة ، فهم كانوا يحبون الغزو والنهب والسلب ، وقد خلف هذا انحلالا كبيرا ، واشتدت المناقشة بين الزعماء من رجال الدين وأرباب السلطة والسلطان ، فكانت هناك جماعات من السكان تتبع هذا الزعيم وغيرها من القبائل الأخرى تتبع السلطان ، ولم يعمل هؤلاء السلاطين على الأخذ بناصية الأمور عن طريق بناء المجتمع والتوجه إلى استغلال موارد بلدهم فى الزراعة وغير ذلك ، فكان بلدهم بذلك كما يقول

المقريزى خفيف التحصيل ، واستطاع رجال الدين توجيه الأفراد إلى الطريق الذى يتمشى مع نزعاتهم ورغباتهم التى ورثوها عن قبيلتهم ، ولم يعملوا على التخلى عنها بعد اعتناقهم دين الإسلام ، وصار بذلك ظاهرهم الإسلام وباطنهم ملىء بالرواسب القبلية لكن ذلك لم يمنع فى ذلك العصر من ظهور جاليات إسلامية قوية فى دهلك وسواكن وباضع وزيلع وبربرة وكتاب العصور الوسطى فى القرن العاشر جميعهم يجمعون على ظهور هذه المدن الزاخرة بالحياة الإسلامية والتى أطلق عليها ممالك الطراز الإسلامى . والمسعودى وابن حوقل وغيرهم يتحدثون عن دهلك باعتبارها مركزا تجاريا هاما ، وعن علاقتها ببلاد اليمن.ويذكر ان دهلك كانت تدفع الإتاوة فى البداية لملك الحبشة ولم تقطع دهلك صلتها ببلاد اليمن ،ذلك لأن بلاد الحبشة استطاعت أن تتخلص من عزلتها ومتاعبها الداخلية واستأنفت نشاطها المألوف وعادت الى عالم الحياة السياسية والتجارية والاقتصادية وتوطدت صلاتها بالأسواق التجارية مع مصر وبلاد العرب، كا عادت وتوطدت علاقاتها باليمن بعد أن انقطعت فى غمرة الأحداث الماضية، وعقدت معاهدة صداقة مع إبراهيم بن زياد الذى كان فى نفس الوقت على صلات وعلاقة قوية مع ممالك الطرازالإسلامى والتى ارتبطت بمصر بعلاقات سياسية واقتصادية وثقافية ودينية قوية. وقد ساعد ذلك على ابحار السفن المصرية واليمنية إلى موانىء شرق أفريقيا واستطاعت الحبشة أن تعيد صلاتها بمصر فى جميع الأنشطة المختلفة، ولعل هذا يتفق مع ما شهده القرن الثالث الهجرى من اتفاق بين مصر والبيجة لمواصلة التجارة مع الحبشة.وقد وطدت أيضا صلتها الدينية بالكنيسة اليعقوبية فى مصر فأرسلت مصر بطريركا جديدا اسمه دانيال فى عام (٩٢٣-٩٣٤هـ).

ولقد كانت عودة العلاقات بين مصر والحبشة بداية لدور مصرى جديد أكثر نشاطا وأعمق تأثيراً ، وكان ذلك معناه اتساع أفق المبادلة التجارية بين الحبشة ومصر بالإضافة إلى قيام مصر بدورها تجاه الإمارات الإسلامية ذلك لأن زيلع (رواق الزيالعة بالأزهر ورواق الجبرت) كمركز من المراكز التجارية الهامة التى لها روابط قوية مع مصر ، وقد زادت هذه المدن سعة فى المال وزيادة فى أعداد الجاليات الإسلامية الوافدة من مصر والجزيرة العربية وجنوب شرق الجزيرة وزيادة وصول النازحين إليها من أهل البلاد

هذه ، مما ساعد على دخول الأهالى فى الإسلام ، كما أن دور مصر ساعد على ظهور الحياة الإسلامية بالصورة المألوفة والتى شهدتها هذه المدن الساحلية ، ولا بد أنها مضت تنمو النمو المطلوب طوال القرن الثانى عشر والثالث عشر ، ومهما يكن من أمر فقد شهدت الفترة الواقعة بين القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر توطيد النفوذ الإسلامى فى السهل الساحلى وظهور ونمو المدن الإسلامية التى انتشرت على طول الساحل الأفريقى كأنها العقد أو الطراز أو السوار الذى يحيط بالهضبة الأثيوبية والتى حاولت أكثر من مرة الاستيلاء على الهضبة المسيحية بالمساعدة العربية الإسلامية ومن بينها مصر ، بعد أن وطدت تلك المدن نفوذها منتهزة فرصة ضعف الأحباش وانصرافهم إلى مشاكلهم الداخلية ، ولم يكن من المعقول والطريق الشمالى الممتد من مصر والساحل الأفريقى تصل إليه الأعداد من الجزيرة العربية أن يظل النفوذ الإسلامى حبيسا داخل هذه المدن الساحلية ، بل كان لابد أن ينفذ إلى الداخل حيث الهضبة ، فما هى الوسيلة وما هو المدى الذى وصل إليه ذلك المد الإسلامى ؟

ويبدو أن الإسلام قد نفذ إلى الداخل فى وقت مبكر وربما فى القرن الثالث الهجرى حيث تطرق إلى شرق منطقة شوه حيث قامت سلطنة إسلامية عملت على توطيد العقيدة الإسلامية فى جنوب شرق الحبشة حيث وصلت أعداد مهاجرة عام (٢٨٣ هـ / ٧٩٦ م) وقد نفذ هؤلاء العرب إلى هذه الجهات منذ وقت مبكر لكن هذه السلطنة الإسلامية لم يكتب لها البقاء طويلا إذ حدث فى عام ١٢٧٧م أن استطاع أحد أمراء الحبشة ويدعى ولشع أمير إحدى هذه الإمارات المسيحية أن يسقط حكم بنى مخزوم عام ١٢٨٥م ، بل أن ذلك الفاتح استطاع أن يفرض سلطاته على الإمارات الإسلامية الناشئة . والتى كانت مصر وطريقها إلى الجنوب من العوامل المساعدة لتكوينها وأن يفرض سلطاته على الإمارات الأخرى كعدل ، موره ، هويت ، جدابة ، فى الوقت الذى انتهت فيه الأسرة الحبشية القديمة وخلفتها الأسرة السليمانية ، هذه الإمارات الجديدة التى قامت على أنقاض شوة هى إمارة (أوفات) ، لكن التيار الإسلامى كان قد بدأ يشتد عوده ويندفع بمساعدة القبائل العربية المهاجرة من مصر ومن جزيرة العرب حيث تسرب ذلك التيار إلى ممالك سدابة جنوب بلاد الحبشة،ومن مرتفعات،

شوة مما يشير إلى جهود بذلها سلاطين شوة لنشر الإسلام صوب الداخل حيث الهضبة ، وتحولت تلك المراكز الإسلامية التى انتشرت فى الداخل إلى الإمارات الإسلامية نامية مثل هدية ، قطجار ، أوقات ، دارة ، بالى ، وشرفا ، أرامبين ، وامتدت هذه الامارات إلى هرر وبلاد أروس جنوب البحيرات مطوقة الحبشة من الشرق والجنوب والشمال،وامتد الإسلام وتياره ليدخل الحبشة حيث الهضبة نفسها حيث أسلم كثيرون فى بلاد الحبشة فى مستهل القرن الثالث عشر ، وقد كشفت نقوش قبور عربية فى جنوب نجراى بتاريخ ٨ ذى القعدة عام ٣٩٦ هـ .، ويشير ترمنجهام فى كتابه الإسلام فى الحبشة إلى نشاط الآباء المسيحيين أنفسهم الذين كانت ترسلهم الكنيسة فقد كانوا متعاونين مع ولاة مصر وكانوا يسخرون أنفسهم لخدمة قضايا مصر فلم يكونوا معاونين للإسلام ولا للمسلمين فى الحبشة ، ففى عهد الدولة الفاطمية تدخل بدر الدين الجمالى وزير المنتصر وعين الأنبا ساويرس مطرانا على الحبشة فلما وصل إلى الحبشة بدأ ينفذ الاتفاقية التى عقدها مع بدر الدين الجمالى بحسن معاملة مسلمى الحبشة والسماح لهم بإنشاء المساجد وعدم معارضة إقامة شعائرهم الدينية والسماح لهم بالاحتفالات الدينية ، وهذا ما تكده رسالة الامبراطور (يحياصون بن بوكونا املاك) إلى السلطان قلاوون من قوله إنه قام بطرد المطران السريانى الذى من أنطاكية لأنه يطرد المسلمين ويعذبهم ، وذلك يؤكد الأقوال التى لعبها البطاركة المصريون فى مساعدة المسلمين والسماح لهم ببناء المساجد أو على الأقل عدم الوقوف ومعارضة النشاط الإسلامى ، وقد يكون ذلك مما امتاز به بطاركة مصر ورهبانها من روح التسامح والمحبة .

لكن هناك آراء نذكر أن التعليل الذى ذكره ترمنجهام فى كتابه الإسلام فى الحبشة ضعيف ولا يتفق مع المنطق فكيف ينقلب المطارنة إلى دعاة للإسلام أو يساعدوا فى نشر الإسلام إلا إذا كانوا قد أسلموا فعلا ، ولم يكن يعقل أن ترسل الكاتدرالية المسيحية ، رجلا لايكون واسع العلم وعميق الفهم للمسيحية هذا عن الجزء الشمالى الشرقى من القارة الأفريقية والذى كان دور مصر فيه واضحا كل الوضوح فى الصومال ومنطقة القرن الأفريقى ، أما الجزء الممتد من ساحل الصومال جنوبا حتى زنجبار فإن دور عرب الخليج وعرب الجزيرة كان فيه قويا وإن كان دور مصر ضئيلا فى تلك

النـواحى ، ولقـد كان انتشـار الإسـلام فى شرق أفريقيـا بـل بقـاء الإسـلام يتـوقف على نتيجـة هـذا الصراع الـدمـوى الـذى لم تهـدأ تـأثيراتـه بين هـذه الإمارات والهضبة الحبشية وعلى نصيب هـذه السلطنـات ودورهـا فى حمـايـة المسلمين فى الـداخـل ، ولم تتخلف سلطنـة أو إمارة من هـذه الإمـارات التى تحيط بالهضبة الحبشية إلا وقد اشتركت فى هذه الحرب الضروس فقد شـاركت فيهـا كل الإمـارات الـواقعـة شمال مقـديشيـو ، بعـد أن انتقـل الأحبـاش من التعـاون والمسـالمـة إلى العـدوان السـافر الصريح بعـد أن استطـاعت أن تسترد وحـدتهـا الـداخليـة فى ظـل الأسرة السليمـانيـة . وكان ظهـور هـذه الأسرة السليمانية مقترنـا بجهود ضخمـة لصبغ البلاد بـالصبغـة المسيحيـة الواضحـة والقيـام بجهد واضح لنشر المسيحيـة بين المسلمين والـوثنيين من أهـل البـلاد على السـواء وكان تخلص الدولة من متاعبها الداخلية بداية لتطلعهـا إلى هـذه الإمارات الشمالية التى تحيط بها من الشمال والشرق والجنوب .

ويعلل هـذا العـدوان الحبشى إلى دور هـذه الإمـارات التجـارى ونشـاطهـا الاقتصـادى مع مصر والقوى الإسلاميـة الكبرى فى ذلـك الـوقت ومـع بقيـة أنحاء الجزيرة العربية ، وذلـك حين وجـد الأحبـاش أن المسلمين استطـاعوا فى العصور السابقة أن يسيطروا سيطرة كاملة على الحركة التجارية بين موانىء البحر الأحمر وداخل البلاد بل وسيطروا على التجارة الخارجيـة كـذلـك مع مصر ، وأصبحت موارد البلاد وعلاقاتها بـالعـالم الخـارجى فى قبضـة المسلمين وقد ساعدهم على ذلك احتكار مصر والمصريين والمسلمين لتجارة البحر الأحمر وما خلفه ذلك من نتائج اقتصاديـة كان على البيت السليمـانى أن يعرض لهـا بالإصلاح ، كذلك فإن علاقات هذه السلطنـات مع مصر وظهورهـا فى سماء الحياة العالمية حيث زادت ثروتها وقوتها وتضاعف أنصارها تضـاعفـا مطردا فلم تشأ أن تبقى على سيـاسـة التعـاون القـديمـة مع امبراطور الحبشـة ، بل أرادت أن تتحدى مملكة الحبشة وأن يبادلها بالعدوان بعد أن توثقت علاقاتها أكثر بمصر باعتبارها أكبر قوة فى العـالم الإسلامى بعـد انتصـارهـا فى الحروب الصليبيـة وهزيمة المغول والتتار .

ولقـد كانت تلـك الإمـارات الإسـلاميـة فى شرق أفريقيـا الشمالى مسرحـا لحركة صليبية ضخمة لاتستمد أسبـابهـا من داخل الحبشـة نفسهـا إنمـا تستمـد أسبابها من قوى عالمية ذات أهداف مرسومة تدفع الحبشة دفعا نحو الالتحـام

بالمسلمين ومحاولة اخضاعهم والقضاء عليهم ، فقد كان الأحباش على اتصال بالحركة الصليبية الدائرة الرحى فى بلاد الشام ويعرفون خفاياها ويتنسمون أخبارها ، وكانت حركة الاتصال بين الاحباش فى بلادهم وبين القوى الصليبية المحتلة لبلاد الشام . ذلك الدير الذى أقامه الحجاج الأحباش فى بيت المقدس والذى أبقاه صلاح الدين الأيوبى ولم يعرض له بسوء وكان الأحباش يعينون رئيس هذا الدير وينفقون الأموال اللازمة على الرهبان .

ولذا فإن الأحباش ماكادوا يفيقون من متاعبهم الداخلية حتى كانت كل الإمارات الصليبية فى بلاد الشام قد انتهت بسقوط عكا آخر هذه المعاقل فى يد السلطان خليل بن قلاوون عام ١٢٩١ م . وقد كان هجوم البرتغاليين على مدن شرق أفريقيا تحدوهم هذه الروح الصليبية فضربوا مقديشيو بالقنابل ولم تستطع الدول الإسلامية المحيطة ببحر العرب أن تفلح فى القيام بجهد مشترك لقهر البرتغاليين . وقد أراد الأحباش أن تتصل هذه الجهود الصليبية لاسيما بعد أن استولى البرتغاليون على زيلع وبربرة ، وبدا لهم التطلع للسيطرة على الإمارات الشمالية ، ولذا نجد الملكة هيلانة ملكة الحبشة تنتهز فرصة تربص الاسطول البرتغالى بالمسلمين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، بعد أن فشلت جهود مصر وسلطانها الغورى فى مدافعة الخطر البرتغالى وهزيمة المصريين فى معركة ديو البحرية عام ١٥٠٤ م ، وأرادت أن تفاوض ملك البرتغال (عمانويل) فى عقد محالفة معه .

وإزاء هذا الصراع جاء دور مصر البطولى حيث لم تقف مكتوفة الأيدى أمام هذه الجهود الصليبية التى شارك فيها الأحباش والبرتغاليون وملوك النوبة المسيحيون ، فقد كانت مصر تشد ازر هذه القوى الإسلامية (ممالك الطراز الإسلامى) بوسائلها الخاصة وبالضغط على الكنيسة المصرية بالإسكندرية بأن يقوم المطران بالكتابة إلى الحبشة ، وتهديد تجارة البحر الأحمر ، بالإضافة إلى أن أمراء شرق أفريقيا كانوا يتجهون إلى مصر ويتطلعون إليها طلبا للمساعدة والعون والنجدة ، فقد سعى الفقيه أبو عبدالله الزيلعى لدى سلطان مصر حتى يكتب البطريرك رسالة إلى ملك الحبشة يطلب فيها أن يكف عن إيذاء المسلمين ، وقد استجاب السلطان لذلك وصدرت المراسيم السلطانية للبطريرك بأن يقوم بالكتابة إلى ملك الحبشة بذلك . وقد ذكر القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى أن البطريرك قام من توه بكتابة كتاب

بليغ شارحا إلى ملك الحبشة معنى الانكار لهذه الأفعال التى يقوم بها ملوك الحبشة ضد مسلمى الحبشة ، وذلك يثبت بالدليل القاطع للدور المصرى فى مساندة أخوة الإسلام فى شرق أفريقيا كما يثبت أيضا الدور المصرى فى تدعيم دور الكنيسة المصرية فى الحبشة ، ولذا كان التأثير المصرى واضحا وقويا فى تلك الديار .

ثم ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الأحداث فبعثوا فى المجاهدين المسلمين قوة بعد ضعف ، ومدوا يد المساعدة لأحمد بن إبراهيم القرين ، وحاولوا أن ينقذوا إخوانهم فقد بدأ الاتراك يتركوه فى موانئ مصر عبر البحر الأحمر ، وبدأوا يعملون فى البحر والخليج العربى والمحيط الهندى . وقام أحد الأتراك بالتقدم إلى موانىء شرق أفريقيا على ظهر سفينة واحدة ومعه بعض الأتراك واتصل بالمسلمين وأفهمهم أنه مبعوث الخليفة وأن الاسطول التركى على الأبواب ، وقد قوبل بحماس شديد فى كل مدينة نزل بها فى مقديشو وبراوه وغيرهما ، وشرع الناس إلى الدخول فى طاعة مراد الثانى ، ولكن هذه المحاولة العثمانية انتهت بالإخفاق وهزم الاتراك قرب ممباسا فى اتجاه الجنوب .

ولقد قامت الإمارات الإسلامية الشمالية بمساندة ومآزرة مصر بالجهاد والنضال من أجل نشر الإسلام ومدافعة الجهود الصليبية بعدة أدوار وهو دور أوفات ودور عدل ثم دور هرر أو مايمكن أن نطلق عليه الجهاد الأعظم .

وبدا دور أوفات منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وهى أوسع الممالك ومن أهم مدنها زيلع وهى ميناء على البحر بإزاء عدن وأغلب أهلها مسلمون وقد أوغل التوسع الإسلامى صوب المناطق الداخلية حتى بلغ الذروة وأوغل كثيرا صوب الغرب ، وكان ذلك سببا فى ظهور إمارة هدية حيث كان الإسلام لايزال فى الانتشار . وقامت هذه الإمارة بمحاولات كثيرة لمد نفوذ الإسلام إلى المناطق الواسعة إلى الغرب حتى نهر جبى وظهرت إمارة أخرى وعند الانحناءة الغربية لنهر حواش أو فى النهاية الجنوبية الشرقية فى هضبة شوه وغيرها من الإمارات إذا كانت سلطنة أوفات أقوى هذه الإمارات رقعة ، وتهيأت لتولى حركة الزعامة الإسلامية وذلك بعد أن استطاعت أوفات أقوى الإمارات وأعظمها رقعة وتهيأت لتولى حركة

الزعامة الإسلامية وذلك بعد أن استطاعت أوفات فى ظل حكم بنى ولشع المسلمين بعد أن ورثت ملك بنى مخزوم أن تسيطر بنفوذها على هذه الإمارات الصغرى ، بل استطاعت أن تسيطر بهذا النفوذ حتى ساحل البحر الأحمر فى منطقة زيلع بل اشتد نفوذها إلى سهل أوسا وخضع لها الأنصار بالطاعة والولاء وتحكمت فى رقعة فسيحة من الأرض متنوعة الموارد كما تحكمت فى كثير من الطرق التجارية الفنية .

ومن هنا فإنه يمكن القول أن القرن الثالث عشر قد شهد حلفا إسلاميا ضخما بزعامة أوفات وأمرائها من بنى ولشع ، وامتد نفوذ هذا الحلف على جزء كبير من جنوب شرق الحبشة وساحل البحر الأحمر وأوغل فى بلاد الصومال . ويذكر ترمنجهام فى كتابه تاريخ الإسلام فى الحبشة أن مساحة أرض هذا الحلف الإسلامى كانت أكبر من مساحة مملكة الحبشة المسيحية نفسها ، وكان ظهور هذا الحلف الإسلامى متفقا مع التطورات التى شهدتها بلاد الحبشة بظهور السليمانيين ووضوح الاتجاه الصليبى فكان لابد أن تبدأ المرحلة الأولى فى حركة الجهاد الإسلامى . وهنا يمكن القول بأن الدور المصرى كان لايزال مؤثرا فى تلك الفترة التاريخية حيث كانت الدولة المملوكية فى مصر مازالت قوية وكانت قوتها الأولى حيث كانت قد خرجت منتصرة فى حروبها ضد المغول والتتار والقضاء على بقايا الصليبيين فى الشام ، وكان كل ذلك يشد انتباه مسلمى تلك الانحاء إلى مركز الخلافة العباسية فى القاهرة حيث إن القاهرة لم تكن لتتأخر عن تلبية أى نداء يوجه إليها بطلب المساعدة والمساندة من اخوانها مسلمى الإمارات الإسلامية المحيطة بالحبشة حتى الشمال والشرق والجنوب والتى كانت تحاول فى جهادها صعود الهضبة ونشر الإسلام .

وقد يكون من أسباب الصراع المباشر أن سلاطين أوفات عندما أحسوا بقوتهم وقدرتهم على مواجهة الحبشة فإنهم أعلنوا استقلالهم وطردوا التبعية الاسمية لملك الحبشة والهدايا التى كانت ترسل له سنويا ، وكان رائد ذلك التحدى هو وصول الفقهاء إلى كرسى الحكم عن أى طريق أو بأى ثمن . ونذكر على سبيل المثال ما قام به الشيخ محمد أبو عبد الله عام ٦٩٨ هـ / ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، . فقد ادعى هذه الفقيه أنه تلقى أمراً من الله بالجهاد واجتمع حوله أتباعه وساعدوه على تأدية رسالته فى الجهاد إلا أنه فى النهاية

تم الصلح بينه وبين النجاشى حيث أوقف الأخير زحفه عليه وأقطعه بعض الأراضى (رواية ترمينجهام الإسلام فى الحبشة) إلا أن ذلك العمل كان من وجهة نظر ملوك الحبشة بداية التحرش الإسلامى الذى لايمكن أن يقبلوه ، وكانوا فى قرارة أنفسهم يخشون أن تؤدى هذه الجهود الإسلامية المتحدة إلى عرقلة المشروعات الصليبية التى كانوا قد أوشكوا أن ينغمسوا فيها ، ودخلت عدة عناصر فى ميدان الصراع بين الزعماء المحليين من المسلمين ، وحدثت فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) بعض المعاكسات للأقليات فى مصر فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وترامت أخبارها إلى النجاشى الذى هدد بتحويل مياه النيل الأزرق ، وتدخل عنصر المنافسة حول السيطرة الاقتصادية التى كانت فى يد السلاطين المسلمين فى الحبشة فخلفت حروباً كثيرة بين المسلمين والنجاشى وامتدت إلى فترات طويلة فى منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) . وكان لهذه الحروب أثرها فى الحالة الاقتصادية وطرد السكان إلى مناطق أكثر أمنا ، وأثرت هذه الحالة بدورها على البيت الفونجى وخروجه من جنوب غرب أريتريا إلى حوض النيل الأزرق حيث اتخذ من بلده سنار عاصمة لملكه بدلا من لاسول عاصمة أريتريا .

وعلى الرغم من أن هذا الحلف الإسلامى كان على اتصال دائم بشعب الاجو الثائر على سلطان الأحباش،وكذلك بإخوانهم مسلمى مصر عن طريق التجارة واستيراد السلاح من سوق مصر ، إلا أن موقفهم كان أضعف من موقف الأحباش ، فقد كان الأحباش باستطاعتهم أن ينسحبوا إلى مناطق داخلية على حين كانت ديار المسلمين فسيحة .

وهنا يبرز الدور المصرى بصورة أكثر فعالية وأكثر قدرة على وضع الأمور فى نصابها ، فقد كثف الهجوم المسيحى لبعض الوقت على تلك الإمارات حيث كان من الممكن أن تكون الحروب هى النهاية القاضية على تلك الإمارات لولا تدخل الظاهر بيبرس البندقدارى الذى هدد بقطع كل العلاقات مع الحبشة وعدم الموافقة على تعيين المطران الذى طلبه الأحباش ، ويبدو من سياق الحديث السابق أن دور مصر والكنيسة فى الحبشة كان له تأثير ، وأن الظاهر بيبرس لم يرسل مطرانا إلى الحبشة كما طلب منه ذلك ، ومن ثم أثمر ذلك التدخل المصرى وأجبر الحبشة على عقد هدنة مع إمارة

أوقات وأعادوا بلادهم للتجار المسلمين لتستمر الصلة مع مصر فى الشمال ، وعين لهم السلطان المملوكى فيما بعد مطرانهم الجديد واستعادوا مراكزهم فى البلاد المقدسة بالشام .

وكما سبق ذكره فإن الشيخ المجاهد محمد أبو عبدالله (٦٩٨ هـ / ١٣٩٩ م) كان يقود المسلمين ، وقد انتهز فرصة وفاة ملك الحبشة وقام بمهاجمة أطراف الحبشة يؤيده بعض المجاهدين ، ولم يتخل عنه أصحابه كما ذكر ذلك ترمنجهام بل أن الحبشة فى تلك الغزوة التى لم تعمد إلى المقاومة ، وكان ذلك بسبب بعض المتاعب الداخلية مما جعلها أميل إلى الهدنة ، ولم يكن سلاطين أوقات ليقتنعوا بالهدنة وقد اتخذوا الجهاد عقيدة لهم ودينا ، فقاموا بغزو أطراف الحبشة وحملوا بعض الأحباش على اعتناق الإسلام ، وقبض على أحد سفراء الأحباش المنحدر فى طريقه إلى خارج البلاد ، فقام ملك الحبشة بغزو أوقات عام ١٣٢٨ م ودخلت أوقات وقطجار فى طاعة النجاشى .

إلا أن ذلك لم يفت فى عضد حركة الجهاد الإسلامى الواقعة فقد عادت الإمارات الإسلامية لتتحالف من جديد ، وتحالفوا مع قبائل الأجوا المعارضين للأحباش ، غير أن الخطة الإسلامية تسربت إلى الأحباش مما جعل الأحباش يسيطرون على كل هذه الإمارات .

لكن فى غمرة هذه الأحداث الدموية وانكسار حركة الجهاد الإسلامى فى تلك الإمارات يظهر الدور المصرى فجأة لكى يتخذ موقفا بنجدة أخوة الإسلام فى تلك الإمارات ، حيث استنجد أهالى أوقات بالسلاطين المماليك فى مصر ، وأرسلوا إلى القاهرة وفدا برياسة أبوعبدالله الزيلعى « لكى يطلب من سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون أن يتدخل لدى الأحباش ليخففوا الوطأة عليهم فكان أن لبت مصر طلبه ، وتدخل لدى الأحباش حيث أوقف الزحف الحبشى على هذه الولايات ورغم صدق إيمان هذه الولايات الإسلامية ضد الحركة الصليبية الحبشية ، إلا أنها لم تكن قادرة على مواجهة الأحباش الذين اتحدت كلمتهم ووحدت صفوفهم حركة دينية فخضعت هذه الإمارات كلها خضوعا مطلقا لنفوذ الحبشة . ولقد كان ذلك الانتصار الساحق على الإمارات الإسلامية من مدعاة الغرور لملك الحبشة الملك (سيف أرعد) حيث أدعى إنه حامى حمى كنيسة الإسكندرية وأرسل إلى مصر رسالة ينذر فيها بالكف عن اتخاذ مواقف ضد الأقليات (لم تكن هناك أية اضطهادات

للأقليـات) وقبض على بعض التجار المصريين الـذين كانوا فى بـلاده وكانـوا يساهمون فى حركة الانتعاش الاقتصادى بين مصر والحبشة وقتل بعضا منهم وسجن البعض الآخر فى بـلاده ، ممـا أدى إلى تـأثر الحركـة التجـاريـة والاقتصادية بين مصر والحبشة لبعض الوقت من جراء هذه الرسالة وتلك التهديدات للتجار المصريين فى بلاد الحبشة .

ولقـد كان احتلال زيلـع من جـانب الأحبـاش عـام ٨١٧ هـ / ١٣١٥ م فى عهد النجاشى اسحاق بمثابة إسدال الستـار النهائى على الـدور الـذى لعبتـه مملكة أوقات حيث احتلها الأحباش احتلالا نهائيـا ولم يعد يسمع بهـا أحد وانتهى دور أوقـات فى الجهـاد ، لكن إذا كان الربع الأول من القرن السـادس عشر الميلادى قد شهـد سقـوط مصر تحت سيطرة الأتراك العثمـانيين عـام (١٥١٧ م) ، إلا أن تلك الفترة كانت فترة ظهور قوة إسلاميـة من إمـارات الطراز الإسـلامى هى سلطنـة عـدل فى الفترة (١٥١٧ - ١٥٢٠) حيث بـدأت حدودها الغربية تمتد إلى حافة الهضبة الحبشية على حين يمتد نفوذها جنوبا حتى رأس (جودفرى) وسميت هذه البلاد باسم برسعيد تخليدا لاسم المجـاهـد الإسلامى أسعد الدين الثانى الذى مـات بزيلع ودفن بهـا ، واستـأنف سلاطين عدل حركـة الجهاد هـذه سـاعـدهم ظهور قوة الأتراك العثمـانيين على مسرح الأحـداث السيـاسيـة الإسلاميـة ، لـذا قـامـوا بـالهجـوم على أطراف الهضبـة الحبشيـة حتى أعوام ٨٢٥هـ / ١٦٢٢ م لكن الأحبـاش استطـاعوا التغلب على كل الحركات الإسلامية وخرجوا من الصراع ظافرين حيث استطاعوا فى عهد الامبراطوار (زرع يعقوب) ١٤٣٤ - ١٤٦٨ م . أن يكونوا امبراطورية عظيمـة امتدت شمالا من مصوع وسهول السودان وسيطرت على القبـائل البـدويـة فى التجراى والبيجـة فى منطقـة السـاحـل وفى وادى بركـة وضعت أوقـات وقطجار ، ودموا وبـالى وسيطرت على ممـالـك هـديـة وبعض ممـالـك سـدامـة واحتفـظ المسلمـون بـدينهم وكانـوا لايـزالـون ينتشرون فى شـوه وفى تجراى الشرقية ، ويبدو أن السلطان انتقل إلى طائفـة من رجـال الـدين علا شـأنهم وارتفعت كلمتهم فى الحقبـة الأخيرة من تـاريخ عـدل ، فقـد ظهرت طـائفـة جديـدة من الأمراء المسلمين متخـذة لقب أمـام متفرغـة للجهـاد والحرب ممـا يـدل على أنهـا كانت حركـة دينيـة عميقـة الجـذور ، وكان هـؤلاء الأمراء الدينيون أكثر ملاءمة لظروف العصر وأقدر على إلهاب مشاعر الجـماهير حيث

كان هؤلاء الأئمة يمثلون الحركة الإسلامية تسلل هؤلاء الأئمة إلى المدن العدلية وانتشروا بها ووثبوا إليها واستطاعوا حكمها وكونوا إمارات محلية فى أرض السلطنة الممتدة بين هرر وساحل البحر ، وكان أول هؤلاء الرعاة هو الداعى عثمان حاكم زيلع الذى أعلن الجهاد بعد وفاة (محمد بن بدلاى) مباشرة عام ١٤٧١ م . ثم ظهر فى هرر أحد هؤلاء الأئمة والذى اشتبك مع الأحباش منتهزا فرصة ضعف الأحباش حيث جاء إليه بعض المجاهدين من مصر وبلاد العرب وأمدوه براية خضراء وأعانوه بالسلاح والرجال ، غير أن الأسطول البرتغالى ظهر فجأة فى مياه زيلع وأغار عليها فى غياب المجاهد ورجاله .

وكان أعظم هؤلاء الأئمة وأبقاهم أثرا الإمام الغازى أحمد بن إبراهيم صاحب الفتح العظيم والذى يمثل دوره أعظم الأدوار فى الحركة الإسلامية بعد أربعة قرون من التطور واتصال هذه الإمارات الإسلامية بالأقطار الإسلامية الأخرى لاسيما مصر ودورها الفعال وبلاد الجزيرة العربية والاتصال بالأتراك العثمانيين فى مصر ، حيث شهد القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) وصول قبائل البدو واشتراكهم فى حركة الجهاد الإسلامى فقد كانت هذه القبائل قوية شديدة المراس ، تريد أن تندفع نحو الغرب حيث الأراضى الخصبة فى الهضبة . وقد جاء إسلامهم معاصراً لحركة الجهاد والفتح التى استهلها المجاهد أحمد بن إبراهيم ، وكان هذا المجاهد لما توطد سلطانه وكثر أتباعه قد امتنع عن دفع الجزية التى كان يدفعها سلاطين عدل للحبشة وانحدر الأحباش من الهضبة إلى السهول عام ١٥٢٧ م لمقاتلة المسلمين وهم يعتقدون أنهم سيهزمونهم ويغرقونهم كما هزموا وفرقوا المسلمين من قبل ، لكن الأحباش هزموا هذه المرة ، وكانت أول مرة تنتصر فيها حركة الجهاد الإسلامى منذ بداية الجهاد ، وبدأ أحمد إبراهيم يتجاوز النطاق التقليدى القديم فلا يكتفى بالإغارة الخاطفة على الحدود ثم العودة إنما أراد هذه المرة أن ينفذ إلى قلب الهضبة نفسها ويضع حداً لملك الأحباش ، وتقدم أحمد بن إبراهيم إلى وسط الحبشة ، وفى عام ١٥٢٩ م أحرز نصراً حاسما على الأحباش فى معركة (شنبركورى) ثم بدأ فى غزو الحبشة نهائيا وأصبحت حركة الجهاد سلسلة من الانتصارات المتلاحقة حيث إنه فى عام ١٥٣١ م دخل دوارد ، وشعره ، وأمحره ولاسنا ، وفى عام ١٥٣٣ م استعاد

الإمارات القديمة بالى وهدية وسدامة وبات هذا الفتح الإسلامى سدا ومدداً لايمكن مقاومته . وفى عام ١٥٣٥ م سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها وغزا الإمام إماره تجراى للمرة الأولى ، وتقدمت قواته فى كل اتجاه فى الساحل وفى السهول وفى الحبشة ، وبينما حركة الجهاد الإسلامى تمضى فى طريقها المرسوم بمساندة بعض الدول الإسلامية ومن بينها مصر التى أصبحت ولاية عثمانية بالطبع ، شهد الخطر الصليبى مندفعا من الجنوب بقيادة البرتغاليين حيث دخلوا زيلع عام ١٥١٧ م وكان ظهور القوة الإسلامية العثمانية التى ضمت بلاد الشام ومصر وسيطروا على البحر الأحمر فى ذلك الوقت إنقاذاً للعالم الإسلامى ولتلك الحركة المجاهدة ، فقد كان الأحباش يطمعون بالاتفاق مع تلك القوى البرتغالية الجديدة فى ضرب مصر عن طريق السويس ومهاجمة البلاد المقدسة وتحقيق الحلم الصليبى العظيم نظراً لما كانت تمارسه مصر من نفوذ وقوة ومساندة ومساعدة للإمارات الإسلامية من تأثير فعال فى تلك الإمارات التى تمارس حركة الجهاد الإسلامي ضد الحبشة .

ولقد أدرك العثمانيون هذا الخطر الصليبى ، وشاهدوا السفارات البرتغالية التى توافدت على بلاد الحبشة ، فما كان منهم إلا أن احتلوا سواكن وزيلع وبربرة واتصلوا بالمسلمين فى مصوع ، وكانت تلك القوات العثمانية قد قدمت من مصر ، بأموال وزاد وأسلحة الشعب المصرى ، وكان المسلمون فى زيلع يلقون المساعدة من إخوانهم المسلمين أعداء البرتغاليين .

وكان ظهور القوة العثمانية الإسلامية التى كان مركز تحركها الأساسى بالطبع من القاهرة قد روع الأحباش مما دفعهم إلى الاستنجاد بالبرتغاليين ، فأرسل الملك (جوان برامودیس) عام ١٥٣٥ م رسالة إلى ملك البرتغال يطلب منه العون ، فأرسل إليه ملك البرتغال نجدة قوامها أربعمائة جندى وضابط من حملة البنادق وكمية من السلاح الحديث وصلت إلى الحبشة عام ١٥٤١ م والتقى المجاهد أحمد بن إبراهيم القرين بالبرتغاليين فى معركة عام ١٥٤٢ م جرح فيها وفى تلك الاثناء استنجد بالباشا التركى فى اليمن والوالى التركى فى القاهرة فأرسل إليه وإلى اليمن تسعمائة جندى من حملة البنادق وعشرة مدافع ، وعاود أحمد القرين الهجوم والتقى بالبرتغاليين وانتصر عليهم وهزم قواتهم وقضى على أغلبها مما دفعه إلى الاعتقاد بأن الأمر قد

استتب له فأعاد القوات التركية إلى اليمن بعد أن أدركت قواته بحيرة تانا فى قلب الحبشة . ولقد وقع المجاهد العظيم فى أكبر خطأ تاريخى وقيادى بإعادته القوات التركية التى ساندته فى تلك الغزوات حيث إنه عندما تقدم نحو بحيرة تانا فإنه اشتبك مع النجاشى (أقلاديوس) وحلفائه من البرتغاليين الذين استطاعوا أن يهزموه قرب بحيرة تانا ومات المجاهد العظيم وتفرقت جموعه ونجت الحبشة من كارثة محققة حيث كانت تلك المعركة هى الأخيرة فى فصل الصراع بين السهل والهضبة أو بين المسلمين والمسيحيين فى الحبشة وانتصار الأحباش ضمن لهم البقاء .

وهكذا يتبين لنا الدور السياسى الذى لعبته مصر على مسرح الأحداث السياسية فى الحبشة سواء فى مساندة حركة الجهاد الإسلامى فى الإمارات الإسلامية ، وذلك وقوفا بجانب الأخوة الإسلامية والحق الإسلامى وسواء فى مداومة موافقة السلطان فى مصر بإرسال البطريرك لمطران الكرازة المرقسية إلى الحبشة لكى تمارس الكنيسة المصرية دورها والتى كانت بمثابة الأم بالنسبة للكنيسة الحبشية.وهكذا يتضح لنا الدور البارز والفعال الذى لعبته مصر فى شرق أفريقيا وبصفة خاصة فى الجزء الشمالى الممتد من حدود مصر الجنوبية حتى الصومال والقرن الأفريقى . والملاحظ من هذا العرض أن دور مصر فى شرق أفريقيا والحبشة ظل منذ الفتح الإسلامى لمصر حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادى (١٥١٧ م) يغلب عليه جو الود والتفاهم ، ولم تنقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنيسة الحبشة فقد ظلت متواترة فى عهد الولاة وعهد الطولونيين والأخشديين والفاطميين بل لم يغير قيام الدولة الأيوبية من طبيعة هذه الصلات ، ولا ننكر أن هذه العلاقات قد ساءت فى بعض المناسبات حين كان بعض أمراء مصر وحكامها يتخذون مواقف ضد الأقليات ، إلا أنه غالبا ما كان يصفو الجو وتهدأ الأحوال وتعود العلاقات إلى مسيرتها الطبيعية ، لكن هذه العلاقات ابتداء من القرن الثالث عشر فصاعدا تدخل فى طور جديد هو طابع القوة والعنف فيخرج الأحباش عن تسامحهم القديم ويغير المماليك فى مصر هذا التسامح التقليدى الذى عرفت به الحكومات الإسلامية المتعاقبة .

فقد شهد القرن الثالث عشر ذلك الصراع الرهيب بين الإسلام والمسيحيين والتى كانت المسيحية منها براء ، إذ رفعوا الصليب فى صورة احتلال

وسيطرة على العالم الإسلامى لاسيما بلاد الشام . وكان لابد أن يستجيب الأحباش للقيام بدور ويستجيب المماليك لما تمليه هذه الأحداث فيدخل الأحباش هذه المعركة الصليبية ضد المسلمين فى شرق أفريقيا ، كما يهب المسلمون فى شرق أفريقيا للدفاع عن أنفسهم متعاونين مع القوى الإسلامية المناضلة فى مصر وبلاد الشام . ودخل الأحباش المعركة فى شرق أفريقيا فى القرن الثالث عشر فى عهد الأسرة السليمانية ، وبدأ النضال العنيف بين ملوك الحبشة وبين هذه الإمارات الإسلامية التى عرضنا لها سابقا ومارست مصر دورها فى هذه المنطقة . ولقد كان المماليك فى مصر سلبيين كعادتهم فى علاقاتهم بالمسلمين فى شرق أفريقيا ، فقد تركوا إخوانهم فى الدين يدخلون معركة الجهاد اعتمادا على مواردهم المحدودة دون أن يتدخلوا تدخلا إيجابيا لنصرتهم عن طريق السلاح أو القوات أو إرسال من يدربهم على القتال الحديث فى ذلك الوقت أو إمدادهم بالعون المطلوب وتركوا الجبهة الإسلامية فى شرق أفريقيا تتصدع أمام التقدم الحبشى واكتفوا بإرسال التهديد المكتوب أو الشفوى عن طريق كتابات البطاركة أو القيام ببعض الأعمال ضد الأقليات .

بالإضافة إلى أن العثمانيين أنفسهم الذين سيطروا على مصر وتزعموا حركة الجهاد الإسلامى منذ القرن السادس عشر فصاعدا لم يدركوا خطورة هذا الصراع الدائر فى شرق أفريقيا ، ولم يتجاوز نفوذهم ساحل البحر الأحمر رغم ما توافر لهم من إمكانيات ورغم أساطيلهم التى وصلت إلى سواكن ومصوع وزيلع وعدن ، فإنهم لم يؤيدوا القوى الإسلامية التى تصارع الأحباش ، ولم يقوموا بالواجب الإسلامى تجاه إخوانهم فى سلطنات الطراز الإسلامى المحيط بالهضبة الحبشية من كل الجهات .

وخرجت الحبشة من كل هذا الصراع وبمساعدة القوى البرتغالية ظافرة منتصرة بعد أن استطاعت أن تخضع القوى الإسلامية لسلطانها ، وقل الاهتمام المصرى الرسمى بشرق أفريقيا والحبشة أو انقطع بسبب الأحداث التى تعرضت لها مصر منذ القرن السادس عشر فصاعدا ، فقد سقطت دولة المماليك عام ١٥١٧ م وخضعت مصر للنفوذ العثمانى،وأصبح مصير السياسة المصرية يتقرر فى اسطنبول . وظلت طوال القرنين السابع عشر والثامن

عشر ترزح تحت السيادة العثمانية ، ثم بدأت مصر تظهر كقوة شبه منفصلة عن تركيا فى القرن التاسع عشر ، ثم بدأت تمارس دورها فى شرق أفريقيا بعد أن دخلت قواتها السودان ، وبدأ محمد على والى مصر يفكر فى غزو الحبشة . ويحق لنا فى تلك الدراسة أن نقف عند ذلك الحد التاريخى وتلك المرحلة دون الدخول فى تاريخ مصر الحديث .

الفصل الثانى

دور مصر الاقتصادى فى شرق أفريقيا والحبشة

مارست مصر دورها الرائد والقوى والمؤثر والفعال فى منطقة شرق القارة الأفريقية والحبشة فى العصور الوسطى ، وبصفة خاصة فى العصر المملوكى ، حيث كان الدور السياسى المصرى كما سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق له أبلغ الأثر فى تلك المنطقة الممتدة من جنوب الحدود المصرية حتى القرن الأفريقى والصومال ، وبالذات الدور المصرى فى بلاد الحبشة المسيحية وفى إمارات الطراز الإسلامى ، إلا أن الدور الاقتصادى فى تلك المنطقة لم يكن ليقل أثره عن الدور السياسى إن لم يكن أكثر فعالية وبروزاً لاسيما أن مصر فى تلك الحقبة التاريخية وهى فترة الحكم المملوكى فى مصر كانت مركزا لحركة التجارة العالمية ، وكانت صلاتها بمنطقة شرق أفريقيا أوثق الروابط والصلات السياسية حيث كان البحر الأحمر طريق التجارة المصرية إلى الهند ومن هنا كانت سواحل شرق أفريقيا وموانيها تلعب دورا هاما فى اثراء الحركة الاقتصادية التى كانت مصر قلبها بل صرتها بالنسبة للحركة الاقتصادية بل هى مركز المنتجات العالمية التى تصب فى القاهرة كل المنتجات العالمية سواء من الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب . ومن هنا سوف نعرض للدور الاقتصادى الذى لعبته مصر فى شرق القارة الأفريقية كما سبق أن عرضنا لدور مصر فى منطقة غرب القارة الأفريقية ، وإن كان الأمر هنا مغايراً كل التغاير للموقف والدور الاقتصادى المصرى فى سابقه حيث سهولة الحركة والانتقال والاتصال عبر البحر الأحمر والمسالك المتفرعة من موانىء ذلك البحر إلى الأراضى المصرية .

ذلك لأنه من المعلوم أن العلاقات الاقتصادية بين مصر وبلاد شرق القارة الأفريقية تعود إلى عصور قديمة بل ساحقة فى القدم ، وذلك منذ عصر الأسرات فى مصر القديمة . وقد ظهرت بصورة أكثر فاعلية وتأثيرا فى عصر الدولة الحديثة حيث رحلات المصريين إلى بلاد بونت الصومال وما سجلته حملة الملكة حتشبسوت إحدى ملوك الدولة الحديثة على معبدها فى الدير البحرى بالأقصر عن الاتصالات الاقتصادية مع تلك البلاد . بل كان من الطبيعى عندما فتح العرب مصر وأضحت مصر بلدا إسلاميا عربيا ، إذ أن الإسلام قوّى الصلات التجارية والاقتصادية القديمة بين مصر وبلاد ساحل شرق أفريقيا وذلك عبر الساحل الشرقى للقارة الموازى للبحر الأحمر فى شاطئه الغربى ، إضافة إلى ما لعبه البحر الأحمر من دور فى فترات تاريخية متأخرة وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح حيث كان الدور المصرى الاقتصادى هو محور الأدواربل هو أساس الحركة الاقتصادية العالمية . ولقد كانت المنطقة الواسعة من حدود مصر جنوبا حتى موزمبيق وبلاد الحبشة مسرحا للنشاط الاقتصادى المصرى حيث كانت هذه الأنحاء بسواحلها الواسعة وما يصل إليها من منتجات الداخل مقصدا لكثير من

التجار المصريين الذين يحملون إليها المتاجر المصرية بكل أنواعها ويجلبون من تلك البقاع كل ماتحتاجه السوق المصرية فى ذلك الوقت من ذهب وجلود وعطور وسن الفيل وريش النعام . وكان أكثر التجار المصريين الذين يلجأون إلى الأسواق الحبشية من مدينة تفاده بقنا ونطف تجارة باللهجة الصعيدية فقد عرف هؤلاء التجار فى تلك الأنحاء بالتجارة والتجارة وسرعان ما أصبحت هذه الكلمة لقبا لكل التجار سواء كانوا من المصريين أو غيرهم ، وأصبح معناها فى اللغة الأمهرية لغة أهل الحبشة وتعنى تاجرا .

ولقد كان دور مصر الاقتصادى يتم عن طريق اتصالها ببلاد شرق القارة والتى منها إلى الهند والصين عن طريق القاهرة ، القلزم ، السويس والطور ومنها إلى البحر الأحمر . والطريق الآخر طريق بولاق بالنيل جنوبا إلى قوص ومنها شرقا إلى عيذاب على البحر الأحمر . وهذا الطريق قد بطل استعماله منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا لطوله وكثرة تكاليفه وصعوبة التفاهم مع أهل الصعيد أحيانا وإن كانت موانيه مفتوحة طول العام وأقل خطورة من الطريق الأول، وقد فضل التجار عنه طريق

القاهرة القلزم . ومنذ القرن الخامس عشر فإن الطريق الذى يؤدى إلى موانىء شرق أفريقيا عبر البحر الأحمر سواء بالطريق الأول أو الثانى تعتبر الطريق الرئيسى للتجارة العالمية ، وزادت أهميته بعد أن اهتمت به السلطات المملوكية وبموانيه المختلفة . وكانت قوص قد حلت محل القلزم منذ القرن الثانى عشر الميلادى وتصلها بعض التجارة الصغيرة من ميناء زيلع وسواكن وعيذاب وباضع وبربرة وغيرها من بلاد الشرق الإسلامى مثل التوابل والعطور والعقاقير والأحجار الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء إلى القاهرة ثم بالنيل إلى الإسكندرية .

والواقع أن كثيرا من التجار كانوا يطرقون هذا الميناء متجنبين موانىء الساحل الغربى للبحر الأحمر بسبب ما به من شعب مرجانية وصخور تتحطم عليها السفن ، لذلك لم يكن الميناء جديدا (ميناء الطور) يوم تقرر جعله ميناء مصر التجارى على البحر الأحمر بل صار بمرور الزمن ميناء التجار المفضل . وإذا كانت القلزم والسويس والطور هى مدخل البحر الأحمر طرفه الشمالى ، فإن عدن مدخله الجنوبى بالإضافة إلى ميناء عيذاب وسواكن وزيلع وباضع وبربرة ومقديشو وغيرها من موانىء الساحل الشرقى الأفريقى والتى لعبت دورا كبيرا فى صلة الربط بين السويس وعدن ، بل أن السلطات المصرية جعلت البحر الأحمر بشواطئه الشرقية وما يقع عليه فى موانىء شرق أفريقيا بحيرة مصرية ، وظلت ميناء عدن الحد الجنوبى التى لاتتعداها قوافل تجار الهند والصين إلى البحر الأحمر ، وذلك يؤكد سيطرة مصر سيطرة كاملة على موانىء شرق أفريقيا وخضوعها للإدارة المصرية .

ومنذ ازدهار طريق البحر الأحمر التجارى فى القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام ١٤٥٣ م وسياسة الدولة المملوكية قائمة على إحكام السيطرة على ذلك الطريق بجميع موانيه ، وقد كانت موانىء مصوع وسواكن تختص بنقل تجارة الحبشة والنوبه وتصلها بحرا سفن الحبشة وبرا قوافل النوبة محملة بمنتجات إقليمها وتصل تجارتها لمصر بطريق البحر الأحمر لسهولته . وقد ورد ذكر سواكن فى فترة الصراع بين ميناءى عدن وجده فقد كان سوء معاملة آل رسول حكام اليمن سببا فى أن تتوجه سفن التجارة إلى جده لتجد معاملة سيئة أخرى فتوجهت السفن إلى ميناء سواكن وجزر دهلك .

غير أن المعاملة التى لقيها التجار هنا لم تكن خيرا مما لاقوه فى عدن وجدة فتوجهت السفن إلى ميناء ينبع .

وتمر سفن التجارة الداخلية للبحر الأحمر كذلك بمينائى فى بربرة وزيلع وكلاهما مركز تجمع تجارة الحبشة والنوبة ، بالإضافة إلى أن السفن القادمة من الجنوب حيث الصين والهند وغيرهما من بلاد ساحل شرق أفريقيا الجنوبى ترسو أحيانا بها ، وقد كانت زيلع تعقد بها أسواق لتجارة المعادن واللؤلؤ واستولى عليها البرتغاليون ودمروها عام ١٥١٨ م .

ويتردد على ميناء بربرة القريب من زيلع فى موسم التجارة مالا يقل عن عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف شخص ومعظمهم يتاجرون فى سلع الهند والصين والحبشة والنوبة من عاج وتوابل ومنسوجات وشمع وغيرها من المواد التجارية ، وهذه الموانىء كمصوع وسواكن وزيلع وبربرة كان ارتباطها بمصر لدورها الاقتصادى أكثر من ارتباطها بأى مكان فى ذلك العصر ، ومن ثم فقد شهدت مصر نشاطا تجاريا كبيرا خلال العصر المملوكى مع بلدان شرق أفريقيا جميعها ، إضافة إلى كل بلاد الشرق . وقد عرف بعض التجار باسم الكارميه والذين كانوا يمارسون دورهم التجارى بين مصر وشواطىء القارة حيث كانوا يجلبون إلى دولة المماليك التوابل والبهار والبخور وكل منتجات الشرق التى كان يتهافت عليها الأوروبيون فى أسواق القاهرة والإسكندرية وامتد نشاطهم إلى الهند والصين ، كما اتخذ عدد كبير منهم مدينة قوص مركزا لنشاطهم التجارى الواسع ، وغدت المدينة سوقا واسعة لتجارة أفريقيا الوسطى والحبشة وشرق أفريقيا والنوبة والهند والصين ، أما ميناء قوص المصرى فاتجهت منه القوافل شرقا فى الصحراء إلى ميناء القصير وميناء عيذاب ، وتصلها بحراً سفن التجارة حتى الحبشة والنوبة واليمن وبلاد العرب والهند وزنجبار وأسواقها واسعة وتجارتها فى مصر واليمن والهند والحبشة والمغرب وعدن والسودان ، وهى على مسيرة ثلاثة أيام بالقوافل .

أما عيذاب على البحر الأحمر فظلت فترة طويلة من العصور الوسطى مركزا لتجمع الحجاج وتجار الشرق وسلع الحبشة والنوبة واليمن التى تصلها بحرا ، وكان عليها وال من البيجة وآخر من قبل صاحب مصر ويقتسمان الرسوم الجمركية ، وظلت عيذاب عامرة بما يصدر إليها حتى القرن الرابع

عشر حين كثرت بها عصابات قطاع الطرق فقلت قيمتها وشهرتها وإن ظلت حتى عهد ابن إياس ميناء بحريا عاديا ، ومنذ القرن الخامس عشر انتعشت موانىء شرق أفريقيا وهجرت عيذاب لتندثر فى القرن العاشر الهجرى ويتلاشى طريقها التجارى ويتحول منها التجار والحجاج .

ومنذ نجاح البرتغاليين فى الوصول للهند بحراً بطريق رأس الرجاء الصالح وطريق البحر الأحمر يفقد مركزه تدريجيا ، كما بدأت تنهار الموانىء الواقعة عليه من مدخله الجنوبى إلى طرفه الشمالى فى السويس والطور ، وكذلك كل موانىء الساحل الغربى للبحر الأحمر (زيلع وبربرة ومصوع وسواكن وعيذاب وباضع) وقد فهم البرتغاليون أن استقرارهم فى الهند وازدهار تجارتهم لن يتم إلا بالقضاء على تجارة مصر العالمية وتجارة العرب وصدرت منذ عام ١٥٠٢ م تعليمات للقائد البرتغالى (دى جاما) بسد المدخل الجنوبى للبحر الأحمر عند عدن مما عرض السفن المصرية والعربية الإسلامية فى هذه المنطقة لهجمات الأسطول البرتغالى بكثرة . وفى عام ١٥٠٦ م استولى البرتغاليين على سقطرى ، فتحكموا بذلك فى طريق البحر الأحمر وكل منطقة شرق أفريقيا التى كانت مصر تمارس معها دورا اقتصاديا لايقل أهمية عن أى الأدوار التى تقوم بها مع كل من الهند والصين وغيرهما من بلاد العالم المختلفة .

وقد قرر البرتغاليون السيطرة الكاملة على كل مراكز البهار وطرقها من ملقا فى الطريق الجنوبى الشرقى ، وبدأت السفن البرتغالية فعلا تدخل البحر الأحمر منذ عام ١٥١١ م ، وتحكمت فى مضيق هرمز وعدن عند مدخل البحر الأحمر . وكان معنى هذا سد كل منافذ التجارة على السفن المملوكية . وبدأت هذه المراكز تفقد أهميتها التجارية . بل أن البرتغاليين تقدموا فى كل البحر الأحمر وهاجموا سواكن واستولوا على جزيرة كمران عام ١٥١٣ م فى محاولة منهم للوصول إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد أدى كل هذا إلى اضطراب الأحوال السياسية والتجارية فى مصر . لكن فى فترة ازدهار التجارة المصرية العالمية فإن التجارة لم تقتصر على التوابل والعقاقير فقط بل قد شملت كذلك كل العطور والبخور ومن أنواعها عود الند والمسك وخشب الصندل والعنبر والبخور واللادن والمصطكى واللبان والجاوى ، وغيرها من السلع الأخرى ، وكذلك الأحجار الكريمة والجواهر كالفيروز . وقد كانت هناك أنواع من الأحجار الكريمة والزمرد يحصل عليها

من مصر والنوبة . وهناك أنواع أخرى تأتى من ساحل أفريقيا الشرقى والحبشة ، وتنقل إلى أسواق مصر والإسكندرية لتباع للأوروبيين ، حيث ينقل البرتغاليون كميات كبيرة منها إلى البرتغال بعد وصولهم إلى الهند . ولقد كان لتجار مصر وكلاء فى كل أسواق شرق أفريقيا . وقد شهد القرن الخامس عشر تطورات فى النظم التجارية حيث كان التجار فى مصر يؤلفون طبقة مقربة إلى سلاطين المماليك الذين أحسوا بأن التجارة أصبحت المصدر الأساسى الذى يمدهم بالأموال ، وأن التجار تمتعوا فى عصر المماليك بثروات ضخمة . وهذا أمر بيعى فى عصر كانت مصر فيه حلقة بين الشرق والغرب ومركزا للنشاط التجارى .

ويذكر المقريزى أن أحمال البهار والقرفة ونحو ذلك كانت تصل إلى ميناء عيذاب التى أصبحت منذ العصر الفاطمى المركز الرئيسى لتجارة الهند واليمن والحبشة ، وأن تلك التجارة كانت تظل ملقاة بصحراء عيذاب والقوافل صاعدة وهابطة لايعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها ، فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتى سنة . وكانت التوابل تنقل على هذا النحو من عيذاب إلى قوص حيث تحمل فى السفن النيلية إلى أن تصل إلى ساحل الفسطاط فتنقل إلى خزانة التوابل أو فندق الكارم . ويبدوأن مراكب تجار الكارم كانت تتعرض فيها بين عيذاب وسواكن لسطو القراصنة واللصوص ، ولذا اهتم حكام مصر من الفاطميين والأيوبيين والمماليك بتخصيص أسطول يرابط فى عيذاب مهمته أن تتلقى الكارم فيها بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا يعترضون المراكب فيحميهم الاسطول منهم ، وهذا يعطى الدليل لاهتمام مصر وحكامها بأهمية الحركة الاقتصادية والتجارية مع بلاد الحبشة وشرق أفريقيا.وقد كان للدور الذى لعبه التجار المصريون فى زيادة الصلة بين مصر وشرق أفريقيا يمثله كل هؤلاء التجار وبينهم بالطبع التجار الكارميه الذين اعتبروا من أمهر وأكثر التجار دراية بعلمهم ، يسافرون إلى كل موانىء شرق أفريقيا والشرق الأقصى والهند ، ولهم وكلاء فى اليمن وموانىء الهند ، وقد أتيح لمصر بواسطة التجار الكارميه أن تحتل مركز الزعامة والصدارة فى العالم الإسلامى فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، فقد كانت طائفتهم التى أطلق عليها المؤرخون اسم الكارميه هم دعامة البناء الاقتصادى فى مصر فى

العصور الوسطى ، وصلة الربط بين مصر وكل الأنحاء التى يصلون إليها ، كما لا يمكن انكار أو اغفال دورهم الدولى والقيادى فى التجارة بين الشرق والغرب وخاصة فى جلب المتاجر الشرقية من الهند والصين وشرق أفريقيا واليمن إلى مصر ثم إلى أوروبا ،وكان مجال اتصالهم فى البداية من قوص والقاهرة عن طريق ميناء عيذاب والقصير على البحر الأحمر ولهم مستودعات ضخمة وفنادق وخانات فى موانىء البحر الأحمر وعدن والهند .

وقد وصلت رحلاتهم التجارية بالطبع كذلك إلى شاطىء أفريقية الشرقى موزمبيق ، ولهم بكل موانىء هذا الساحل وكلاء ومندوبون محليون وأنهم كانوا يكونون رابطة وطائفة تحتكر التجارة الشرقية الجزية لتوريدها عبر مصر إلى بلاده غرب أوروبا ، وفى القرن الخامس عشر الميلادى وقبل قدوم البرتغاليين بفترة ، كانت التجارة الشرقية احتكاراً لهم حيث إن البحر الأحمر كان يعتبر بالنسبة لهم بحيرة إسلامية بعد أن منع التجار الاجانب من الوصول إليه ، وكان هذا من عوامل نمو واتساع تجارتهم ، وكان كذلك يإمكانهم ممارسة التجارة تحت حماية المماليك أنفسهم مما جعلهم يبلغون القمة فى الربع الأول من القرن الخامس عشر ، وأتاح لهم ذلك فرصة التدخل فى الشئون السياسية والمالية لدولة سلاطين المماليك ، ومن مراكزهم من موانىء شرق أفريقيا والحبشة واليمن كانوا ينطلقون بالسلع الواردة من الهند والصين إلى البحر الأحمر .

وليس أدل على عمق الصلات والعلاقات التجارية بين مصر والحبشة من تلك الرسالة التى أرسلها النجاشى داود إلى سلطان مصر السلطان برقوق يقول فى رسالته إنه يسهل الأمور للتجار الكارميه،ويسهل أمامهم كل فرص العمل . ومن ذلك قوله ثم تأمر كل وقت بإرسال الغلال وتواجهها إلى الكور والمدن الإسلامية لأجل من يرد من التجار الكارمية والصادرين والواردين من الديار المصرية والبلاد اليمنية والمسافرين إلى الأقطار الحجازية والمقيمين المزودين إلى ثغر سواكن وغيرها بحراً وبراً . ونأمر بحفظ الطرقات من العربان المؤذين وتعقب آثار المعتدين ، وأما طرف الإقامة بالبلاد الحبشة فكل من يرد عليها من المسلمين فأمر بالوصية عليهم إن كانوا صادرين أو واردين حتى لو سار الإنسان بمفرده فى البلاد مع وسعها وكثرة أهلها فهو على نفسه وماله من الآمنين .

وهذه هى بعض من نص رسالة النجاشى داود أرسلها إلى سلطان مصر والتى يتضح فيها مدى استعداده وتسهيل الحبشة لمهمة التجار الكارميه لكى يمارسوا تجارتهم فى البلاد الواسعة ولكى يخدموا حركة التصدير والاستيراد بين مصر وبلاد شرق أفريقيا .

ولقد كان للكارميه أسطول بحرى ونهرى خاص بهم ، وقد قامت السلطات المحلية بحماية أنفسهم وتجارتهم من القراصنة . وهذه الحماية لقاء رسوم يدفعها الكارميه للحكومة عن طيب خاطر . وهذا يفسر لنا نمو تجارتهم فى البحر الأحمر . وقد فرض الكارميه كطائفة تجارية ترتبط مصالحها ارتباطا تاما بمراكزها فى شرق أفريقيا والهند واليمن ومصر وأن يكونوا على علاقة طيبة مع حكام هذه المناطق ، وأنهم كانوا يشاركون فى حل الأزمات السياسية والاقتصادية ، وكان سلاطين مصر يختارون سفراءهم إلى العديد من البلاد من كبار تجار الكارميه الذين رحبوا بهذا التكليف حماية لتجارتهم .

كما أنه يهمنا فى ذلك الفصل معرفة نشاط الكارم فى أفريقية ، فقد اتخذوا مصر مركز انطلاق لهم ، فمنها انطلقوا إلى أثيوبيا وسواحل البحر الأحمر حيث كانت لهم آثار واضحة هناك وفى أثيوبيا وساحل شرق أفريقيا وجد التجار الكارميه ترحيبا من زعمائها المسلمين والمسيحيين نظراً لما أوجدوه فى الاسواق لبيع سلعهم وما كانوا يقدمون من خدمات فى استيراد السلع الأجنبية لبلادهم ، ومن جهة أخرى كان الكارميه سفراء مصر على صلة بأمراء الحبشة المسلمين الذين كانت دويلاتهم تطوق الكتلة الأثيوبية من الشرق والشمال والجنوب حتى تصل جنوبا إلى البحيرات وقد تعمقت الصلة بين الكارميه وهذه السلطنات الإسلامية والحبشة ، ومن الواضح أن الكارميه فى مصر وغيرها من مراكز تجارتهم كانوا على صلة بالأمراء والمسلمين فى الحبشة ولا سيما الأسرة المخزومية فى شقرة وذلك قبل أن يؤسس الأحباش المسيحيون الدولة السليمانية على يد (يكونوا ملاك) (١٢٧٥ - ١٢٨٠ م) ولا شك أن الكارميه قد شهدوا ألوانا من الصراع الدينى بين القوى المختلفة فى هذه المنطقة ، وربما أصابهم من جراء هذا الصراع فى عهد الملك المسيحى (سيف أرعد) (١٣٤٤ - ١٣٧٢م) عندما قبض على جميع التجار المصريين القادمين من مصر إلى بلاده وقتل بعضهم وبعث بفرسانه إلى صعيد مصر لتطرد القبائل العربية وتبعدها عن حدود الحبشة . وادعى أنه من حامى

كنيسة الاسكندرية ، بل أنه سجن بعض التجار المصريين الذين كانوا فى بلاده ، ولم يفرج عنهم إلا بعد تدخل السلطات المصرية ، كما أن قتله لهؤلاء التجار لم يكن أسلوبا راقيا وذلك جزاء لما كان يقوم به التجار من دور حضارى واقتصادى فى تسهيل حركة تصدير المنتجات الحبشية وايصال المنتجات المصرية والعربية والأوروبية وغيرها إلى بلاد الحبشة .

ولقد كان تجار الكارميه عماد التجارة فى الشرق ، كما كانوا مفخرة الحركة التجارية الوسيطة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، كما سيطر التجار الكارميه بحركتهم على البحر الأحمر والمحيط الهندى ووصلوا إلى الهند والصين وتعمقوا فى ساحل شرق أفريقيا حتى وصلوا إلى بلاد التكرور غربا . وقد ساعد ذلك على تطور مركز مصر الدولى فى حركة التجارة العالمية بين الشرق والغرب .

ولم يقف اتجاه التجار المصريين فى الأجزاء الشرقية من أفريقيا عند حدود الحبشة ، بل كانت هناك زيلع وإماراتها تعتمد على التجارة المصرية فهى بلاد لازرع فيها ، وتعتمد أكثر ما يكون من معاش أهلها على التجارة ، وكانت تجارتها مع مصر تسير من جنوب البحر الأحمر حتى مدينة عيذاب وهى التى وصفها ابن جبير حين قدم إلى مصر فى بداية الدولة الايوبية بأنها كانت أحفل مراسى الدنيا بل وصلت التجارة المصرية إلى مدينة مقديشو فى الصومال ، واستوطن كثير من المصريين هذه الأقطار فتعلم أهلها اللغة العربية على اللهجة المصرية ، إلى جانب لغتهم السواحلية . ويقول ابن بطوطة الرحالة المغربى الذى زارها فى القرن الرابع عشر إن كسوة أهلها فوطة يشدها الإنسان فى وسطه عوض السراويل وكل ما يلبسه أهلها من ثياب فى مصر .

ولم تكن التجارة المصرية مع كلوه وممسبا وسفالة جنوبا وغيرها من الساحل الشرقى الجنوبى أقل شأنا من التجارة مع مقديشو والموانىء الواقعة شمالها كزيلع ومصوع وبربره وسواكن . وكان التجار المصريون والتجارة المصرية والمصريون الذين استقروا الاستقرار النهائى بها وتزوجوا من الوطنيات سكان تلك الموانىء سببا فى انتشار اللغة العربية هناك ، وكل ذلك يبين لنا الدور المصرى وأثره البارز فى المجال التجارى فى تلك الأنحاء من شرق القارة الأفريقية .

لكن دور مصر الاقتصادى مع شرق أفريقيا والحبشة وغيرهما من بقية دول العالم قد جاءت عليه فترات أضرت بتجارتها الخارجية ودورها الحضارى فى تسهيل حركة النقل الاقتصادى ، وذلك لما لجأ إليه سلاطين المماليك الجراكسة فى القرن الخامس عشر الميلادى منذ عهد السلطان برسباى إلى سياسة احتكار التجارة الداخلية . حيث اتجه السلاطين المماليك إلى الانتقال بالتجارة واتبعوا سياسة الاحتكار لتعويض الخسائر الاقتصادية ، على أن أخطر اتجاه اتجهت إليه الدولة المملوكية وأدى إليها إلى نهايتها المحتومة هو احتكارها للتجارة الشرقية ، بل أن السلطان برسباى لم يلبث أن حذر التجار الكارميه من بيع توابلهم إلاّ له ، وأن بيعها لايكون إلا من متاجر السلطان ، وعاد إلى التهديد بإجبار الكارميه بشراء التوابل بسعر يزيد ثلاثين ديناراً للحمل من الفلفل عما اشتراه به منهم . والواقع أن سياسة الاحتكار التى اتبعها المماليك لم تكن فى صالحهم وصالح الاقتصاد الوطنى ولا لصالح الدور المصرى فى حركة انتعاش الاقتصاد العالمى وظهور الدور المصرى بصورة فعالة فى شرق أفريقيا .

ولقد كان على العثمانيين وقد دخلوا مصر وتوابعها أن يرثوا عن المماليك مدافعة البرتغاليين عن المياه الشرقية لاستعادة السيطرة على التجارة الشرقية ولهم من قوتهم العسكرية وأساطيلهم خير معين لذلك ،لكن دور مصر كان قد حدته السيطرة العثمانية ، وكذلك معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ م وإحكام السيطرة البرتغالية على البحر الأحمر ، وحدث أن هزم الصينيون البرتغاليين وطردوا أسطولهم الصغير ، وكانت الدولة العثمانية غارقة فى ذلك الحين فى مشكلاتها الأوروبية ، ولم تعط أدنى أهمية لمسألة الوجود البرتغالى فى المحيط الهندى،ولم تعر أهمية لمحاربة هذه الدولة للتجارة التى كانت تمر فى الولايات التى تسيطر عليها الدولة العثمانية ، وكانت هذه التجارة مصدراً لنشاطها الاجتماعى والاقتصادى فى هذه الولايات ، إلا أن الدولة العثمانية بعد سيطرتها على مصر فإنه كان لها مصالح تجارية حيوية فى التجارة الواردة من الهند والشرق الأقصى والتجارة الصادرة إلى هذه الأقطار أيضا ، وكانت رغم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح توجد فى مصر أجهزة تجارية كبيرة ومتعددة الجوانب ، وكانت تشرف على التجارة ولها وكالات تجارية فى مختلف الموانىء من عيذاب شمالا إلى عدن وغيرها من

موانىء شرق أفريقيا ، بل وكالات فى مقديشو وكلوه وممباسا وزنجبار وفى سفالة جنوبا .

وكانت خطوط الملاحة البحرية وحراستها من القرصنة تتطلب أسطولا بحريا للقيام بهذه الأعمال . ولقد وقعت الاستراتيجية المصرية العسكرية فى خطأ جسيم لأنها لم تكن تحسب القوة البرتغالية حساب العدو المتربص حيث كان وصول الأسطول البرتغالى إلى مياه المحيط الهندى مفاجأة لمصر .

ولقد أدخلت الذعر والخوف على المصالح التجارية والاقتصادية ، بل أنه مما زاد الوضع سوءا أن المصريين لم تكن لديهم أية معلومات مسبقة عن نشاط البرتغاليين على ساحل أفريقيا الغربى ومحاولة وصولهم إلى شرق أفريقيا وبلاد الشرق الإسلامى ومملكة القس (يوحنا والحبشة) فى قلب القارة الأفريقية ، وكانت مصر على الرغم من انتشار تجارتها على ساحل أفريقيا الشرقى وموانىء المحيط الهندى تجهل جهلا تاما الهدف الذى من أجله أرسلت بعثات الكشف البرتغالية ، وكانوا لايعلمون شيئا عن الطريق الملاحى الذى سلكته البعثات البرتغالية .

وقد كتب ابن إياس مؤرخ العصور الوسطى المتأخر يقول حضر بشير الحاج وأخبر أن الفرنج كثرت تعبئتهم ببحيرة الهند ، وأن حسين باشا حاكم جدة شرع فى بناء أبراج على ساحل جدة ، كما يقوم أهالى وحكام مدن شرق أفريقيا بتحصين موانيهم ولكن ازدادت مراكز الفرنج فيما بعد ، وصاروا يغيرون على مراكب الهند ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن التى ترسو فيها سفنهم ويأخذون ما معهم من بضائع (قرصنة دولية بلا محاسب) هذا بالإضافة إلى أن مصر كمركز وقوة كبرى بدأت تواجه العديد من المشاكل الداخلية والخارجية مما جعل دائرة نفوذها فى البحر الأحمر بدأت تقل ، وقد انعكس ذلك بدوره على منطقة شرق أفريقيا ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تدافع عن نفوذها فى الأراضى الأوروبية وفى البحر المتوسط ، كان البرتغاليون يهددون الدور المصرى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وشرق القارة الأفريقية وصولا إلى الجنوب فى موزمبيق ، الأمر الذى شكل أخطارا هددت كيان مصر السياسى والاقتصادى والحضارى ، لأن البرتغاليين كان همهم الأول منع التجارة بين الهند والبحر الأحمر والخليج العربى ، والقضاءعلى دور مصر الاقتصادى باعتبار أنها القوة

الوحيدة التى قضت على الوجود الصليبى فى الشام وباعتبارها زعيمة العالم الإسلامى ، وكذلك تحويل تجارة التوابل والمنتجات الأخرى إلى ميناء لشبونة (القوة الاقتصادية مصدر القوة السياسية والعسكرية حسب فكر العصور الوسطى) البرتغالى فى ذلك الوقت قد جاء إلى البحر الأحمر فى محاولة للاتصال بالنجاشى (الحبشة) والذى كان معروفا لدى الأوروبيين باسم (برسترجون) وذلك للاتفاق معه لإعداد حملة مشتركة يشترك فيها ملك فرنسا للهجوم على مصر والذى كان مسئولا عن احتلال منطقة شرق أفريقيا ، وأن يحتفظ بقوة عسكرية فى سواكن ، ثم ملك أسبانيا الذى كان من واجبه أن تحتل قواته زيلع ، أما ملك البرتغال فكان عليه أن يتخذ من مصوع قاعدة لقواته . واستطاع الأسطول البرتغالى أن يحتل سواكن وزيلع ، ولكن قائد الأسطول المصرى عندما علم بوجود البرتغاليين فى ميناء البحر الأحمر خرج إلى سواكن ثم سار جنوبا متعقبا السفن البرتغالية إلى أن وصل إلى ساحل الهند ، واشتبك الاسطولان فى موقعة انتهت بهزيمة البرتغال وذلك صيف عام ١٥٠٨ م . وما أن وصلت إلى الحبشة أخبار انتصار الأسطول المصرى حتى قامت الملكة هيلانة والتى كانت وصية على ابنها الملك (لبنادتقل١٥٠٨ - ١٥٤٠) فى ذلك الوقت بمحاولة توطيد العلاقات مع الإمارات الإسلامية التى قامت فى الحبشة لفتح طريق التجارة والتى كانت ترتبط مع مصر بصلات وعلاقات قوية . وكان طلب فتح الطريق أمام طريق التجارة من الأسباب الرئيسية فى المشاحنات بين الإمارات والحبشة ، وأرسلت البعوث إلى البلدان التى يهمها الأمر ومنها مصر غير أن المساعى لم تكلل بالنجاح فاتجهت الملكة هيلانة نحو الغرب لطلب المساعدة ضد الإمارات الإسلامية التى ترتبط بروابط قوية مع مصر والبلاد العربية الإسلامية .

ولم يتخذ الأسطول المصرى بعد انتصاره على الأسطول البرتغالى من الوسائل العسكرية بتعزيز الأسطول أو تقويته إلى الانسحاب إلى مكان أمين ، فقد كان الأسطول بعيدا عن قاعدته الأساسية بآلاف الاميال وبقى على هذه الحالة حتى العام التالى حيث استجمع الأسطول البرتغالى قواته بعد أن وصلت إليه الامدادات والتعزيزات من لشبونة فأنزل هزيمة ساحقة بالقطع البحرية المصرية حيث غرقت جميعها فى مياه ديو الهندية ، وكان

من جراء الهزيمة التى لحقت بالأسطول المصرى وغرقه فى مياه ديو الهندية قيام البرتغال بفرض حصار لمنع السفن القادمة من الهند والشرق الأقصى من دخول البحر الأحمر والموانىء العربية على ساحل أفريقيا الشرقية والساحل الشرقى للبحر الأحمر ، واستطاعت هذه العملية أن تعزل موانىء ، البحر الأحمر وبخاصة جدة وسواكن وزيلع ومصوع وبربرة وباضع عن مصر والسويس ، وتمنع وصول التوابل والسلع الأخرى إليها مما أضعف النشاط التجارى ، الأمر الذى دفع بتجار الفرنجة فى أسواق مصر والشام بالاتجاه إلى أسواق لشبونه ، فاشتدت الأزمة الاقتصادية فى مصر عام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م . والحق يقال إن مصر مارست دورها وعملت كل ما استطاعت أن تقوم به من أجل المحافظة على وجودها فى البحر الأحمر وربطها بشواطىء شرق أفريقيا والهند ، ولقد كان السلطان العثمانى يعلم بنشاط مصر الإسلامى فى محاربة النفوذ البرتغالى ، وكان يعلم بما بيتّه الأوروبيون لمصر ، فبدلا من مساندتها ومساعدتها لدحر العدوان البرتغالى على المصالح الإسلامية التى كانت تقودها مصر ، حتى تنتهى من أزمتها فيصفى حسابه معها ، إن كان له حساب ، ولكن على العكس من ذلك فقد أنزل السلطان العثمانى بمصر ضربة قاصمة أضاعت معها جهودها فى المحيط الهندى والبحر الأحمر وزادت من عبء الدولة العثمانية التى لم تستطع مواصلة نشاط مصر فى تلك المناطق إلا بعد حوالى عشرين عاما من دخول مصر ، واستطاع البرتغاليون خلال تلك الفترة الزمنية تقوية مراكزهم . وعندما جاء الأسطول العثمانى لم يكن من أهدافه ما يجعل له الصلاحية التامة للملاحة فى المحيط الهندى حيث إنه بنى على أساس تصميمات سفن الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط ، وهذه لاتستطيع أن تواجه الوضع فى المحيط الهندى .

لكن كان على مصر أن تمارس دورها الاقتصادى فى دفع الخطر الذى يتهددها ويتهدد الدول الإسلامية ، ذلك لأنه مهما كانت مصر ولاية عثمانية إلا أنه كان لها وضع متميز عن جميع الولايات باعتبار موقعها وإمكانياتها ، ومن هنا نجد السلطان العثمانى أراد أن يحيى الدور المصرى فى شرق أفريقيا والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، ومن ثم أخذ فى الاستعدادات لمواجهة عدو جديد فى مياه المحيط الهندى ، وذلك لأن أوائل القرن السادس عشر الميلادى قد شهد احتلال هرمز بواسطة البرتغاليين وسيطرتهم على مسقط والبحر

الأحمر ، ثم احتلوا جزيرة سوقطرة لحماية المدخل إلى بعد بوغاز باب المندب ، وعند وصول سفنهم إلى قليقوط وجدوا أن التجارة فى يد المسلمين من العرب الذين كانت لهم السفن التى تنقل السلع إلى الخليج العربى وإلى البحر الأحمر ، وكانت لهم القوافل التى تنقل هذه السلع من الخليج إلى مياه القلزم (السويس) ثم إلى ساحل البحر المتوسط .

ولقد حاول السلطان العثمانى بعد دخول جيوشه مصر وساحل البحر الأحمر ارسال قوة بحرية إلى المحيط الهندى لحماية البحر الأحمر والخليج العربى من نشاط البرتغال التجارى وسيطرتهم الاستعمارية ، وأنشأ لهذا الغرض ترسانة فى السويس وعهد إلى كبير وزرائه بتنظيمها وأرسل فى عام ١٥٢٥ قطعا بحرية فى البحر الأحمر لبسط النفوذ العثمانى على هذه الاماكن والسواحل الواقعة عليه وتم بناء أسطول كبير للقيام بحملة بحرية عنيفة على الأسطول البرتغالى فى المحيط الهندى . وقد تم بناء الأسطول فى السويس عام ١٥٣٨ م واحتل العثمانيون ميناء عدن ، وسيطروا على البحر الأحمر حيث تحكموا فى مدخله الجنوبى إلا أن البرتغاليين قاموا فى عام ١٥٤١ بغزوة صغيرة على ميناء السويس واتصل البرتغاليون بالحبشة وامبراطورها فى الوقت الذى كانت فيه الحرب قائمة بين السلاطين المسلمين بقيادة إبراهيم القرين ونجاشى الحبشة ، وقد حاولت الملكة هيلانة الوصية على ابنها الجالس على عرش الحبشة عقد اتفاق مع سلطان المماليك فى مصر ، غير أن دخول الأتراك إلى مصر حينذاك حال دون ذلك .

ولقد كانت الولايات الإسلامية (ممالك لطراز الإسلامى) قد فرضت ستارا حديديا حول الحبشة حيث كانت تجارتها فى يد التجار المصريين والمسلمين الذين كانوا يقيمون وكالاتهم فى الموانىء المطلة على ساحل البحر الأحمر ، وكانت بطبيعة الحال حينها جيوش المسلمين مجموعة كبيرة من السكان المحليين الذين انضموا إلى صفوف المقاتلين المسلمين الذين حرصوا على الحفاظ على الوجود الإسلامى قويا فى تلك الإمارات ، وعلى بقاء صلاتها قوية مع مصر سواء فى العصر المملوكى أو فى العصر العثمانى ، وقد تمكن العثمانيون فى النصف الثانى فى عام ١٥٣٨ م من احتلال عدن ، ووصلت القوات العثمانية إلى كجيرات الواقعة غرب الهند حيث تم الاتفاق بين القوات العثمانية وقوات كجيرات على محاولة الاستيلاء على الحصن الذى أقامه

البرتغاليون فى ديو عام ١٥٣٥ م ووجد قائد الأسطول العثمانى أنه بعيد عن قاعدته ، كما أنه وجد نفسه لم يستعد لفرض حصار طويل الأمد على موقع الحصن البرتغالى فى ديو ، لذلك انسحب الأسطول العثمانى إلى اليمن وأقام فى اليمن حكومة عثمانية وجعل عدن وزبيد مركزين هامين ، ومن ثم عاد إلى السويس ، واستطاع البرتغاليون بسط احتكارهم للتجارة وتمكنوا من فرض حصارهم على طرق الملاحة المؤدية إلى جزيرة العرب والبحر الأحمر والمناطق المجاورة وشرق أفريقيا ، وكان من جراء هذا الحصار أن تعطلت الحركة التجارية ، إلا أنه على الرغم من شدة التدابير التى اتخذها البرتغاليون لوقف التجارة مع شرق البحر المتوسط فقد تسربت كميات قليلة من البضاعة إلى البحر الأحمر ، ونظراً لأن المسلمين بصفة خاصة كانت لهم علاقات قوية الجذور مع موانىء ساحل شرق أفريقيا حتى موزمبيق وساحل المليبار وكيرات بالهند فلم يكن من السهل على البرتغاليين أن يقطعوا هذه العلاقات لذلك كان من الضرورى أن يتهاون البرتغاليون بعض الشىء فى إجراءاتهم الضارة بالمصالح التجارية للعرب لأن ضررا أكبر سوف يحل بتجارتهم ، ولم يستطع الأسطول البرتغالى إحراز أى نجاح فى مياه البحر الأحمر على الرغم من أن سفنه قد دخلت مياه هذا البحر غير أنها وجدت الاسطول العثمانى على استعداد لمنازلتهم كما وجدوا تحديا لسيطرتهم على مياه الخليج .

ولكن ما يمكن قوله أن السلطان العثمانى بسبب كثرة الميادين التى يخوض فيها المعارك فإنه بكل أسف لم يستطع أن يتخذ أية إجراءات قوية لمقاومة النفوذ البرتغالى فى المحيط الهندى ، الأمر الذى لو تم لكانت له نتائجه فى تقوية النشاط التجارى المصرى ولعودة التأثير المصرى القوى فى ظل الخلافة العثمانية ، ولأصبح الدور التجارى الإسلامى فى حوض البحر الأبيض الشرقى دورا كبيرا وبخاصة فى الموانىء البحرية فى الخليج والبحر الأحمر ، واستمرت المناوشات بين الأتراك والبرتغاليين على طول ساحل الجزيرة العربية المطل على المحيط الهندى والخليج العربى .

واهتم العثمانيون بتأمين البحر الأحمر ومنع الاتفاق بين البرتغاليين والحبشة . وبسبب ذلك نزلت القوات العثمانية بميناء مصوع ، وفى عام ١٥٥٧ م تمكن العثمانيون من السيطرة على ميناء سواكن وأضحت كل

شواطىء شرق أفريقيا حتى مقديشو تخضع للسيادة العثمانية التى كانت مصر تتحمل كل أعباء تلك القوات سواء فى بناء السفن أو استخدام الموانىء أو الحشد بالسلاح وتمويلها بالزاد . وكانت عملية المحافظة على أسطول قوى فى مياه البحر الأحمر والخليج العربى تتطلب اعتمادات مالية كبيرة لتغطية تكاليف النقل للمهمات الحربية إلى السويس ، وإلى البصرة . وكان من الضرورى على العثمانيين أن يغيروا تصميم بناء السفن التى تعمل فى المحيط الهندى على أسس غير تلك المتبعة فى بناء السفن المعدة للعمل فى البحر الأبيض المتوسط . وعلى الرغم من كل هذه الصعاب فإن الحرب بين الأتراك والبرتغاليين قد استمرت زمنا ليس بالقصير ، ولم يستطع البرتغاليون إحراز نصر حاسم على الأتراك ، وليس أدل على الدور العثمانى فى ساحل شرق أفريقيا الجنوبى من تلك الزيارة التى قام بها أحد جنرالات الجيش التركى حيث قام بزيارة موانىء « الشاطىء » الجنوبى حتى مقديشو شمالا ثم براوه وكسمايو ، باتا ولامو ، لكبيقى وغيرها من الموانىء المنتشرة حتى زنجبار وأعلن أن السلطان العثمانى أرسله ليحرر الساحل من النفوذ البرتغالى ، فأحدث هذا القول ثورة على الساحل ضد البرتغال . وقد عاد الجنرال « مير على بيك » دون أن يشتبك مع البرتغاليين وأرسلت الأخبار إلى البرتغاليين فى جوا بالهند فجهزوا حملة إلى شرق أفريقيا وموانيها لملاقاة (مير على بيك) . وفعلا جاء ذلك القائد التركى عام ١٥٨٨ م فى أسطول مكون من خمس سفن حربية والتحم هذه المرة مع الأسطول البرتغالى فكانت معركة حامية الوطين هزم فيها القائد العثمانى وقتل رجاله وأسر(مير على بيك) نفسه ، ونقل إلى جوا بالهند ومن ثم إلى لشبونه عاصمة البرتغال .

وعندما تجمعت قوات البلاد الإسلامية وصارت كلها واحدة ووحدت كلمتها ، استطاع العرب إعادة التجارة القديمة إلى سابق عهدها بنقلها إلى مصر ثانية وإلى حلب ، وكان ما وصل إلىمصر عام ١٥٦٤ م . أى بعد حوالى خمسة وخمسين عاما على حدوث معركة ديو البحرية التى دارت عام ١٥٠٩ م فى عهد السلطان الغورى .من الفلفل يعادل ما وصل فى حجمه إلى لشبونه فى ذلك الوقت ، رغم جهود البرتغال فى محاولة منع تلك التجارة من الوصول إلىمصر وبقية بلاد العالم الإسلامى . واستمرت القوافل تمارس عملها فى العراق وفارس ونقلت كميات كبيرة من التوابل والحرير إلى أسواق الشرق

الأوسـط ، وتغير الموقف فى المحيـط الهنـدى وفى طريـق نقـل سلـع الشرق بدخول دول ملاحية أخرى أقوى من البرتغال إلى مياه المحيط الهندى حيث استطاعت تلك الدول السيطرة على تجارة الشرق ، وكانت هاتان الدولتان هما إنجلترا وهولندا .

وهكـذا نرى كيف مـارست مصر دورهـا القيـادى فى حركـة التجـارة العالمية ، باعتبارها دولة يؤثر موقعها الاستراتيجى على نقطة الالتقـاء بين الشرق والغرب للقيام بمصالح تجارية حيوية فى التجـارة العـالمية ، وكيف كانت تعمـل على زيـادة صلـة الربـط بين بـلاد شرق أفريقيـا فى السـاحـل الجنـوبى فى مـوزمبيـق جنـوبـا حتى عيـذاب المينـاء المصرى شمالا ، وكيف عملت على تأمين الموانىء ، الواقعة على ذلك السـاحل كممبوع وسـواكن وزيلع وبربرة وبـاضع ومقـديشو ولامور وغيرهـا من المـوانىء الـواقعة على ذلـك الشـاطىء ، وكيف قـام التجـار الكارميه والمصريـون كسفراء لمصر فى تلـك البلاد ، وكيف اتصـل التجـار المصريـون بـالحبشة وتعـاملـوا معهـا ، وكيف نقلوا سلـع بـلادهم إلى تلـك الـديـار ، وكيف وصلت سلـع تلـك الـديـار إلى الأراضى المصرية .

ومن كل هذا فإن مصر فى تعـاملهـا مع إمـارات الطراز الإسلامى وموانىء سـاحل البحر الأحمر الغربى إنما كانت مـدفـوعـة فى كل هـذا للقيـام بـدورهـا الأخوى الصادق تجاه أخوة الإسلام والقارة فى تلـك الأنحـاء ، ولأجل إقـامـة التكامل الاقتصادى بين بلدان العالم الإسلامى ، وإن كان ذلك لاينفى حدوث بعض التجـاوزات فى بعض الفترات التـاريخيـة عنـدمـا احتكر بعض سلاطين المماليـك تجارة الشرق القـادمـة لمصر ، وجعلـوا تلـك التجـارة تحت أيـديهم محتكرة .

الفصـــــل الثالـــث

«دور مصر الثقافى فى شرق أفريقيا والحبشة»

تحدثنا فى فصل سابق عن دور مصر الثقافى فى وسط وغرب أفريقيا وعن كيفية قيام مصر بأدائها لذلك الدور الرائع والواجب نحو أخوة الإسلام فى وسط غرب أفريقيا حيث السلطنات الإسلامية التى ظهرت فى منطقة السفانا ، وكيف كان ذلك الدور المصرى بارزا فى أوجه الحياة العلمية والثقافية حيث رحل العلماء المصريون بل كبار علمائها ــ الشيخ جلال الدين السيوطى ــ إلى بلاد الهوسا وامبراطورية سنغاى ، كذلك كيف رحل الأطباء ورجال الفكر والعلم والمعرفة إلى إمبراطورية مالى حيث ساحل المحيط الأطلسى ، كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة فى رحلته إلى تلك البقاع ، وكيف ساهم العلماء المصريون ورجال الدين والفقه فى التدريس فى جامعة سانكرى بتمبكتو المدينة الثقافية والعلمية فى غرب أفريقيا ، ثم كيف تحمل هؤلاء المصريون مصاعب السفر عبر الدروب الصحراوية والمسارب الضيقة حيث لم تكن هناك وسيلة غير عبور تلك المنافذ الصحراوية التى كانت الرحلة فيها تستغرق فترة لاتقل عن ثلاثة شهور ، وأحيانا تصل إلى أربعة شهور .

ومن هنا فإنه يمكن القول إن مصر إذ كانت قد أدت واجبها نحو أخوة الإسلام فى تلك الأرجاء فكيف يكون دورها فى شرق أفريقيا حيث بلاد الساحل الغربى للبحر الأحمر وساحل بحر العرب الغربى امتدادا من ميناء عيذاب المصرى جنوب الحدود المصرية الشرقية وصولا إلى أقصى الجنوب حيث مدينة سفالة فى موزمبيق جنوبا .

ونستطيع القول إن فترة العصر المملوكى وانتقال الخلافة العباسية عام ٦٥٩هـ كانت فترة القيادة الفكرية والعلمية والثقافية للعالم الإسلامى ، إضافة إلى الدور الأساسى الذى يقوم به ومازال قائما للأزهر الشريف ومكانته العلمية والدينية فى اثراء الحركة الإسلامية على مستوى العالم الإسلامى ، ذلك لأن الأزهر جعل مصر فى عصر سلاطين المماليك محورا لنشاط علمى كبير ، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية ، ذلك لأنه كان من الطبيعى أن تقوم مصر بدورها وثقلها الإسلامى والحضارى وموقعها الجغرافى بين الدول الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

ولقد كان الدور المصرى يستمد قوته العلمية والدينية من وجود الأزهر الذى هو منارة العلم والدين والفكر والثقافة فى العالم الإسلامى ، إضافة الى مكانته السامية التى يحتلها فى قلوب المسلمين ، إضافة إلى ذلك النشاط العلمى والإنتاج الفكرى الذى خلفه علماء ذلك الدين والعصر من تراث ضخم فى مختلف العلوم والفنون ، مما جعل مصر محورا للنشاط العلمى بعد ما أصاب المسلمين فى القرن السابع الهجرى ، والثالث عشر الميلادى ، من كوارث على أيدى المغول والتتار فى العراق والشام ولما أصاب المسلمين فى الاندلس والمغرب على أيدى المسيحيين ، ولقد كانت تلك الكوارث التى حلت بالعالم الإسلامى دافعا قويا فى أن يتحول علماء تلك الأقطار إليها ليختاروها موطنا وسكنا ومحلا لنشاطهم الفكرى والعلمى والثقافى حيث وجدوا فى رحاب الأزهر الشريف وغيره من المدارس الإسلامية المنتشرة فى القاهرة مكانا يقصدونه لكى يخرجوا ماعندهم من عصارة ذهنية يغذون بها طلابهم الذين يتحلقون حولهم . وكان سقوط بغداد فى أيدى المغول عام ٦٥٦هـ يجعل علماءها يهاجرون إلى مصر وغيرها من البلاد الواقعة بين بغداد والقاهرة ، ثم إن إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة على أيدى المماليك عام ٦٥٩هـ جعل القاهرة ترث الميراث الحضارى والثقافى والفكرى والعلمى لبغداد وتصبح مركز النشاط العملى والدينى الأول فى العالم الإسلامى ، كذلك ازداد النشاط العلمى فى ذلك العصر نظرا لكثرة المدارس الإسلامية التى كانت تدرس المذاهب الأربعة والعلوم الإسلامية بمختلف فروعها والتى بدأت تظهر فى مصر وتشتهر منذ أن قام السلطان الظاهر بيبرس البند قدارى فصاعدا حتى السلطان الغورى . ولا مبالغة فى قول القلقشندى إن هؤلاء السلاطين بنوا

من المدارس ما ملأ الا خطاط وشبحها لذلك ذكر ابن بطوطة عن مدارس مصر فى القرن الثامن الهجرى إنه لايحيط أحد بحصرها لكثرتها ، وعدد منها الكثير فى مختلف المدن المصرية بالصعيد والوجه البحرى ، ولقد أمضى سلاطين المماليك وامراؤهم فى بناء المدارس والمكاتب (الكتاتيب والمساجد) التى قامت بوظيفة المدارس أحيانا كثيرة ، مدفوعين فى ذلك بعدة عوامل منها التقوى ، واستخدامها فى محاربة المذهب الشيعى الذى عمل الفاطميون على نشره بين الشعب المصرى أثناء فترة حكمهم ، ومنها كذلك اتخاذ المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم فى أيديهم ودعم مركزهم فى أعين الشعب المصرى .

إضافة إلى أن كل مدرسة من هذه المدارس المنتشرة فى أنحاء مصر كانت تلحق بها خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب فى البحث والاستقصاء ، إضافة إلى أن هذه المدارس كانت توقف عليها الاوقاف والأحباس وهى التى تثبت أركان المدرسة وتدعم نشاطها وتمكنها من القيام برسالتها فى العصر المملوكى ، فمثلا نجد أن الأراضى المحبوسة على المدارس والمساجد والزوايا فى عهد الناصر محمد بن قلاوون مائة وثلاثين ألف فدان . ولم تقتصر الأوقاف الموقوفة على الأزهر الشريف والمدارس الاسلامية على الأراضى الزراعية فقط بل شملت كثيرا من البيوت والأسواق والعمارات وغيرها . وهكذا جرت العادة فى ذلك العصر بأن ينشىء السلطان أو الأمير المدرسة أو الكتاب ويوقف عليه الأوقاف الواسعة من أراض ودور وغيرها لينفق من ريعها على مرافق المدرسة أو الكتاب وعلى موظفيها من المدرسين والشيوخ فضلا عن طلبة المدرسة من ذوى المواهب أو التلاميذ الأيتام حتى ينصرف الجميع الى رسالتهم العلمية والدينية فى جو من الاطمئنان وراحة الفكر .

كل هذه المعاهد والمدارس العلمية المنتشرة فى القاهرة وغيرها من مدن مصر قد جعلت أبناء العالم الإسلامى يشدون الرحال إلى مهبط الفكر والعلم والثقافة لكى ينهلوا من ذلك الفيض العلمى العذب الذى يغذى عقولهم ونفوسهم ، ومن هنا كانت مصر ملجأ يلجأ إليها أبناء وطلاب شرق أفريقيا مع إخوانهم من مسلمى الأقطار الإسلامية الأخرى ومنها إمارات الطراز الإسلامى والساحل الجنوبى حتى سفالة والحبشة .

وإذا نظرنا إلى الدور الذى لعبته مصر فى الحبشة وسواحل أفريقيا

الشرقية لوجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية التى انتشرت فى تلك الأقطار قد كانت تتأثر بموضع المدن الإسلامية المطلة على هذه السواحل ، وكذلك على طبيعة الحياة الإسلامية فيها ، وكذلك بحركة الجهاد الإسلامى الذى اضطلعت بها تلك المدن فى مواصلة الجهاد ضد الهضبة الحبشية ، ذلك لأن المدن التى ظهرت على الشاطىء الشرقى الأفريقى كانت مدنا ذات طابع تجارى بحيث كان وقوعها على الساحل وحركة الملاحة الدائبة فى البحر الأحمر تعطيها تلك الميزة التجارية ، ومن هنا كان الوضع الجغرافى يحتم على تلك الإمارات الإسلامية الاشتغال بحركة النقل التجارى بين أفريقية الشرقية وبين أسواق العالم الخارجى لتسويق منتجات ذلك الاقليم وما يصل إلى موانيها من منتجات البلاد الأخرى ، بحيث أدى ذلك إلى ارتباط هذه الموانىء بعلاقات وطيدة بل وثيقة ببلاد العالم الإسلامى كله وبصفة خاصة علاقات أوثق بمصر حيث المسافات أقصر وحركة النقلة والاتصال أيسر . ولقد ترك ذلك الاتصال المباشر والنقل الدائم مع مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامى أبلغ الأثر فى الحياة الثقافية والعلمية والفكرية فى مدن وبلاد تلك الإمارات حيث ساعد موقعها على نزوح الهجرة العربية إليها ، من مصر عبر الطريق البرى الشمالى أو عبر البحر الأحمر ، كذلك نزحت إليها الطوائف الإسلامية من الجزيرة العربية والخليج العربى هروبا بمعتقداتها وفكرها الإسلامى . وقد ساعد نزوح الفرق الإسلامية إلى ظهور الثقافة الإسلامية العربية بأوجهها المختلفة حيث تنوعت المذاهب الإسلامية الدينية بتنوع طوائف الراحلين والمهاجرين ، بل انه كثر عدد الذين يرحلون من اهل شرق أفريقيا إلى بلاد مصر واليمن وجزيرة العرب بصفة عامة . واذا كانت تلك المدن قد اتصلت ببلاد الجزيرة العربية واليمن إلا أنها كانت أكثر اتصالا وارتباطا بمصر بمكانتها القيادية حيث رحل أبناء شرق القارة الأفريقية واتصلوا بها ثقافيا وعلميا واقتصاديا بحيث كما سبق القول كان تجار مصر يرحلون إلى تلك الديار الحبشية وموانىء شرق أفريقيا ، كما كان طلاب ورجال وتجار مدن شرق أفريقيا الإسلامية يشدون الرجال الى مصر طلبا للعلم والمعرفة فى الأزهر الشريف ، وقد أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع فى تلك الأرجاء، كما كان الطلاب والمسلمون الراغبون فى الاستزادة من العلم يفدون إلى مصر حيث الأزهر الشريف كعبة العلم ومنهل الثقافة العربية الإسلامية .

وليس أدل على كثرة طلاب تلك الأنحاء من أن إدارة الأزهر قد أنشأت

رواقين خاصين لأبناء شرق أفريقيا هما رواق الزيالعة ورواق الجبرت ، ولقد كان رواق الجبرت هذا من السعة بحيث كان يضم بين جنباته رواق البرنو فى وسط أفريقيا . وقد أدت هذه الأروقة مهامها على أحسن وجه ، حيث إن تخصيص تلك الأروقة يدل دلالة قاطعة وقوية على الاهتمام بأبناء شرق أفريقيا أحسن اهتمام ، وكذلك اعطاء هؤلاء الطلاب الذين يدرسون بالأزهر الشريف العناية الكافية . ولاشك أن طلاب مدن شرق أفريقيا كانوا يدرسون ويقيمون فى الأروقة التى كانت عبارة عن منافذ مشرفة يطل بها الأزهر الشريف على أفريقيا السوداء الإسلامية وعلى العالم الإسلامى حيث جاء أبناء زيلع والجبرت وهرر وسواكن وياضع وغيرها من إمارات الطراز الإسلامى لتلقى العلم والمعرفة والتفقه فى مصر ، وليشهدوا حلقات الدرس فى الجامع الأزهر ، ويستمعوا عن شيوخه الاجلاء جهابذة العلم والشريعة والدين ، حيث جاء هؤلاء القوم مع غيرهم من أبناء البلاد الإسلامية الأخرى للاستفادة من فيض العلوم الذى لا ينقطع وذلك من أعرق وأقدم جامعة فى العالم الإسلامى حيث أصبحوا يختصون بأروقة خاصة بهم يقيمون فيها إلى جانب الأروقة المخصصة لكل طائفة حيث يترك الطلاب فى الاروقة الخاصة بهم (الجبرت ، زيلع) طاعمين كاسين متفرغين للدرس والتحصيل حيث طاب لهم المقام لكى يتمكنوا من دراسة وفهم علوم دينهم ، جامعين بين علوم اللغة العربية وعلوم الدين والفلك والرياضة ، ولكى ينهلوا من ذلك العلم الغزير الذى كان يؤخذ ويستوعب عن طريق حضور حلقات الدرس اليومية على النظام الذى كان متبعا وسائدا فى ذلك الحين حيث كان مباحا لتلقى العلم ليل نهار حتى تعم الفائدة ، ولقد كان طلاب إمارات الطراز الإسلامى المحيطة بالحبشة وغيرها من طلاب الأمم الأفريقية سببا فى توطيد علاقة القاهرة بشعوب وحكومات هذه البلاد ، إذ استطاع الأزهر عن طريق هؤلاء المبعوثين أن يخلق مكانة شامخة فى أفريقيا وأصبح موضع الثقة والاعتبار بحيث لا يطلب أحد فى العالم الإسلامى علوم الإسلام إلا عن طريق الأزهر ، ولا يوجد علماء بمعنى الكلمة إلا الذين يدرسون ويعلمون فى الأزهر والذين تخرجوا منه ، وهكذا طبقت شهرته الآفاق فى شتى أنحاء العالم الإسلامى . ولقد شهد القرن الثامن عشر الميلادى تدعيما لمركز مصر الإسلامى فى بلاد الحبشة ، وذلك بعد أن اعتنق الإسلام كثيرا من شعوب الجالا الوثنية حوالى عام ١٧٨٠م حيث استولت قبيلة جالا ولود ايجو على يغمدر وعلى قسم ، من ابحره حتى أصبح رئيس (ايجو المسلم يملى إرادته على

نجاشى الحبشة ثم بلغ انتعاش الإسلام خطوة كبرى خلال الفتح المصرى لزيلع وهرر ، وقد أشار الكثير من الرحالة الأوروبيين إلى أن الإسلام يتقدم بسهولة بين قبائل الصومال وهكذا ضغطت القبائل المسلمة على الحبشة غربا وشمالا مما كان من شأنه ازدهار القوى الإسلامية فى الحبشة ، وعلى الرغم من الهزائم التى منى بها مسلمو الحبشة فإن هناك سلطنة ظلت متحفظة بنشاطها وازدهارها وهى سلطنة (جما الإسلامية) [Jama] وكانت أساسا مقاطعة وثنية أسلم أهلها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى بفضل التجار المسلمين الذين وفدوا إليها ، فاعتنق الإسلام الكثير من قبائلها خاصة بعد أن حضر إليها طائفة من العلماء لإرشاد أهلها إلى الدين الصحيح . وقد تولى حكمها منذ عام ١٨٧٨م السلطان محمود بن داود الذى عرف بأى جفار . ولكن على الرغم من الانتعاش الذى حاولت أن تحتفظ به هذه السلطنة إلا أن مجدها أخذ يخبو بعد أن أدخلها النجاشى منليك تحت حمايته عام ١٨٨١م تاركا لها استقلالها الداخلى كباقى المقاطعات المسلمة فى الحبشة . وقد أبرم منليك معاهدة مع سلطانها نص فيها على أن تظل السلطنة وراثية فى سلالة أى جفار « وعليها أن تؤدى جزية سنوية . وكانت حكومة أديس أبابا تزيد فى مقدار هذه الجزية بهدف إضعاف تلك السلطنة الإسلامية ، وإلى جانب سلطنة جما الإسلامية تغلغل المسلمون فى كثير من الاقاليم الحبشة ففى الجنوب الشرقى استقرت منهم طوائف كثيرة فى هرر وجادرين كما استقرت جماعات أخرى بالقرب من أديس أبابا ، وكذلك فى شوة وبحره وتجرى . وقدرت نسبة المسلمين فى الحبشة مع بداية القرن الحالى بثلث السكان . وقد عرف المسلمون فى الحبشة بأسماء مختلفة وهم المسلمون من أهل حبشى ، وتفادى وهم التجار ، وجبرتى وهم المسلمون الأوائل الذين أسسوا مملكة وفات وهى أولى الممالك الإسلامية فى الحبشة . وتسود اللغة العربية غالبية المسلمين فى الحبشة ، وقد حافظوا عليها محافظة شديدة باعتبارها لغة القرآن الكريم . وقد شهد كثير من الرواد الذين جابوا بلاد الحبشة بأن المسلمين فيها ذوو نشاط بالغ وعلى جانب كبير من الذكاء ولهم التفوق على غيرهم من السكان ، وقد وجد أصحاب الدعوة الإسلامية فى الحبشة مرتعا خصبا فى الشعوب الوثنية ، كما لعبت الطرق الصوفية دورا كبيرا فى نشر الإسلام ، وكان أبرز تلك الطرق الشاذلية والختمية والقادرية .

وقد استطاع المسلمون فى الحبشة أن يجعلوا بينهم وبين الممالك الإسلامية

المجاورة لهم روابط ثقافية واقتصادية وثيقة كمصر التى بها الجامع الأزهر الذى أمّه طلاب كثيرون لأخذ العلم . وكان من الواضح أن كثيرا من الأحباش الذين تلقوا العلم فى الأزهر عادوا إلى بلادهم حيث نظر إليهم إخوانهم نظرة إجلال واحترام فشغلوا المناصب الدينية كمناصب القضاء والافتاء وغيرها ، كذلك ارتبط مسلمو الحبشة بالسودان بروابط ثقافية واقتصادية وثيقة من أثر الدور المصرى النشط . ولقد كان أبناء الجزء الشمالى حتى مقديشو فى ساحل شرق أفريقيا سنيي المذهب حيث انتشر بينهم مذهب الإمام مالك باعتباره المذهب الغالب ، إضافة إلى وجود بعض الشافعية وكان هذان المذهبان يسودان فى مصر مما جعل حركة النهضة العلمية تأخذ بعدا آخر من حيث صلة الربط والتقارب ، ومن هنا ظلت دراسة هذه المذاهب السنية مزدهرة إلى جانب دراسة العلوم الإسلامية حيث كان هذا بعدا آخر لقدوم أبناء زيلع والجبرت وغيرهما من أبناء الإمارات بالإضافة إلى بعض أبناء الهضبة الحبشية الداخلية المسلمين إلى الجامع الازهر .

ولقد برز من هؤلاء العلماء الزيالعة والجبرت بعض العلماء الوافدين إلى مصر من طائفة العلماء المبرزين فى مجال الفقه والتفسير والحديث والذين منهم الشيخ الإمام الزيلعى فخر الدين عثمان بن على شارح الكنز المتوفى عام ٧٤٢هـ/ ١٣٥٢م والمحدث الزيلعى جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفى أيضا فى القرن الثامن الهجرى وبالتحديد عام ٧٦٢هـ . وكذلك الشيخ العارف بالله الشيخ على الجبرتى المتوفى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣م . والذى اعتقد السلطان قايتباى فى صلاحه وتقواه وولايته ، ومنهم أيضا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الجد السابع لمؤرخ مصر الكبير أثناء الثورة الفرنسية وبداية فترة حكم محمد على ، والذى رحل إلى مصر فى أوائل القرن العاشر الهجرى ـــ السادس عشر الميلادى ـــ وجاور بالأزهر وتولى مشيخة رواق الجبرتية . ولقد نبغ فى زيلع مجموعة من العلماء والمفكرين ورجال الدين الذين أقاموا بها ينشرون الإسلام ويتولون كثيرا من المناصب القضائية والادارية ولى قمتهم عبد الله الزيلعى الذى رأس سفارة بلاده إلى السلطان المملوكى المصرى فى ذلك الوقت الناصر محمد بن قلاوون حوالى عام ١٣٨٨م ، وذلك لقيام السلطنة المصرية بالكتابة إلى نجاشى الحبشة للتخفيف عن المسلمين فى الإمارات الإسلامية ومحاولة وقف حرب الإبادة عنهم وعقد هدنة بين الطرفين .

وقد قام الشيخ الإمام الزيلعى فخر الدين عثمان بن يوسف بالجلوس فى

الأزهر الشريف حيث تحلق حول الطلاب فى حلقة دراسية قام فيها بالتدريس والافتاء على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ، كما أن له العديد من المؤلفات منها مؤلف بعنوان (تبين الحقائق فى فقه الحنفيه) وهو شرح على كنز الدقائق للنسفى ، كما أن الشيخ جمال الدين الزيلعى قد وجه اهتمامه بالدراسة والبحث فى علوم الأحاديث حتى صار حجة فى ذلك العلم ، وقد اهتم اهتماما خاصا بتخريج الأحاديث الواردة فى تفسير كشاف الزمخشرى وأحاديث الهداية فى ذكر الشافعية وألف فى ذلك كتابا بعنوان (نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية) وقد توفى ودفن بالقاهرة عام ١٣٦٠ م وهكذا أدت مصر دورها فى سلطنة زيلع التى كانت إحدى إمارات الطراز الإسلامى حيث ساهم المصريون فيها بنشر الإسلام واللغة العربية منذ مطلع وانتشار الإسلام فى مصر وظل ينتشر بها رويدا رويدا حتى غلب على أهلها وصار دين الأغلبية ثم تكونت بها سلطنة إسلامية سرعان ماامتد نفوذها وأرسلت أبناءها إلى الأزهر الشريف حيث يعودون ليتولوا العديد من المناصب القيادية فى بلادهم بعد حملهم شهادة الأزهر .

وقد كان طلاب الإمارات الإسلامية وبلاد الساحل شرق أفريقيا يأتون للدراسة فى الجامع الأزهر وأعمارهم فوق العشرين ، وأكثرهم لايحفظ القرآن الكريم كاملا ، وكثيرا منهم يكون قد طلب العلم فى بلاده قبل قدومه إلى الأزهر للتعمق فى دراسة العلوم الإسلامية ، فإننا نجد أن طلاب وأبناء هذا الاقليم الذين تعلموا ودرسوا فى الأزهر الشريف قد ساهموا بنصيب كبير عند عودتهم إلى بلادهم بالمشاركة فى شتى نواحى الحياة الثقافية والفكرية ، وأن هؤلاء المتعلمين فى الديار المصرية لم يقتصر نشاطهم على الجوانب المهنية فقط بل كانوا من خلال نشاطهم الدينى يبعثون روحا إسلامية صحيحة تقوم على الفهم الواعى والإدراك السليم الواسع للحياة الإسلامية العربية . ولم تقتصر هذه النهضة التى بعثها هؤلاء العلماء على الجوانب النظرية بعد أن تعدتها إلى الجوانب العلمية .

ولقد تركت تلك الصلات والروابط والدور المصرى البارز والمؤثر فى تلك المناطق نوعا من التعاطف والترابط الثقافى الرائع ، وذلك بسبب العلاقات الجدية الوثيقة التى نماها الإسلام بين المصريين والعرب والأفارقة سكان تلك المناطق وذلك لأن أبرز مظاهر الحضارة العربية والدين الإسلامى هو

الحماس الشديد المتزايد للعلم والثقافة ، فقد ترك الإسلام أثرا عميقا وساهم فى إثراء الحركة العلمية الثقافية ، فقد اعترف الأفارقة سكان تلك الأقاليم وغيرها من المناطق الأفريقية للمصريين والعرب والمسلمين بالتفوق الثقافى ، إضافة إلى أن تأثير مصر كان واضحا فى مضمار الرقى الحضارى والثقافى لتلك المناطق ، وكان من أثر التفوق الثقافى المصرى أن توطدت العلاقة بين الأزهر ومدارس القاهرة ومصر الإسلامية وبين أبناء وطلاب هذه البلاد الذين شدوا حالهم إلى تلك القلاع العلمية والفكرية فى مصر .

وكان هؤلاء العلماء والمشتغلون بالعلم يعودون إلى بلادهم لمتابعة نشاطهم العلمى ، ولا يستبعد أن يكون نفراً من هؤلاء المصريين ورجال دينها وعلمائها قد شدوا الرحال ورحلوا إلى مدن شرق أفريقيا فى صحبة القوافل التجارية أو عرجوا إليها أثناء رحلتهم التجارية إلى الهند أو بعد أدائهم فريضة الحج وأقاموا بها بعضا من الوقت أو استقروا بها استقرارا نهائيا وتزوجوا هناك من بنات هذه المدن . فابن بطوطة الذى زار مقديشو فى القرن الرابع عشر يشير إلى وجود أحد الفقهاء المصريين المشهورين وهو محمد بن إبراهيم القوصى فى مدينة زيلع والذى كان يتحلق حوله الطلاب والقوم فى مسجد المدينة الكبير لتدريس العلوم الإسلامية بالإضافة إلى وجود شيخ آخر كان له أبعد الأثر فى زيلع هو ابن البرهان المصرى الأصل .

وإذا كانت مصر قد تركت أثرا واضحا وقويا فى حياة نصارى الحبشة من حيث مداومة إرسال البطريركية المصرية للمطران المصرى للحبشة كلما طلب النجاشى ذلك ، حيث كان هؤلاء المطارنة المصريون يقومون بأداء دور دينى رائع ودور ثقافى فى حركة التعليم الدينى المسيحى ، وكذلك ماقام به هؤلاء المطارنة من دور فى حركة الترجمة لا سيما الانجيل وغيره من الكتب الدينية إلى اللغة الأمهرية لغة الحبشة . ومن ذلك ما قام به الأب سلامة الثانى من أثر فكرى وثقافى وعلمى بالغ فى حياة شعب الهضبة (الحبشة) حتى إنه يمكن القول إن الأب سلامة المصرى يرجع إليه الفضل فى وضع بذور المكتبة الدينية بالحبشة حيث قاد حركة الترجمة من العربية إلى اللغة الأمهرية .

إلا أن الدور المصرى قد ترك أثرا عميقا وتأثيرا بالغا فى حياة المسلمين فى تلك البلاد . هؤلاء المسلمون الذين كرس سلاطين المماليك فى مصر أنفسهم

لحمايتهم والدفاع عن وجودهم ولمحاولة شد أزرهم للوقوف فى وجه زحف الهضبة المسيحى وتقديم كل عون أدبى ومادى كلما اضطرتهم الظروف لذلك . على أن علاقة مصر السياسية بملوك الحبشة كانت تتأثر بما يلقاه هؤلاء المسلمون من معاملة وحسن جوار مع هؤلاء الأحباش ، حيث إن كل ذلك كان يؤدى إلى تحسن العلاقات وربما إلى قطعها وتجميدها فى بعض الأوقات عندما تشتد الأزمات على مسلمى الإمارات الإسلامية . ولقد ترك الأثر المصرى إضافة إلى الآثار العربية القادمة من شبه الجزيرة العربية بصماته على الحياة اليومية وطبيعة الحياة فى المدن الإسلامية الواقعة فى شمال (مقديشو) مما ساعد على إشاعة جو من الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة ، فقد كان هؤلاء المسلمون فى نضال وجهاد مستمرين مع مسيحيى الهضبة فى محاولة للحفاظ على وجودهم ، ومن هنا فقد طبعت هذه الثقافة بطابع دينى عميق ، فقد رأينا عند الحديث عن حركة النضال الإسلامى ضد الهضبة كيف سيطر هؤلاء الفقهاء والعلماء ورجال الدين على مقاليد الأمور والسياسة فى البلاد ، وهؤلاء لاشك أنه يوجد بينهم من تلقوا علومهم ودراستهم فى الجامع الأزهر أو تعلموا على أيدى المصريين فى بلادهم ، ثم نرى كيف تحكم هؤلاء العلماء فى الحركة السياسية للبلاد ، وكيف استطاعوا أن يسيطروا عليها ، وأن يقودوا حركة النضال والجهاد الإسلامى حيث كان هؤلاء العلماء من وراء حركة النضال والجهاد التى اضطلع بها سلاطين عدل أو الامراء الأئمة الذين ظهروا فى هذه البلاد منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، فقد كان هؤلاء الفقهاء يشتركون فى القتال ويحرضون عليه ، واشتركوا فى حركة القتال والجهاد التى اضطلع بها سلاطين عدل وجهاد السلطان محفوظ والجرادايون وحركة جهاد الإمام أحمد إبراهيم القرين التى كادت تسقط عرش الأباطرة فى الحبشة لولا مساعدة القوات البرتغالية وسوء إدارة الإمام وتخطيطه للمستقبل العسكرى حيث استغنى عن القوات التركية التى قدمت من اليمن لمساعدته بعد أن حقق بعض الانتصارات الرائعة ، وكاد أن يدخل الهضبة بعد أن صعدت القوات الإسلامية إلى القرب من بحيرة تانا .

لقد برز رجال الدين والعلماء والفقهاء وكان لهم دورهم فى توجيه الأمور الدينية حيث كان هؤلاء الأمراء والسلاطين يأتمرون بأمر فقهاء البلاد

ويتلقون منهم التوجيه والارشاد ، وقد اصطبغت البلاد والحياة بالطابع الإسلامى فى هذه الإمارات منذ القرن الخامس عشر حتى أننا نجد العلماء يتشددون فى تطبيق التعاليم الإسلامية بصورة من يتعمق فى فهم الأمور الدينية ، فقد أشار المقريزى إلى هذا الطابع الإسلامى الصحيح المتشدد بقوله : وهم يتشددون فى عقيدتهم ودينهم تشددا زائدا ويعادون من خالفهم فى سائر الملك أشد عداوة ، كما لاحظ شدة محافظتهم على التمسك بأمور دينهم أشد التمسك والمحافظة إلى درجة تصل إلى حد المغالاة ، وأن هناك بعض الإشارات الواضحة التى أشار إليها بعض الكتاب والمؤرخين فى تلك العصور والذين منهم المقريزى وابن بطوطة والعمرى ، وكذلك عرب فقيه إلى أن أمراء الإمارات الإسلامية المحيطة بالهضبة الحبشية فى الشمال والشرق والجنوب كانوا يضطلعون بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين شعوبهم ، ومحاولة الحض على التمسك بالكتاب والسنة والقيم الإسلامية والاقتداء برسول الله «صلى الله عليه وسلم» وصحابته الكرام بالصالحين من رجال الدين الإسلامى ، بل مضى بعضهم إلى أبعد من ذلك فنجد الأمير (الجراديون) يبطل شرب الخمر واللعب والرقص والطبول ، وكذلك فعل من جاء بعده من الأمراء نفس الشىء ، ومن ذلك فإننا نجد بنظرة الى أفعال وأعمال الأمراء من الطابع الإسلامى الأصيل والعميق والواعى والمدرك للأمور الدينية قد غلب على الحياة الثقافية الإسلامية فى العديد من هذه الإمارات ولا سيما فى المدن الكبرى حيث القدرة فى التحكم فى تنفيذ التعاليم الإسلامية بصرامة وشدة ، فنجد العمرى يذكر أن مدن وبلاد الساحل الأفريقى الشرقى المطلة على ساحل البحر الأحمر والداخلية فقد أضحت الصورة الإسلامية واضحة كل الوضوح حيث تشاهد انتشار المساجد والجوامع على نطاق واسع والتى تقام بها صلاة الجمعة وإلقاء الخطب والتدريس ، إضافة الى انتشار الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الإسلامية ، بل إنه يوجد العديد من أهلها من حفظة القرآن الكريم والمحافظة على حفظه ومداومة قراءته ، إلا أنهم لا تعرف عندهم مدرسة بالمعنى المفهوم المتعارف عليه فى مصر فى ذلك الوقت ولا توجد خانقاه ولا رباط ولا زاوية لكن يوجد منهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء .

إن كل هذه الأمور المشار إليها تحدد لنا ملامح الحركة العلمية والفكرية

والتعليمية فى هذه البلاد وطابعها الذى لا يوجد أدنى شك فى أن انتشار الإسلام بتلك المناطق كان مصحوبا بنشاط علمى إسلامى واضح ، حيث إن قرب الصلة والنقلة والرحلة بين تلك المناطق إلى الديار المصرية لاسيما أنه لا توجد موانع وعوائق طبيعية سواء عن الطريق البحرى أو الطريق البرى ، جعلت الصلة تزداد مع مصر حيث الأزهر الشريف كعبة العلم فى ذلك العصر حيث كان على هؤلاء العلماء وطلاب العلم والمعرفة الذين يقصدون مصر أن يتجهوا عبر الطريق البرى الشمالى الموصل إلى القاهرة أو يركبوا السفن الى ميناء عيذاب الذى لا يبعد كثيرا عن ديارهم ، ومن عيذاب يأخذون طريقهم إلى مدن الصعيد حيث مدينة قوص التى كانت تشهد حركة علمية واسعة فى ذلك الوقت بعد أن اتخذها تجار الكارميه مقرا لهم ونشطت بها الحركة التجارية والاقتصادية ، وقد ساعد ذلك على انتشار المدارس وانتشار الحركة العلمية ، بل أن من هؤلاء الطلاب من كان يشد الرحال شمالا إلى القاهرة حيث الأزهر الشريف كما أننا لا ننكر دور اليمن ومدارس صنعاء وتعز الإسلامية .

ولقد كان ذلك النشاط العلمى الإسلامى من الأسباب القوية لدخول الأحباش فى الدين الإسلامى واستجابتهم للمؤثرات الإسلامية الواضحة والصريحة ، وكذلك اتجاههم إلى تقبل تلك الحركة العلمية القادمة من مصر موطن الأزهر وبلاد الجزيرة العربية مما كان سببا فى ارتفاع مستواهم الثقافى والعلمى وظهور العديد من العلماء ورجال الدين والفقه والذين سبق الإشارة إليهم والذين اشتهروا وذاعت أسماؤهم فى عالم القاهرة حيث تصدروها للتدريس والوعظ والفتيا والتأليف بعد أن ظهرت للعديد منهم بعض المؤلفات التى مازالت إلى اليوم تسجل نشاطهم العلمى الإسلامى ، وتوضح كيف شارك أبناء زيلع وغيرهم من المدن الإسلامية فى شرق أفريقيا إخوانهم المصريين والعرب والمسلمين فى إثراء الحركة العلمية الإسلامية بما تركوه حتى اليوم من مؤلفات إسلامية علمية فى الفقه والحديث والتفسير والفرائض والمواريث بل فى علوم اللغة العربية أحيانا أخرى . ولقد ترك التأثير المصرى دوره فى ظهور العديد من العلماء والفقهاء ورجال الإدارة فى كل بلاد الحبشة بما فيها المنطقة الهضبية المسيحية حيث أشار إلى ذلك توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » بقوله «إن

بعض رجال أوروبا الذين كانوا يصلون إلى بلاد الحبشة كثيرا ما لاحظوا أثناء تنقلهم فى بلاد الحبشة الواسعة أن الوظائف التى تتطلب خبرة ودراية واسعة ومستوى تعليميا وثقافيا معينا لا يشغلها إلا المسلمون ، ويعلل أحد هؤلاء الأوروبيون وهو سير (ربيل) ذلك تلك الظاهرة التى يتولى فيها المسلمون العديد من الوظائف الهامة بقوله إن المسلمين أعلى همة وأكثر نشاطا وقدرة وأرفع من ناحية المستوى الثقافى والتعليمى ، ذلك لأن أبناء الإسلام قد التزموا منذ نعومة أظافرهم بتعليم أبنائهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم كاملا ، وبجانب ذلك يبرعون فى الكتابة وتعلم الحساب وبعض العلوم الأخرى التى تتوافر كتبها فى البلاد أو يكون شيخ الكتاب له دراية بها ومعرفة سابقة بطرق شرحها وتوضيحها للطلاب ، كذلك فى الوقت الذى كان فيه أبناء المسيحيين يميلون إلى الخمول ولا يتعلمون أية علوم إلا إذا أرادوا الانتظام فى سلك الكهنوت حيث يصبحون قسا أو شمامسة أو مطارنة وهذه كلها رتب دينية وليست علمانية .

ولقد انتشرت الكتاتيب الصغيرة فى كل أنحاء المدن والقرى الإسلامية ، وفى أى تجمع إسلامى ، بل أن أبناء المسلمين كانوا يرحلون لمسافات طويلة لتلقى وحفظ القرآن الكريم من فقيه أو شيخ القرية فى المناطق الداخلية ، إضافة إلى ازدهار التعليم بصورة أكثر فى المدن الساحلية ، ولكن نور التعليم وطرق التدريس التى كانت متبعة لم تصل إلى المستوى الذى كان سائدا فى مصر أو الحجاز أو صنعاء أو غيرها من البلاد العربية الإسلامية ، ومن ذلك يحدثنا العمرى فى كتابه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار بقوله إنه لم يظهر ببلاد الإمارات الإسلامية الحبشية نوع من المدارس الراقية التى ظهرت فى مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية ، ولكن كانت مدارس بسيطة تحفظ القرآن الكريم وتعلم القليل من العلوم الإسلامية دون التبحر فى التفاصيل والتعمق فى الدراسة مثلما كان فى الأزهر ، وأن ذلك يعود للظروف الاقتصادية حيث إن انشاء هذه المدارس بصورة واسعة كان يحتاج إلى الأموال الطائلة التى تواصل الصرف على الأساتذة والمشايخ والطلاب والعمال ، وكان ذلك يقتضى وجود وقف وحبس بعض الأراضى الزراعية والعقارات وغيرها من المصالح التى تدر أموالا على هذه المدارس ، كما أنه قد يكون هناك سبب آخر فى عدم ظهور هذه المدارس بصورة معروفة والتى

منها سهولة الرحلة وحركة النقلة والاتصال بين هذه المدن وبينها وبين الأقطار والأمصار الإسلامية المختلفة والتى منها بصفة خاصة الأزهر الشريف ، وذلك جعلهم يطلبون العلم فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية . ونحن هنا لاننكر دور مدن الحجاز كمكة المكرمة والمدينة المنورة ومدن اليمن كصنعاء وزبيدة وغيرها من مدن اليمن التى شاركت الأزهر ومدارس مصر فى إثراء الحركة الثقافية والفكرية والعلمية فى مناطق الساحل الأفريقى الشرقى ، وإن كان دور مصر هو الدور الغالب والمؤثر والفعال رغم قرب المسافة بين تلك الإمارات وبلاد اليمن والحجاز .

وأنه إذا ألقينا نظرة فاحصة على مدن ساحل شرق أفريقيا الجنوبية الواقعة جنوب مقديشو كسفاله ودار السلام ويمبا وكلوه وزنجبار وغيرها من المدن المنتشرة على ذلك الساحل الجنوبى ، فإننا نستطيع القول إن التأثير المصرى لم يكن واضحا كل الوضوح فى تلك البقاع كما هو واضح فى المناطق شمال مقديشو ومنطقة أريتريا والحبشة وإمارات الطراز الإسلامى ، لكن ذلك لا ينفى رحيل بعض طلاب هذه المدن إلى مصر حيث الأزهر وذلك صحبة حركة التجارة البحرية المتجهة شمالا إلى مصر ، إلا أن ذلك لم يكن بالصورة الكثيفة التى كان يتم بها رحيل أبناء المدن الشمالية إلى مصر الأزهر ، وقد يكون التأثير الإسلامى الثقافى العربى فى تلك المناطق الجنوبية يعود للدور الذى لعبه أبناء جنوب الجزيرة العربية كاليمن ومسقط وعمان وبقية دول الخليج العربى حيث قرب المسافة ومواصلة الاتصال الدائم ، ومن هنا كان التأثير المصرى ليس بالصورة الفعالة ، وإن كان الأزهر قد ترك بثقافته وعلمه بصماته واضحة جلية فى بعض الذين شدوا الرحال إليه حيث كان كل طلاب العالم الإسلامى يشدون رحالهم إلى تلك الكعبة العلمية من مختلف بقاع العالم الإسلامى المختلفة .

ويبدو أن الحياة الثقافية والعملية والفكرية فى السلطنات الإسلامية الجنوبية قد كانت أكثر ازدهارا ، وأن ملامح الثقافة العربية الإسلامية كانت أكثر وضوحا لاسيما بعد استقرار وقيام السلطنات الإسلامية القوية كما حدث فى زنجبار وكلوه ويمبا وسفاله وغيرها من المناطق الساحلية والجزر العربية من الساحل حيث كانت تلك السواحل تشهد اندفاع جماعات من العرب من سواحل الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية لا للتجارة بل للإقامة الدائمة

حيث أنشأت تلك الجماعات وحدات إسلامية على طول الساحل من شماله إلى جنوبه ذات طابع إسلامى صرف ، بل أن هذه الوحدات أخذت تتطور من مجرد مراكز تجارية إلى مدن يحكمها عرب مسلمون أو سواحيليون أو يعيش فيها مزيج من هؤلاء جميعا ، وكانت بعض هذه الوحدات خاصة تلك التى قامت فى الجزر ، ذات طابع عربى إسلامى وثقافة عربية إسلامية وكأنها صورة طبق الأصل لتلك المدن التى توجد على ساحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية بينما لم تتخذ بعض مدن الساحل فى المرحلة الأولى الصبغة العربية الإسلامية والثقافة الإسلامية إلا بصورة اسمية لكن قبل نهاية القرن الخامس عشر شهدت تلك المدن كما لندى وبراوه وسفاله ودار السلام بعدا إسلاميا عميقا إذا تأثرت تلك المدن بالصبغة الإسلامية ، وبدأت تأخذ طابعا إسلاميا بل امتد ذلك حيث شهدت المناطق الداخلية فى حوض الكونغو ومنطقة البحيرات الاستوائية ظهور تجمعات عربية إسلامية مختلفة مع سكان البلاد الأصليين حيث ظهرت ملامح ومآثر الثقافة العربية فى هذه المناطق . وقد ترك العرب المسلمون مآثرهم الإسلامية فى تلك المناطق حتى سفاله وهى أقصى بلاد الزنج إلا أنه بكل أسف فقد تعمدت بعض المصادر الأوروبية التقليل من الدور العربى الإسلامى فى شرق أفريقيا الجنوبى فذكرت أن الهدف التجارى الاقتصادى هو تجارة الرقيق التى كانت هى دافعهم الوحيد ، أما الدوافع الأخرى الإنسانية أو الحضارية التى حركت المسلمين فلم يهتم بها الأوروبيون والحقيقة التى لا جدال فيهما تلك المدن والتجمعات الإسلامية التى مازالت حتى الآن تشهد على ذلك وإلا كيف ظهرت تلك الرعية الإسلامية فى الصومال وأريتريا وكينيا وتنزانيا وموزمبيق وغيرها من بلاد شرق القارة الأفريقية والتى تدل على اختلاط العناصر العربية الإسلامية والعناصر الوطنية الأفريقية وظهور المولدين الذين اتخذوا اللغة العربية والسواحيلية على الأكثر لغة لهم والتى بها أكثر من ٦٥٪ من المفردات والألفاظ العربية ، وهل بعد انتشار الإسلام على هذا النطاق الواسع والذى أوقف البرتغاليون المتعصبون زحفه ومن جاء بعدهم من الأوربيين كالألمان والانجليز والفرنسيين والايطاليين إلى شرق أفريقيا ماهو خير شاهد على الدور المصرى العربى الإسلامى .

وقد تحدث البرتغاليون وسجلوا إعجابهم بما وجدوه من مدن وتجمعات

متحضرة على ساحل شرق أفريقيا ، وتجارة مزدهرة مع مصر والشرق الأقصى والهند . فقد كتب أحد الرحالة البرتغاليين يقول إنه ما أن وصلت المراكب الصغيرة التى كان يقودها فاسكودى جاما إلى سفاله فى شرق افريقيا فقد فاجأت مدينة سفاله المتحضرة البرتغاليين مفاجأة لم يكن يتوقعها أحد ، فقد لقى التجار مالم يكن فى حسبانهم حينما خرجوا يضربون فى البحر ، لقوا مرافىء تطن كخلايا النحل ومدنا ساحلية عامرة بالناس ، وفوجئوا حين وجدوا بين التجار العرب والهنود رجالا عبروا المحيط الهندى عدة مرات ويعرفون من أجل ذلك دقائق مرافئه ، وسجلوا هذه الدقائق فى خرائط متقنة لا تقل فائدة عما كانوا يعملونه هم من خرائط فى أوروبا ، رأى البرتغاليون على هذا الساحل مدنا آهلة بالسكان لاتقل نشاطا عن مدنهم فى البرتغال ، كما رأوا تجارة بحرية نافعة فى الذهب والحديد والعاج والخرز وجلود السلحفاة والأقمشة القطنية وغيرها من المواد الأخرى ، وجدوا عالما تجاريا أوسع من عالمهم الذى جاءوا منه وأكثر ثراء من بلادهم ، وحتى السفن التى وجدها البرتغاليون كانت أكبر من سفنهم فقد كانت عابرات المحيط الهندى آنذاك أكبر من سفن (دى جاما) وأضخم حجما ، حتى لقد عجب سكان الساحل من أين جاء البرتغاليون وكل البلاد عندهم معروفة .

ولقد كان قدوم البرتغاليين وسيطرتهم على مدن الساحل وضربهم لهذه المدن بمدافع الأسطول من الأسباب القوية التى دفعت حركة المد الإسلامى إلى الداخل ، إذ صحب الغزو البرتغالى لمدن ساحل شرق أفريقيا انتشار الإسلام بين القبائل الداخلية بسبب فرار العرب المسلمين من الساحل إلى الداخل خوفا من بطش البرتغاليين بهم ، وهذا الأمر تكاد تلحظه أكثر ماتكون وضوحا بالنسبة لاعتداء البرتغاليين على المدن الصومالية كمقديشو وزيلع وبربره واتجاه المسلمين إلى الداخل حيث انتشر الإسلام بين القبائل الصومالية بصفة خاصة .

كل هذه الأمور فى انتشار المد الإسلامى للداخل قد ساعد على انتشار الثقافة العربية الإسلامية وظهور الحركة الأوروبية العلمية والثقافية والفكرية فى البلاد ، مما له أبلغ الأثر فى صبغ الحياة العامة بالصبغة العربية الإسلامية سواء من حيث انتشار اللغة العربية وتداخلها مع اللغة السواحيلية التى لم تكن معروفة قبل قدوم العرب والمسلمين إلى تلك الديار ،

أو من حيث رسوخ العقيدة الإسلامية وتعمق مفاهيمها وانتشار الحمية الدينية فى كل مكان ، بل أن تلك الاماكن قد ظهر فيها من تعلموا بالأزهر الشريف وتحملوا مشاق الرحلة البحرية الطويلة من لامو Lamo إلى القاهرة والذين كان منهم الشيخ السيد عبد رويس من أهل لامو فقد كان فقيها متصوفا وعميق النزعة الإيمانية . وقد قام ذلك الشيخ بالوعظ والارشاد بين المسلمين وأماكن العبادة حيث كان المسجد بمثابة مدرسة لإلقاء الدروس الدينية ، بل كانت بعض المساجد توجد بها ملاحق عبارة عن غرف صغيرة تستخدم فى تحفيظ القرآن الكريم ، ومن هنا فإن منطقة شرق أفريقيا الجنوبية قد شهدت تأثيرا مصريا حضاريا وثقافيا وفكريا تمثل فى ظهور العديد من أبناء تلك البلاد الذين تلقوا تعليمهم فى الأزهر الشريف .

كذلك فإن التأثير الحضارى المصرى لم يقتصر على الساحل ومدنه بل تخطى الحدود الساحلية حيث تعمق فى الهضبة الداخلية للحبشة لاسيما أنه كانت هناك علاقات اقتصادية متواصلة مع تلك البلاد ، ومن هنا فقد رحل بعض طلاب المناطق الداخلية إلى الأزهر للدراسة به وفى المدارس المنتشرة على نطاق واسع فى القاهرة ومدن الصعيد والوجه البحرى ، بل الأكثر من ذلك فإن الأزهر لم يكتف بذلك ، بل أن هناك العديد من علماء الأزهر ورجال دينه وصلوا إلى الداخل بصحبة القوافل التجارية البرية للاتصال بإخوانهم فى العقيدة ، بل أن الكنيسة المصرية كانت ترسل مطارنة إلى الحبشة كلما طلبت ذلك ، وكانت الظروف السياسية ملائمة لذلك ، فكيف لا يقوم الأزهر بممارسة دوره فى مجال الحركة التعليمية فى البلاد .

بل الأكثر من ذلك فإن الأزهر الشريف استمر فى ممارسة نشاطه ودوره القيادى فى قيادة المسيرة العلمية والدينية فى العالم الإسلامى ، بل وفى كل بقعة يقطن فيها تجمع إسلامى ، ومن ذلك فإننا نجد أنه فى عام ١٩٢٨م تقوم إدارة الأزهر الشريف بإرسال بعض المدرسين المصريين الأزهريين فى مختلف التخصصات الإسلامية إلى المدرسة الأهلية الإسلامية فى الحبشة حيث تمارس المدرسة نشاطها الإسلامى فى أديس أبابا العاصمة وكان الأزهر يقوم بتحمل كل ما يتطلبه هؤلاء المدرسون الأزهريون لمساعدة المدرسة الأهلية الإسلامية الحبشية بما تحتاج إليه من كتب دراسية وأدوات . وقد أدت هذه البعثة الأزهرية واجبها على أحسن وجه وبأكمل صورة أخوية مصرية

إسلامية مما جعلها موضع احترام وتقدير ، كما أن الأزهر الشريف يقوم بإرسال بعثات ومدرسين مصريين إلى مختلف بلاد شرق أفريقيا جميعها .

وهكذا نرى كيف أن مصر مارست دورها بكل ماهو واجب أخوى إسلامى عليها تجاه أخوة الإسلام فى مناطق شرق القارة الأفريقية ، وبالإضافة إلى قيامها بدورها كذلك من ناحية ربط الصلة بين الكنيسة المصرية وكنيسة الحبشة والتى كانت الأمور السياسية تستدعى القيام بمثل تلك الأعباء ، لأن قدر مصر فى العطاء أكثر مما هو فى الأخذ ، فهى مؤثرة على نفسها ولو كان بها خصاصة .

وكذلك يتضح من هذا العرض السابق كيف أن مصر أدت واجبها الثقافى والعلمى والفكرى تجاه كل هذه الشعوب ، وأخذت بيدها إلى مدارج الرقى والتحضر بفضل انتشار الإسلام والمفاهيم الثقافية العربية الإسلامية .

لقد أدت مصر دورها وواجبها الإنسانى تجاه أخوة الإسلام والأفارقة فى شرق ووسط القارة ، وكان الدور الثقافى الإسلامى المصرى واضحا بفضل دور الأزهر الشريف فى تلك البقاع .

الباب الرابع

دور مصر الحضارى فى بلاد المغرب (شمال أفريقيا)

الفصـــــل الأول

دور مصر السياسى فى بلاد المغرب (شمال أفريقيا)

إذا كانت مصر قد أدت دورها الحضارى بجميع جوانبه المختلفة سواء منها السياسى والاقتصادى والثقافى فى كل منطقة وسط وغرب القارة الأفريقية ، كما أدت دورها بصورة فعالة ومؤثرة وبالغة فى منطقة شرق ووسط القارة ، فكيف يكون الدور الذى قامت به مصر فى بلاد المغرب العربى أو مايطلق عليه المؤرخون الغربيون شمال أفريقيا ، لاشك فى أن الصورة تكون أكثر وضوحا وأكثر فاعلية ، ذلك لأن النطاق المصرى ماهو إلا امتداد طبيعى للحدود الجغرافية المغربية ، فمكونات الشعبين المصرى والمغربى تكاد تتطابق فى جميع المكونات ، وعلى هذا فإننا نكاد نشهد شبه تطابق إن لم يكن تكاملاً فى جميع الأوجه السياسية والاقتصادية والثقافية بين مصر وبلاد المغرب العربى . وقد أعطى هذا بعدا مغايرا للدور المصرى عن تلك المناطق التى عرضنا لها فى الأبواب والفصول السابقة ، وعلى هذا

فإنه يمكن القول أن أنوار الدعوة الإسلامية ما كادت تشرق على الديار المصرية حتى بدأت تتجاوز حدود مصر الغربية منطلقة إلى بلاد المغرب المجاورة لمصر ، بل بدأت تقهر البزنطيين فى مصر ، فقد تحركت الدعوة الإسلامية برجالها بعد تسليم مدينة الإسكندرية آخر المعاقل المصرية غربا لكى تتوغل القوات العربية مخترقة برقة وطرابلس حتى كادت تقترب من حدود تونس ، إلا أنه رغم هذا النصر السريع فإن المسلمين عادوا أدراجهم مرة أخرى إلى مصر .

ولقد اتخذ المسلمون مصر مركزا متقدما فى أفريقية للانطلاق منه للغزو فى عدة اتجاهات حيث خرجت منها العديد من الغزوات التى اتجهت للفتح جنوبا صوب بلاد النوبة المسيحية كما اتجهت منها القوات الإسلامية لفتح الشمال الأفريقى حتى وصلت إلى المحيط الأطلسى ، وكانت الأموال المصرية والأزواد المصرية وكل ماتحتاج إليه القوات الاسلامية من مصر فهى التى أمدت هذه القوات بكل ماتحتاج إليه ومونتها فى كل الغزوات ، بل أن الولاة الذين كانوا يتولون شئون مصر السياسية هم الذين كانوا يقودون الغزوات ، حتى لقد أصبح استمرار الوالى فى مصر مرتبطا بنجاحه فى غزو جزء من الشمال الأفريقى وتحقيق بعض الانتصارات .

بل أننا إذا أردنا أن نحدد ونذكر الغزوات العربية الإسلامية التى انتهت بفتح ذلك الجزء من أفريقيا خروجا من مصر ومن أجل ماتكبدته مصر من أموال ومتاع وأقوات ووسائل نقل وكل ماتحتاج إليه تلك الغزوات ، لأدركنا ماهو الدور النشط والبالغ القدرة الذى لعبته مصر فى كل هذه الأدوار ، وماهى الأعباء التى كانت تقع على كاهل مصر من أجل احتواء ذلك الجزء لكى ينضم تحت لواء الإسلام ، ولكى يضيف قوة إلى قوة الأمة العربية الإسلامية ، ولكى يعتبر امتدادا طبيعيا للعمق الإسلامى للذود عن حدود مصر الغربية ، ومن هنا كان توجه الحملات المصرية والغزوات الحربية لفتح شمال أفريقيا بحيث جعلت هذه البلاد لفترة من الزمن جزءا من ولاية مصر لكى تباشر أداء رسالتها الروحية والثقافية فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية ، بحيث ظل ذلك الجزء فترة من الزمن مسرحا لنشاط الغزوات الإسلامية لاطوائه تحت الراية الإسلامية لتوسيع رقعة الدائرة الإسلامية لكى يمكن لدين الله الخالد دحر ظلم الطاغوت وتحرير الأخوة

وأبنـاء العمومة من سيطرة الرومان ، وكـذلـك لـدفع الحميـة الإسلاميـة فى نفوس الجنود المسلمين المتمركزين فى مصر لكى يحرروا مزيدا من الأراضى التى سيطر عليها الرومان من أجل تدعيم المفاهيم والمبادىء الإسلاميـة ، فـأغـار على ذلـك الجزء عبـد اللـه بن سعـد بن أبى السرح عـام ٢٧هـ ثم معـاويـة ابن خريـج عـام ٤٥هـ ثم روبيـع بن ثـابت الانصـارى عـام ٤٧هـ ثم معـاويـة بن حسـان عـام ٥٧ ه وكأنما كانت تلـك الغـزوات مقـدمـة لمـا حـدث بعـد ذلـك من غـزو شامل بقصد الاستقرار والفتح الدائم (انظر إبراهيم العدوى ، مصر الإسلامية مقوماتها القومية ورسالتها الحضارية) وإقامـة مجتمع إسلامى ثـابت ، فكانت الجنود المصريـة هى التى تقوم بمسـاعـدة القوات بـالأمـوال المصريـة والعتـاد والزاد وكل مايحتـاج إليـه جنـد الإسلام ، كما كان ولاة مصرهم الـذين يقـومون بهـا أو يـدفعون القوات إليهـا كما فعـل مسلمـة بن مخلـد حين وجـه حسـان بن النعمان الغسانى ، ووجه أيضا أبا المهاجرين دينار وكما فعل سعيـد بن يزيـد حين وجه عقبة بن نافع الفهرى ، وزهير بن قيس البلوى وكـذلـك فعل من تبعهم من الـولاة حتى دانت بـلاد المغرب العربى للحكم الإسـلامى ، كما كانت القـوات المصريـة هى التى قضت على مقـاومـة البيزنطيين ومن عـاونهم من أعداء الإسلام من حين إلى آخر .

فقـد وجـه عقبـة بن نـافـع الفهرى والى مصر لحرب كسيلـة حين قـام بـالثورة ، كما وجـه بعـد ذلـك زهير بن قيس البلوى إلا أن عقبـة بن نـافـع الفهرى عـاود الكرة مرة ثـانيـة فسـار حتى وصـل إلى أقصى حـدود المغرب وصولا إلى ساحل المحيط الأطلسى واتجه جنوبا حتى واحة كوار بـالمغرب من بحيرة تشاد ثم ذهب إلى المغرب غـازيـا للمرة الثـالثـة زهير بن قيس البلوى حين اندفع فى زحفه غربا حتى حدود تونس إلا أنـه اضطر للعودة إلى برقـة لتنظيم صفوف قواته ، وفى كل هذه المرات كانت القوات العربية المصرية هى التى تسد النقص الذى يحدث بين صفوف القوات وتقوم بتجهيز تلـك القوات من الخزانة المصرية وبكل ماتحتاج إليه .

وعندما أحس زهير بن قيس البلوى بأن الاستعدادات العسكريـة قـادرة على الزحف ، تحرك وهزم المقاومـة البربريـة وتقـدم غربـا حتى استطـاع أن يـدعم الوجـود الإسـلامى عـام ٦٨هـ ، ثم بـدأ الأمر يثبت للعرب والمسلمين فى ديار المغرب ، إلا أن هذا الانتصار لم يكن يعنى استقرار الأمور هناك ، فقـد

ظل أهل المغرب ثائرين إلا أن القوات العربية المصرية والأموال والزاد المصرى كان يصر دائما على مواصلة واستمرار الفتح والغزو وضم المغرب لدائرة الإسلام حتى قتل زهير بن قيس البلوى ، ولم تستقر الأمور نهائيا فى بلاد المغرب إلا حين عمل موسى بن نصير على مساواة المغاربة البربر مع إخوانهم العرب القادمين من مصر فى كل الأمور .

وأنه لا يوجد مايدعونا إلى التوسع فى ذكر الحملات العربية والغزوات التى خرجت من مصر لكى يتم اطواء المغرب تحت الراية الإسلامية ، لأن ذلك قد يخرجنا عن دائرة البحث ، لكن كل مايمكن قوله إن عمليات الفتح المتتالية قد انتهت بتحرير أخوة العروبة (انتساب البربر الى العروبة من القدم دراسة التاريخ القديم منذ الفنيقيين) فى ذلك الجزء الشمالى من القارة الأفريقية وانهاء الحكم البيزنطى ودخول ذلك الجزء من القارة الأفريقية فى ظل اللواء الإسلامى وتحت إدارة الدولة الإسلامية فى دمشق ، بل أنه من ذلك الجزء الأفريقى خرجت الحملات الإسلامية لغزو أوروبا ولفتحها ونجحت عن طريق مضيق جبل طارق فى اطواء جنوب أوروبا تحت لواء الإسلام .

ولقد كان انشاء القيروان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى لهذه البلاد من ناحية ، وفى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية من ناحية أخرى . فقد كان انشاء القيروان الذى تم بالأموال المصرية والقوات المشاركة فى الفتح معناه أن ولاية أفريقية أخذت تتضح منذ انشاء هذه المدينة إذ بدأت تصبح مقراً للولاة والعمال وغيرهم من ذوى السلطان ، وأصبحت الإقامة بالقيروان أول ماتتجه إليه الأبصار من قبل الوالى الجديد بعد أن كان أول الأمر يتطلع إلى مصر ويتعجل العودة إليها .
قد كان انشاء القيروان بداية عهد جديد مؤذنا فى تاريخ البلاد ، ذلك لأن مدينة القيروان أصبحت قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام ، فقد توجه إليها كثيرون من الصحابة وأقاموا بها يفقهون الناس فى شئون دينهم ، كما دفن بها كثيرون ممن استشهدوا فى فتح المغرب . لذلك نجد الرواة والكتاب يخلعون عليها ثوبا من القدسية ويحيطون تأسيسها بكثير من الذكريات والبطولات الإسلامية التى استشهد فيها كثير من الصحابة والتابعين ، وكل ذلك لم يكن من أجل الغنائم أو الأسلاب ، بل كان دافعه

الأول والأخير الجهاد فى سبيل نشر لواء لا إله إلا الله محمد رسول الله ومد رقعة الأرض الإسلامية ، بل أكثر من ذلك فى أداء الدور المصرى أن أغلب ولاة المغرب كانوا ولاة سابقين فى مصر ، فكانت الإدارة المصرية هى التى تمدهم بالخبرة اللازمة لحكم ذلك الجزء فى أفريقيا ، فكان نجاح الولاة فى حكم مصر واكتسابهم المهارات الإدارية والقيادية والخبرات السياسية الواسعة بمثابة اختبار لقوتهم وكفاءتهم وقدرتهم على القيام بأداء الواجب الإسلامى فى قيادة مسيرة ذلك الشعب الاسلامى الأخوى ، بل أنه يرشحهم لحكم بقية أجزاء الساحل الشمالى ، فقد ضمت ولاية برقة إلى حكم مصر حين كان عليها يزيد بن حاتم حكم المنصور العباسى ، كما أعطى الخليفة المتوكل العباسى ابنه محمد المنتصر حكم شاطىء أفريقيا الشمالى كله من العريش شرقا إلى أقصى المغرب غربا ، كما أن كلا من أبى المهاجرين دينار وزهير بن قيس البلوى وعقبة بن نافع الفهرى وعبد الله بن الحبحاب وحنظلة بن صفوان ، قد تولوا جميعا حكم مصر من قبل ان يصدر قرار الخلافة الأموية بتوليهم ولاية أفريقيا وذلك لأن ماكسبوه من مهارات فى إدارة دفة الأمور كان دافعا لهم للتحرك لولاية المغرب . ومن هنا كان فضل مصر عظيما بل دورها لا يمكن أن ينكر أو يجحد فى تلك الأنحاء التى أعطتها خبرة أبنائها وزاد وأقوات شعبها لكى تدعم وتوطد العقيدة الإسلامية بها ، ذلك لأن الذى أعان المصريين والعرب فى انتصاراتهم على البرتغاليين أنهم عملوا على استمالة سكان الشمال الأفريقى وهم عرب ماقبل الإسلام والذين عرفوا باسم البربر لأننا حين نطلق على بربر المغرب اسم عرب ماقبل الإسلام فإن ذلك يرجع إلى إيماننا الأصيل بعروبتهم وانتمائهم إلى جنوب شبه الجزيرة العربية سواء من عمان أو اليمن بل إنهم من السلالات العربية التى هاجرت إلى الشمال الأفريقى بعد الإسلام ذلك لان كلا الفريقين وجد فى الآخر تشابها كبيرا فى كثير من الصفات والعادات ، فالنظام القبلى أساس الحياة الاجتماعية ، وحب الحرية والشجاعة وخشونة الطبع من الصفات الأصيلة فيهم . ولقد كان ذلك التشابه من العوامل التى مهدت لاقتباس البربر لكثير من عادات وتقاليد العرب ، وبذلك خطا البربر أول خطوة على الطريق نحو العروبة الصريحة بتحولهم إلى الإسلام واصطناع لغتهم وثقافتهم .

وهكذا حققت الحملات المصرية لفتح بلاد المغرب عملا مجيدا هو انتزاع

هذه البلاد من البيزنطيين واحلال الطابع العربى الإسلامى بها . وأصبحت تلك البلاد بلادا إسلامية نتيجة المجهودات الحربية التى انطلقت من القاعدة الإسلامية مصر . أفلح حسن إدارة مصر للعمل الإسلامى فى بلاد المغرب وتم صبغ البربر بالصبغة الإسلامية وجعل لسانهم جميعا اللسان العربى ، وأصبحوا شعبا له رسالته فى العالم الإسلامى ، وهذا التطور فى حياة البربر هو الذى يعتبر معجزة الإسلام حيث تمكنت الجهود المصرية فى انشاء وطن جديد أضيف إلى الأوطان الإسلامية الأخرى .

ولقد كان بعد هذا الوطن الإسلامى الجديد عن مركز الخلافة الإسلامية سببا فى هروب أعداء الدولة إليها محاولين اجتذاب أهلها إليهم ، فظهرت بها الفئات المختلفة من العلويين والخوارج الشيعة وغيرها من الفرق الإسلامية الأخرى . وأنه عندما كان يشتد عود هذه الفئات فإن ولاة بلاد المغرب العربى كانوا يستنجدون دائما بولاة مصر فى سحق هذه الثورات ، وكان ولاة مصر لا يترددون لحظة فى إجابة دعوة إخوانهم ولاة المغرب فيمدونهم بالقوات الإسلامية المصرية والمال والعتاد والسلاح . وقد نجحوا فى ذلك إلى حد أننا نستطيع القول إن الجنود المصريين هم الذين أخضعوا هذا الركن من أفريقيا لدولة الإسلام والخلافة ، وأن العبء الأكبر بل الأساسى فى كل ماكان يحتاجه المغرب العربى كان يقع على كاهل مصر من حيث استتباب الامر للدولة الإسلامية فى ذلك الركن من القارة الأفريقية . وقد حرص سلاطين المغرب وولاة الأمور بها وحكام الدول المستقلة على أن تظل العلاقات الحسنة تربطهم بمصر لأنها كانت طريق حجهم الى الأراضى المقدسة فوجدوا عند سلاطين مصر من الاستعداد الحسن مادفعهم إلى أن يكتبوا إليهم الكتب المختلفة شاكرين إياهم على هذا الاستعداد الحسن فى حسن استقبالهم لحجاج بيت الله الحرام وحسن إكرامهم عند عودتهم .

وجدت الدولة الفاطمية فى المغرب واستقرت فى مصر فحرصت على أن يمتد نفوذها إلى بقية شمال أفريقيا ونجحت فى ذلك ، إلا أن نجاحها كان محدودا واستقل المغرب تحت حكم أمرائه المحليين ، وقامت الدول المغربية المختلفة ولكن الخلاف كثيرا ماكان يقع ويحدث بين الأمراء الذين يتنازعون العرش فكان المهزوم منهم يفر إلى مصر حيث يجد من سلاطينها كل عون ومساندة .

فقد قدم إلى مصر الأمير أبو يحيى زكريا الحفصى من أمراء دولة الحفصيين فى تونس عام ٧١١هـ يستنجد بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فأنجده السلطان المصرى بالقوات اللازمة ، ونجحت الحملة المصرية فى مهمتها ، وتم إعادة أبى يحيى بفضل القوات المصرية إلى العرش ، وخطب للسلطان الناصر على منابر تونس (أفريقية) ، فكونت هذه الأجزاء من أفريقيا جزءا من السلطنة المصرية المملوكية للمرة الأولى فى تاريخ العصور الوسطى ، إلا أن حكم ذلك السلطان الحفصى لم يدم طويلا .

وهكذا نرى كيف أن مصر مارست دورها الإسلامى منذ الفتح الأول بل ازداد نفوذها فى تلك الأقاليم الغربية من الديار المصرية ، وكيف ساعدت كل الاجراءات المصرية على حماية هذه الشواطىء الإسلامية من خطر وتهديد الدول المسيحية من بيزنطة والبرتغال وأسبانيا .

وكان للمصريين ، دور رائع فى ظهور البحرية المغربية ، إذ أن حسان بن النعمان الغسانى عندما اتجه إلى انشاء دار صناعة تبنى بها السفن والاساطيل ليغير بها على سواحل البيزنطيين ، واستعان بالمصريين فى تأسيس هذه القاعدة البحرية الجديدة فأرسل يطلب من الخليفة عبد الملك بن مروان أن يبعث إليه جماعة من المصريين ممن لهم خبرة فى بناء السفن . وكلف الخليفة الأموى أخاه عبد العزيز بن مروان وإلى مصر أن يرسل إلى تونس ألف مصرى بأهله وولده ، وأن يعدهم أحسن إعداد بما يكفل لهم الراحة طيلة السفر والوصول إلى أمان . ووصل المصريون إلى تونس وأنشأ حسان بمساعدتهم دار صناعة السفن . وهكذا تولى الصناع المصريون بناء السفن ونشطت حركة الصناعة . وخرجت منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام فى غرب البحر المتوسط بفضل الدور المصرى البحرى الممتاز بل إن حسان ضم أعدادا كبيرة منهم فى قيادة الحملات البحرية وقوى بهم الدين الجديد .

أما عن دور مصر الواضح فى العلاقات السياسية مع بلاد المغرب وهى دولة بنى حفص فى تونس ودولة بنى زيان فى تلمسان ودولة بنى مرين فى فاس والمغرب فقد تنوعت العلاقات بينها وبين مصر فى العصر المملوكى والذى ظهر على أشده بعد انتصارات مصر على المغول والتتار والصليبيين . ونحاول هنا أن نركز على أدوار السياسة المصرية فى توجيه بعض الأمور الداخلية فى المغرب العربى والمبادلات الرسمية من الرسائل بين الأطراف

السياسية فى كل من مصر وبلاد المغرب العربى المختلفة ، فقد كانت هناك روابط حُسن الجوار والإسلام والتبادل الثقافى ثم رابطة الحج باعتبار مصر مجاز الحجاج المغاربة إلى الحجاز .

وقد أثار ابن خلدون إلى انه جاء إلى مصر عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس ، ومن المعروف أن وصول ابن خلدون الى مصر كان من العوامل التى ساعدت على استمرار العلاقات بين مصر وسلاطين المغرب ، فقد عملوا من جانبهم على توثيق الروابط بين بلادهم وبين السلطان الظاهر برقوق ، وتجلت هذه الروابط حين طلب ابن خلدون من الظاهر برقوق أن يشفع له لدى السلطان الحفصى ان العباسى أحمد بن عبد الله صاحب تونس لكى يرسل له أسرته (أهله وولده) ومن ثم فقد استجاب السلطان برقوق لرغبة ابن خلدون وأرسل إلى السلطان الحفصى فى ١٥ صفر ٨٧٦هـ / ١٣٨٤م بخطاب يرجو منه أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر ، وسرعان مالبى طلب السلطان برقوق وبعث سفينة محملة بالهدايا وعليها أسرة ابن خلدون . على أن هذا لايعنى أن العلاقات بين الظاهر برقوق والسلطان الحفصى أبى العباس قد اقتصرت على تبادل الهدايا والمجاملات ولكن تجاوزتها الى المسائل السياسية ، فعندما علم السلطان الحفصى ابن العباسى بنبأ خلع السلطان برقوق فى جمادى الأول عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م استاء لذلك استياء شديدا ، وظل يراقب مايجرى بمصر من أحداث سياسية حول السلطنة حتى وصلته الأنباء بعودة السلطان برقوق مرة أخرى إلى عرش السلطنة فى عام ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وعندئذ سارع السلطان الحفصى بإرسال بعثة سياسية إلى القاهرة محملة بالهدايا ومعها كتاب إلى السلطان برقوق يهنئه بالعودة إلى عرش السلطنة مرة أخرى . وقد أشار إلى ذلك المقريزى فى كتابه السلوك ، كذلك ذكرة القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى أن ثمة خطابات تبودلت فى هذا الشأن بين السلطان الحفصى أبى العباسى من جهة وبين السلطان برقوق من جهة ثانية .

وقد أورد القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الانشا فى ص ٧٩ ــ ٨٤ نص الرسالة التى أرسلها السلطان الحفصى ابن عبد الله إلى السلطان الظاهر برقوق يهنئه فيها بالعودة إلى عرش السلطنة المملوكية مرة ثانية وما حققه من الفوز والنجاح . ولقد بادر السلطان الظاهر برقوق من توه

بمجرد آن وصلته الرسالة من سلطان تونس بأن كتب إليه شاكرا حسن التهنئة وشارحا له ظروف الفتنة فى مصر وكيف تمكن من العودة إلى عرشه طالبا من أخيه سلطان تونس دوام الصلة والاتصال وحُسن الجوار . ويتضح من خلال الرسالتين المتبادلتين بين السلطان الظاهر برقوق والسلطان الحفصى أحمد بن أبى عبد الله ودراسة فحواها كيف كانت العلاقات والصلات طيبة ووطيدة بين مصر وتونس ، وكيف أن مصر كانت تنظر إلى سلاطين تونس كأمراء وذلك طبقا لما جاء فى رسالة برقوق إلى الأمير الحفصى ، كذلك فإن تونس وغيرها من بلاد المغرب العربى تتابع عن كثب الأحداث التى تجرى على الساحة المصرية وما ظهر من هذه الرسالة التى أرسلها السلطان الحفصى يعطى الدليل القاطع على نظرة الدول والإمارات العربية الإسلامية الى مصر باعتبارها دولة كبرى قائدة ينظر إليها أشقاؤها العرب والمسلمون نظرة إجلال واحترام باعتبارها كعبة العلم حيث الأزهر والدين ومركز الخلافة العباسية ، بل أنها مركز الدولة العربية الإسلامية حيث كانت مصر قبلة السفراء والرسل والأمراء بل الملوك والسلاطين ، تخطب ودها كل الدول والأطراف بعد انتصارها الرائع على المغول والتتار وبقايا الصليبيين فى الشام ، وهذا يدل على أن مصر قامت بدورها العسكرى فحق عليها أن تقوم بدورها السياسى والحضارى مع دول المغرب العربى باعتبار أن مصر قامت بدورها فى نشر الإسلام بين شعوب تلك الأماكن ، وأنه وقع على كامل مدرسة الفسطاط والأزهر نشر الإسلام ، وبأموالها ورجالها كانت مصر تشد أزر كل أخوة العروبة والإسلام فى كل محنة تقع فى تلك البلاد . وعلى هذا فإنه لم يكن غريبا أن يبادر أمراء وسلاطين تلك الأنحاء بالكتابة إلى سلاطين مصر وولاتها كلما وقعت بهم ضائقة أو أحسوا بالخطر يهددهم . بل إن مصر كان يصل إليها حكام الولايات الإسلامية من الأندلس كلما أحسوا بالخطر يتهددهم من قبل الإمارات المسيحية فى الأندلس . وكانت مصر تقوم بواجبها بقدر ماتسمح به ظروفها وبقدر ما تستطيع أن تقدمه (رسالة أمراء غرناطة إلى السلطان المملوكى السلطان الغورى آخر سلاطين مصر بشأن التهديد المسيحى لغرناطة آخر الإمارات الإسلامية فى الأندلس) .

أما العلاقات بين مصر فى العصر المملوكى ودولة بنى مرين فى فاس فقد

اتسمت هي الأخرى بروح المودة والإخاء في ظل أسرة المماليك الجراكسية والبرجية ، ذلك أنه يكفي أن السلطان العباسي أحمد بن أبي سالم المريني قد قبل شفاعة السلطان برقوق في يوسف بن علي بن غانم أحد شيوخ العرب بالمغرب ، وكان يوسف قد لجأ إلى القاهرة عام ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م ناجيا من سخط السلطان أحمد بن أبي سالم بعد قيامه بثورة عربية ضد نظام الحكم . ولقد وجدت علاقات خاصة بين سلاطين المماليك وسلاطين المغرب ، فمن ذلك نجد أن السلطان برقوق حين كان يرغب في شراء الخيول العربية فإنه كان يرسل في طلب شراء هذه الخيول من المغرب ، وكان يبعث برسائله وهداياه إلى سلطان بني مرين بفاس ، ومن ذلك الرسالة التي أرسلها عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦م صحبه الرسل وعادت رسل السلطان الظاهر برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيول المنتقاة ، على أن هذه العلاقات لم تقتصر على تبادل الهدايا والجاملات بل تعدتها إلى شتى النواحي السياسية وصلة المودة وحسن الجوار وأخوة الإسلام والدفاع عن قضايا الإسلام التي كانت سمة ذلك العصر ومن ذلك استعداد بني مرين لمساعدة مصر في دفع الخطر ، فقد وقف بنو مرين في فاس من سلطنة المماليك في مصر على عهد السلطان فرج موقف المترقب عندما داهم خطر التتار المشرق العربي مرة أخرى .

وقد أشار القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الانشا إلى أن هناك رسالة قد وردت من صاحب فاس في هذا الشأن ، وأن ثمة رسالة من السلطان فرج بن برقوق أرسلت للسلطان المريني يشرح له فيها الأسباب الذي دعته إلى مغادرة دمشق والعودة للقاهرة دون مقاتلة التتار ، مبررا ذلك بأن جماعة من الخونة تركوه في ميدان المعركة وتوجهوا إلى مصر للاستيلاء على السلطة وأقامه سلطان جديد ، وأنه لم يسعه إلا الإسراع في طلبهم للقبض عليهم وأن تيمورلنك خدع أهل دمشق حتى سلموها له ثم قام بتدميرها .

وقد ورد كتاب السلطان عثمان بن أبي العباسي المريني صاحب فاس إلى السلطان فرج بن برقوق في عام ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م . وقد أورد القلقشندي نص هذا الكتاب في الجزء السابع من كتاب صبح الأعشى في صناعة الانشا ويستفسر فيه عن حركة تيمورلنك الذي هو عدو الله وعدو الإسلام الباغي على عباده والذي يعيث في الأرض فسادا .

بل إنه يطلب أن يمد مصر بحملة عسكرية مظفرة ويجهز الأساطيل للمقاتلة بجانب اخوانهم المصريين ، وأنه على استعداد لمواصلة الإمداد فى أى وقت يشاء فيه السلطان فرج بن برقوق .

ومن هذه الرسالة التى أرسلها سلطان بنى مرين عام ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م من فاس ، وما جاء بها من عبارات التشجيع والعزم على تجهيز القوات البرية والبحرية ، وأنه مما سيوقف النظر حين ندرك من تلك الرسالة مقدار الاحساس بالدور العظيم الذى كانت تلعبه مصر من دفع الأخطار عن العالم الإسلامى ، ومن متابعة الأقطار العربية والإسلامية الأخرى فى المغرب العربى للأخبار المصرية ومحاولة الوقوف بجانب مصر لشد أزرها فى معركة المغول والتتار ولدفع الخطر عن ديار الإسلام ، فإنه يتضح لنا الدور العظيم الذى تلعبه مصر على الساحة الإسلامية فى الدفاع عن جميع القضايا ، وكذلك تبين لنا مدى التفاف الأقطار الإسلامية العربية حول القيادة المصرية ومحاولة نيل رضاها ، من كل هذه الأبعاد السياسية ندرك الدور الذى كانت تلعبه مصر فى شمال أفريقيا ومدى إحساس أخوة الإسلام فى ديار المغرب بمدى المسئولية التاريخية التى تقع على كاهل مصر .

كذلك فإن تبادل الرسائل بين سلاطين مصر وسلاطين المغرب بتلك الصورة إنما يدل على عمق العلاقات الأخوية ، ومن ذلك فإننا نجد سرعة الاستجابة التى أجاب بها السلطان فرج بن برقوق على أخيه سلطان بنى مرين فى فاس ، ومن ذلك تلك الرسالة التى ردها فى قوة وحينه السلطان فرج إلى السلطان المرينى . وما أشار إليه القلقشندى فى نفس كتابه ونفس الجزء السابع من إرساله رسالة إلى بنى مرين . والذى ينظر إلى ذلك الرد السريع من السلطان المملوكى فرج بن برقوق إلى سلطان بنى مرين يدرك تمام الإدراك مدى إحساس السياسة المصرية بالقدرة على مواجهة الأمور والتغلب على الصعاب ودرء الأخطار المحدقة بالديار المصرية ومحاولة طمأنة السلطان المرينى إلى الأوضاع الداخلية واستقرار تلك الأحوال وعودة الأمور إلى نصابها وحالتها الأولى ، وأن مصر تجهز قواتها لدرء الخطر عن الأراضى المصرية وتحرير دمشق من أيدى التتار وردهم على أعقابهم خاسرين كما تم دحرهم فى الماضى .

وهذه الرسائل المتبادلة دليل قوى على الدور المصرى فى بلاد المغرب

العربى وحسن الجوار والعلاقات واستمرارها بصفة دائمة بل أن تلك العلاقات لايوجد ما يعكر صفوها على الدوام . وقد اعترف جميع ملوك وسلاطين المغرب بالدولة المملوكية الثانية فى القاهرة واعتبروا سلاطينها ورثة الدولة المملوكية الأولى فى ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين فضلا عن العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية إلى جانب حاجة ملوك المغرب سلاطين دولة المماليك الأولى فى صد الأخطار الصليبية التى تعرض لها المغرب كثيرا حيث كان سلاطين مصر يلبون كل نداء فى إرسال القوات البرية والبحرية للمشاركة فى صد الهجوم على سواحل بلاد المغرب من قبل دول غرب أوروبا المسيحية وأمراء أسبانيا المسيحيين ضد الأندلس المسلمة ، بل أن سلاطين المغرب وملوكها لم يتأخروا عن أى طلب كانت تطلبه القاهرة من أجل الذود عن حياض الإسلام ، وكما سبق أن ذكرنا أن السلطان برقوق سلطان مصر أرسل خطابا إلى سلطان المغرب فى ١٥ صفر ٧٨٧ هـ / ١٣٨٤ م ، يرجوه فيه أن يرسل أولاد ابن خلدون إلى مصر . وقد أجاب أبو العباس طلب السلطان المصرى وأرسل أولاد ابن خلدون مع هدية من الجياد الأصيلة غير أن سوء الحظ صادف السفينة التى وصلت تحمل أولاد ابن خلدون وهدية أبى العباس الحفصى ، امر اجاعاتيه قد غرقت بمرسى الإسكندرية وغرق معها أولاد ابن خلدون ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأحسن إليه السلطان برقوق وأعاده إلى تونس وسلطانه بهديه من الملابس .

وظلت علاقات الود المتصلة بين دولة المماليك الثانية وملوك المغرب بعد عودة السلطان برقوق إلى عرشه . كما أن سلاطين تونس كانوا دائما على اتصال بالخليفة العباسى المقيم بالقاهرة منذ عام ٦٥٩ هـ . إذ أرسل أبو عبدالله بن يحيى بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس عام ٧٩٢ هـ . كتابا إلى الخليفة العباسى المتوكل على الله الذى كان يقيم بالقاهرة مع هدية قيمة . وتضمن الكتاب رفع تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه . واستقبل السلطان برقوق رسول صاحب تونس بمظاهر الإكرام وأمر بمائة درهم فضة يوميا مدة إقامته بالقاهرة . كذلك فإن السلطان برقوق كان دائم الاتصال والكتابة إلى سلاطين بلاد المغرب . فنجد أنه كتب عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م كتاباً إلى كل من أبى العباس أحمد بن محمد بن

أبى بكر الحفصى سلطان تونس ، وكذلك كتابا آخر فى نفس السنة إلى سلطان تلمسان ابن بنى عبدالواد ، وكتابا ثالثا إلى سلطان فاس ، بل أنه حمل كل صاحب رسالة هدية خفيفة من القماش والطيب ، بل أن سلطان فاس أفاض على رسول برقوق بالكثير من المنح وحين كرّ رسول السلطان المملوكى راجعا إلى مصر ووصل من فاس أخذ هدية سلطانها أبى ابن زيان بن أبى حمو سلطان تلمسان ، ثم وصل إلى تونس وأخذ هدية سلطانها ، ثم عاد الرسول المملوكى بالهدايا إلى القلعة حيث عرضت على السلطان ووزع السلطان ما بها من القماش والسيوف والبسط على أمرائه .

ومن هنا فإن العلاقات والصلات المصرية مع أمراء بنىزيان فى تلمسان (الجزائر) قد اتسمت كذلك بالمودة والأخوة حيث كما ذكرنا تبادل سلطانها الهدايا مع السلطان المملوكى ، بل حين رغب السلطان برقوق عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م فى شراء الخيول الأصيلة العربية من المغرب بعث برسائل وهداياه إلى صاحب تلمسان ابن زيان بن أبى حمو يطلب ما يحتاج إليه وعادت رسل برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيول المنتقاة ، وهكذا تعددت العلاقات وازدادت الروابط بين مصر فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج وبين المغرب العربى مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وحدة التاريخ العربى الإسلامى وعلى دور مصر وكيانها وسمعتها وقدوتها فى العالم الإسلامى .

كذلك فإن الدور المصرى لم يكن مقصورا على الملوك وحاشيتهم بل أن ذلك تعدى إلى رجال الدين وعلماء مصر حيث لعب هؤلاء القوم دورا فى الحياة السياسية فى بلاد المغرب ، ومن ذلك فإننا نجد السلطان المنصور السعدى سلطان المغرب الذى تم فى عهده فتح بلاد غرب أفريقيا (سنغاى) قد قام بإرسال رسالة إلى كبار علماء مصر رضى الله عنهم ومن بينهم الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى المصرى الشهير ببدر الدين القرافى ، وذلك فى شأن رغبته فى فتح بلاد غرب القارة الأفريقية وتوحيد العالم الإسلامى فى غرب أفريقيا ضد خطر العدوان البرتغالى الذى تشهده هذه البلاد من سواحل غرب أفريقيا ، كذلك تروى المصادر التاريخية أن السلطان صلاح الدين الأيوبى أرسل أسطولا إلى خليفة المغرب لكى يساعده فى صد الهجوم الواقع على السواحل المغربية من قبل البرتغاليين والأسبان الذين هاجموا السواحل المغربية .

كذلك تروى المصادر التاريخية أيضا أن صلاح الدين الأيوبى أرسل عام ٥٨٦هـ / ١١٩٠م رسولا من قبله (رواية السلاوى فى كتابه الاستقصا فى أخبار المغرب الاقصى) بل أن سفير صلاح الدين الأيوبى كان عبد الرحمن بن منفذ إلى الخليفة المغربى يعقوب المنصور الموحدى يطلب إعانته بالأساطيل لتحول بين أساطيل الأعداء وبين إمداد النصرانية فى الشام لمنازلة عكا وطرابلس التى سقطت فى أيدى الصليبيين ولكن على الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض طلب صلاح الدين لأنه لم يلقبه فى الرسالة المرسلة إليه بأمير المؤمنين أى لم يعترف بخلافة الموحدين ، فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن المنصور قد أرسل إلى صلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام . كذلك ذكر ابن سعيد المغربى رواية عن تجنيد المغاربة المقيمين فى مصر للعمل فى الأسطول المصرى استنادا إلى فكرة مهارتهم فى العمل البحرى وتخصصهم فى التفوق البحرى ومهارتهم فى القتال البحرى .

وكيفما كان الأمر فإنه يلاحظ أن أساطيل الموحدين فى ذلك الوقت كانت هى الأخرى تجابه أخطارا جسيمة فى مياه المحيط الأطلسى غرب الأندلس حيث كانت أساطيل الألمان والانجليز والفلمنك (سكان الأراضى الهولندية) المتجهة إلى بلاد الشام كثيرا ما ترسو فى المدائن البرتغالية وتعاون ملك البرتغال فى مهاجمة جيرانه المسلمين فى غرب الأندلس ، لهذا كان على أسطول الموحدين أن يعمل على حماية هذه الأطراف المغربية الإسلامية من هذا الخطر الصليبى .

كذلك فإنه يمكن القول بأن الأسطول المصرى ظل سندا قويا وحاضرا لحماية الشواطىء المصرية خلال العصور المختلفة ، بل أن القوات المصرية البحرية هى التى كانت مقدمة الغزو لجزر البحر الأبيض المتوسط حيث كانت السفن المصرية تخرج من موانىء مصر لمساعدة أبناء المغرب فى نشر الإسلام فى تلك الجزر (راجع كتابنا الإسلام والمسلمون فى جزر البحر المتوسط ، وكتاب انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أوروبا) بل إن مصر ساهمت فى تدعيم قوات المغرب العربى البحرية منذ نعومة أظافرها بما شارك به خبراء البحرية المصريون من بناة السفن وقادة الأسطول فى جميع الموانىء المغربية من أعمال جليلة .

وهكذا يتضح الدور المصرى منذ القرن الأول الهجرى فى تأمين وحماية السواحل المغربية وبناء القوة البحرية المغربية ، بل الأكثر من ذلك فإنه بدءا من الدولة الفاطمية والأيوبية ، وكذلك خلال عصرى دولة المماليك البحرية والبرجية فإن النفوذ المصرى انتشر على الساحل الشمالى الأفريقى حتى جبل طارق . وهكذا نرى الدور المصرى الأخوى الإسلامى منذ الفتح الإسلامى مشاركا المغرب العربى فى كل أدواره التاريخية مما ترك أثرا واضحا من آثار الحياة اليومية السياسية فى بلاد المغرب حيث كانت مصر هى العمود الفقرى الذى شكل الحياة العصرية فى تلك الديار المغربية .

إن تاريخ الأدوار المصرية فى بلاد المغرب من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ، منذ انتشرت عقيدة الإسلام فى هذه الأقطار ، بدءا من عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية (دويلات ــ المغرب ــ الأغالبة ــ الأدارسة ــ بنى رستم) والفاطمية (المرابطون والموحدون) والدولة الأيوبية ودولة المماليك،وكان دورا كبيرا وعميق الأثر وقد لا يتسع له ، فصل من فصول تلك الدراسة التى تلقى من خلالها الظلال على دور مصر الحضارى من جميع جوانبه فى القارة الأفريقية قبل قدوم رجال الاستعمار الغربى للسيطرة على القارة) ذلك لأن محاولة تتبع الدور المصرى الإسلامى السياسى منذ فتح عمرو بن العاص لمدينة برقة الليبية عام ٢٥هـ / ٦٤٥م فإن هذا الجهد يحتاج إلى دراسة خاصة ومنفصلة يترك فيها المجال لباحث متعمق فى تاريخ العلاقات المصرية والمغربية عبر أدوار التاريخ سواء منها الجانب السياسى أو الاقتصادى أو الثقافى سواء فى التاريخ القديم أو الوسيط .

بل أكثر من ذلك فإن الدور المصرى ظل متصلا طوال عصور التاريخ لاسيما مع بلاد المغرب العربى دون أجزاء القارة الأخرى باعتبار أن تاريخ مصر حلقات تؤدى الواجب الملقى على عاتقها . ففى العصر الحديث وخلال الربع الأول من القرن التاسع عشر وبالتحديد من عام ١٨١٥ نجد مصر وقيادتها السياسية فى عهد محمد على باشا تفكر فى مد يد العون إلى أخوة العروبة والإسلام فى المغرب ، فيفكر الوالى التركى فى إرسال حملة للجزائر لكى تقيم علاقات أخوية وموحدة فى إطار الجهود التى كان يخطط لها محمد على باشا لتكوين دولة عربية ، وذلك بعد مفاوضات دارت بين الحكومة المصرية

وحكومة فرنسا التى شجعت محمد على للقيام بإرسال حملة إلى الجزائر ، ولكن خلال تلك المفاوضات رحل قنصل فرنسا بالقاهرة ونقل إلى الحكومة لفرنسية تقريرا بعرض مشروع قيام حملة مصرية للجزائر لكى يعلن ضم لجزائر إلى دولة الوحدة العربية التى كان يحلم بتحقيقها .

وقد ظنت فرنسا أن هذا العمل المصرى سوف يجد ترحيبا من كافة الدول الأوروبية وامتدت المفاوضات بين القنصل الفرنسى ومحمد على ، وانتهت إلى رفض محمد على للقيام بهذه الحملة إلا إذا دفعت فرنسا عشرين مليون فرنك فرنسى ، وأربع قطع بحرية من الأسطول الفرنسى ، على أن يتعهد محمد على بالقضاء على القرصنة فى البحر المتوسط .

هذا فى الوقت الذى عرض فيه سفير فرنسا واسطنبول الأمر على الباب العالى ليأخذ الموافقة السلطانية لهذه الحملة ، لكن انجلترا سرعان ما عرفت بالمشروع من رجال الباب العالى فى اسطنبول ولم يكن يرضيها امتداد النفوذ المصرى ونفوذ محمد على على طول الساحل الشمالى لأفريقيا ولا لزيادة قوته البحرية فى مياه البحر المتوسط (موقعة نوارين عام ١٨٢٧ فى مياه اليونان) .

وهكذا نرى كيف مارست مصر دورها الأخوى الثابت بل الرائد فى المجال السياسى فى عالم المغرب العربى ، انطلاقا من الواجب المصرى ، دون التدخل السياسى فى الشئون الداخلية لهذه الدول ، بل كان الواجب الإسلامى فى تلك المراحل التاريخية يقتضى القيام بمثل هذه الأدوار خلال الفترات التاريخية المختلفة التى عرضت لها من ذلك الفصل .

ومن كل هذا يتضح أن مصر قامت بواجبها الأخوى العربى الأفريقى الإسلامى خلال العصور الوسطى خير أداء فى سبيل توطيد الكيان الإسلامى ، منطلقا من الدور المصرى الرائد بأشكاله السياسية المختلفة ، لاسيما العصر المملوكى حين استطاعت مصر أن تدمر قوى المغول والتتار وأن تنهى بقايا القوى الصليبية فى الشام . وأصبحت بحق وجدارة زعيمة العالم الإسلامى ، وأضحت قبلة كل الوافدين من العالم العربى والإسلامى لاسيما من المغرب والأندلس وغيرهما من الأقطار الإسلامية المختلفة .

الفصل الثانى

دور مصر الاقتصادى فى بلاد المغرب العربى

(شمال أفريقيا)

سبق أن ذكرت في الفصل الأول من تلك الدراسة ماهى الطرق الصحراوية والبحرية التى جعلت مصر تؤدى دورها التاريخى فىالقارة الأفريقية وكان من بين هذه الطرق طريق برى طويل يربط مصرببلاد المغرب العربى من أقصى أقطارها وبلدانها المطلة علىالمحيط الأطلسى بدءا من الديار المصريةومن الطريق الذى يبدأ من مراكش فى أقصى الأراضى المغربية ثم يأخذ سيره إلى مدينة فاس فتلمسان فالقيروان ماراً ببسكره ثم الى طرابلس وبنغازى ثم يدخل الاراضى المصرية عند برج العرب فالاسكندرية فالقاهرة ومنها القلزم ،وقوص ، هذا هو الطريق التجارى الذى كان يربط مصر بكل بلاد المغرب العربىبأقسامه المختلفة حيث كانت القوافل التجارية والحجاج تستخدم هذا الطريق فى الفترات التاريخية إضافة إلى الطرق البحرية التى كانت فى البحر الأبيض المتوسط والتى كانت تأخذ طريقها من الإسكندرية إلى كريت أوصقلية فى بعض الفترات التاريخية ثم منها إلى الموانىء المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط الممتدة من بنىغازى شرقا وصولا إلى طنجة على ساحل المحيط الأطلسى مارا بكل الموانىء الغربية بين هذين الميناءين ٠

وهكذا سهلت هذه الطرق حركة النقل والاتصالات وساعدت على أن تقوم مصر بأداء دورها الاقتصادى بالتعاون مع كل هذه الاقطار ٠

وليس أدل على مكانة مصر الاقتصادية ودورها فى الحركة الاقتصادية الإسلامية العالمية من أن التجار المغاربة الذين كانوا يقيمون فى مصر إقامة دائمة كانوا من أكثر الفئات فى سوق التجارة المصرية بل أنهم كانوا الفئة الثانية من حيث الكثرة العددية بعد التجار المصريين ، حيث الكثرة العددية بعد التجار المصريين من سكان شمال أفريقيا ومسلمى الأندلس حتى عام ١٤٩٢م يشكلون أكثر الفئات اتصالاً بمصر ، حيث مونوا أسواقها بسلع شمال أفريقيا ووسطها ،وأحيانا ببعض السلع الأوروبية ، ويجلبون معهم كذلك كثيرا من الذهب الذى به يدفعون أثمان سلعهم ٠ وفى بعض الفترات التاريخية وبالذات فى عهد السلطان الغورى آخر سلاطين الدولة المملوكية حدثت بعض الاضطرابات التجارية مما تركت معه مجالا لزغللة الذهب وفساد العملة وظهور أزمة فى الذهب فى مصر والشام منذ القرن الخامس عشر إلى قلة ما كان يصل إلى مصر من هذه المادة مع تجار شمال أفريقيا والذين كان يصلهم الذهب من بلاد السودان بعد أن تحولت الطرق التجارية إلى رأس الرجاء الصالح ، كذلك فإنه منذ القرن الثالث عشر تفكك المغرب إلى مدن تجارية مستقلة ودويلات تشبه الجمهوريات الإيطالية وأخذ التجار المسيحيون والمغامرون يفدون إليها ، وحتى القرن الخامس عشر كانت المغرب هى المورد الرئيسى للذهب لأوروبا ومصر والشام مما أنعش فيها الحركة التجارية ، إلا أنه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر بدأ ذهب السودان يقل وروده إلى المغرب ثم أوروبا وأيضا قل وروده إلى مصر على يد التجار المغاربة وذلك بعد أن وصل البرتغاليون إلى ساحل غانا عام ١٤٦٠ م ومن ثم بدأ هذا الذهب يتجه منذ ذلك الوقت الى المحيط الاطلسى،ومن هنا قل حضور تجار المغرب ومعهم سلعةالذهب إلى الأسواق المصرية مما كان من عوامل التأثير على الحركة الاقتصادية فى مصر وانهيار القوة العسكرية تبعا للقوة الاقتصادية٠

ولقد كان التجار المغاربة فى سعيهم للتعاون مع إخوانهم المصريين قد نشطوا للتعامل بشكل جديد لاسيما أن المغاربة مشهود لهم بالعمل فى التجارة (ن التجارة ، جزء منهم ، بل أن كثيرا من المتصوفة كانوا يفضلون العمل

التجارى،وكان سعيهم متصلا مع أن المخاطر التى كانت تعترضهم فى طريق السفر كانت كثيرة ، بل إن موقف الدولة من التجارة أمر يستوجب أن يأخذ بالاعتبار دوما لأن هذا الموقف يؤثر على اضعاف العاملين فى التجارة والأسواق وطرق التعامل بها والطرق التى تسلك والصادرات التى تصل والواردات التي تجلب ، ولقد كان تجار الشمال الأفريقى يستخدمون الطرق المختلفة من تونس وفزان وطرابلس والمغرب الأقصى وصولا إلى الأراضى المصرية حيث ساهمت تلك المدن فى دعم التجارة الداخلية والخارجية . ولقد ارتبطت كل البلاد والموانىء الساحلية الأفريقية والممتدة من الأسكندرية شرقا إلى طنجة غربا كلها بعضها ببعض ، كما حملت إلى مصر منتجات وسط وغرب القارة الأفريقية ، وكذلك بعض منتجات جنوب أوروبا حيث كان التجار المغاربة يصلون إلى مصر ومعهم كل هذه الأنواع التجارية بالإضافة إلى منتجات بلادهم المغربية ، حيث كان استخدام موانىء البحر الابيض المتوسط المغربية هاما للحركة التجارية بين مصر وتلك الأقطار . ولقد كانت التجارة عماد الحياة الاقتصادية،وقد اعتمدت على العلاقات التى كانت قائمة بين التجار المصريين وسوق التجارة المصرية وبين تجار المغرب الأقصى وكل بلاد المغرب وولاياته المختلفة حيث كانت أغلبية المدن المغربية إن لم تكن جميعها منذ نشأتها مراكز بالدرجة الأولى ، وإن كان قد غلب على كل مدينة طابع التخصص فى سلعة أو بضاعة معينة أو مادة تجارية اشتهرت بها حيث كان التجار المغاربة أو المصريون يحصلون على هذه السلعة من الأسواق ثم يضيفونها إلى السلع الأخرى التى يتم تصديرها إلى الأسكندرية عن الطريق البحرى أو القاهرة أو بعض مدن الديار المصرية عن الطريق البرى .

ولقد لعبت مدن وموانىء المغرب العربى والطرق الصحراوية الداخلية دورا هاما،وكذلك الموانىء المنتشرة على الساحل الجنوبى للبحر الأحمر كان لها دور لا يمكن اغفاله فى تحقيق الترابط الاقتصادى بين مصر وبين دول الشمال الأفريقى . وقد تم ذلك عبر الطرق البحرية التى كانت تسلكها القوافل البحرية المتجهة صوب الشرق إلى مصر أو صوب الغرب إلى الموانىء المغربية ، وقد أشار المقريزى فى مناسبات كثيرة إلى العلاقات التجارية التى كانت تربط التجار المغاربة وتجار الإسكندرية ، كذلك لم يكن ابن خلدون قد وصل إلى مصر على ظهر سفينة تجارية مصرية ، كما أن ابن خلدون نفسه

كان يقوم بالكتابة إلى ملوك وسلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الجياد المغربية وإرسالها إلى مصر كلما احتاج السلطان المملوكى إلى هذه الجياد ، ونظراً لكثرة حروب السلاطين المماليك ودفعهم للمخاطر الصليبية والمغولية عن الديار الإسلامية فإنهم كانوا فى أمس الحاجة إلى الخيول العربية الأصيلة لكى يتابعوا مسيرة مصر النضالية فى صد الغارات الخارجية ، ومن هنا فقد استمرت صلاتهم الودية مع بلاد المغرب . ومن ذلك طلب السلطان برقوق عام ٧٩٣ هـ إلى سلطان بنى‌مرين فى فاس انتقاء بعض الخيول العربية الأصيلة لشدة حاجة مصر لها لمواصلة حروبها ، وقام السلطان المرينى بانتقاء الخيول الرائعة وإرسالها كهدية لسلطان مصر ، ولكن المنية عاجلت سلطان فاس فتولى ابنه فارس عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م وظلت الهدية حتى مات أبو فارس وتولى أخوه عامر عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م فاستكمل الهدية وبعثها بصحبة رسوله يوسف بنى على ، وحين أبطأ وصول الخيل من المغرب أراد السلطان برقوق أن يبعث من أمرائه من يشترى له الخيل وفعلا أرسل مملوكه فطلوبغا الخليلى إلى تونس وتلمسان وفاس لشراء هذه الخيول وعاد فطلوبغا بهذه الخيول إلى الديار المصرية .

كذلك كان للتجار الكارميه دورهم فى تنشيط الدور المصرى الاقتصادى مع بلاد المغرب ، حيث إن اتخاذهم لمصر مركزا لممارسة نشاطهم قد جعلهم يمدون هذا النشاط إلى دوائر أخرى أكثر اتساعا فامتد إلى الشمال والغرب نحو بلاد المغرب . ولقد كانت طائفة التجار الكارميه أبلغ دليل على العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب العربى .

ولقد كان التجار المصريون يذهبون بمنتجات بلادهم إلى هذه البلاد لجلب الذهب وما يحتاجون إليه من بلاد المغرب ، بل أن نطاق التجارة المصرية قد اتسع بالنسبة لهذه البلاد فأصبح كبار التجار المصريون يبعثون بعملائهم ووكلائهم إلى مدن المغرب المختلفة وذلك حتى يعودوا بالأرباح الطائلة وقامت التجارة بتوثيق الصلة بين مصر وبلاد المغرب خلال العصور الوسطى .

ولقد كان أكبر دليل على الترابط الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب أننا نجد كثيرا من التجار المصريين والمغاربة يرحلون سنويا فى قوافل كبيرة العدد إلى بلاد وسط وغرب القارة وذلك لكى يقوموا بعمليات استبدال

الخيول والأقمشة الفاخرة والأسلحة التى معهم بالذهب الذىكان متوافراً فى تلك البلاد .

ولقد كانت الشئون الاقتصادية بين مصر وبلاد المغرب فى مقدمة العلاقات الإنسانية وذلك لأن التجارة وهى تؤدى مهمتها فى هذه العلاقات وفى تبادل السلع وتداولها تعتبر أداة من أدوات العمران الرئيسية والصلات الحضارية بين الأقطار المختلفة ، وذلك لأن الحياة الاقتصادية وما تضفيه من علاقات بين الأمم والشعوب ما هى إلا مظهر حضارى ، والحضارة عملية تراكمية مستمرة ومن ثم فالتغييرات تجىء منها بطيئة متدرجة مع الزمن ، لذا فقد كانت العملية الاقتصادية هى تفاعل الإنسان مع بيئته ، والعلاقات هى تعامل الإنسان مع الآخرين ، وهكذا كانت التجارة والعلاقات الاقتصادية بين مصر وبلاد المغرب العربى وبقية بلاد العالم الإسلامى تلعب دورا هاما وبارزا فى زيادة الروابط بل فى توثيقها بين مختلف القوافل البرية أو البحرية الذاهبة والعائدة من هذه البلاد ، وكانت هذه القوافل تحمل السلع المتبادلة بين الطرفين .

ولقد امتاز العصر المملوكى بنشاط اقتصادى واسع النطاق ، فقد كانت التجارة بين مصر وبلاد المغرب تدر أرباحا طائلة لكلا البلدين ، وكان التجار فى حركة دائبة بين مصر ، وهذه البلاد على مدى قرون عديدة فقد كان التجار المغاربة الكثيرو العدد المقيمون بمصر والتجار المصريون المقيمون ببلاد المغرب المختلفة يقومون بنشاط اقتصادى من شأنه تنظيم العلاقات التجارية وتسهيل المعاملات . ولقد كان التعامل بين البلدين بالإضافة إلى عملية تبادل السلع التى تمثل قوى التكامل الاقتصادى حيث كانت عملية التبادل تتم بالذهب العينى والدينار والدرهم قد وصلت بالتجارة إلى أوجها وازدهارها خلال القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ، هذا بالإضافة إلى أن دور مصر الاقتصادى لم يقتصر على اتجاهها إلى الغرب على الإقليم الساحلى .

بل كانت القوافل المصرية تجوب الصحراء الكبرى حاملة إليها المصنوعات المصرية لقاء ما تأتى به من منتجات محلية . وقد وصل التجار المصريون حاملين بضاعتهم إلى كل بقعة من بقاع المغرب العربى فى مدنه المختلفة .

ومن هنا فإن سلاطين المماليك قبل سقوط دولتهم لم يدخروا وسعا فى

تقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين المغرب ، طلب السلطان برقوق الخيل من تونس وتلمسان وفاس وغيرها من بلاد العالم المختلفة وذلك عن طريق الاتصالات التى كانت تتم سواء بالاتفاقيات أو تبادل السفراء ، . ولذلك كان أغلبهم من التجار العاملين بين الدولتين ، بالإضافة إلى المحطات التجارية المنتشرة فى الصحراء الكبرى والتى كانت تمثل نقطا لمراقبة القوافل على الطريق الطويل فإنها ساهمت فى دعم التجارة الداخلية والخارجية لبلاد المغرب إضافة إلى زيادة النشاط الاقتصادى بصورة عامة .

هذا إلى جانب أن العلاقات التجارية قد تمسكت بقيم خلقية سامية كان من شأنها أن تقوى الروابط الإنسانية بين الطرفين فميدان التجارة يتطلب الاستقرار وخلق الثقة فى النفوس بين سائر الأطراف المشتركة فى هذا الميدان الحافل بالرغم من أن هدف أولئك التجار المصريين كان نقل منتجات بلادهم إلى بلاد المغرب بما يسد حاجتها ويساعد على دعم اقتصادياتها إلا أنهم كانوا فضلا عن ذلك رسلا للحضارة والمدنية ، ذلك لأن العمل التجارى يتطلب الاحتكاك بأهل البلاد الأصليين ، ومن ثم نقل ألوان الثقافة العربية الإسلامية إليهم ، ومن ناحية أخرى يرجع أولئك التجار إلى بلادهم بانطباعات عميقة عن الحياة الإسلامية فى المغرب ومزايا الحضارة المغربية ، وبهذه الطريقة فإن تفاعل الثقافات يصبح أمرا ميسورا .

ولقد كان التجار المصريون وغيرهم من التجار سببا فى أن انهالت الأرباح التجارية الطائلة على الطرفين وذلك لأن الحكام حين تيسرت لهم الرقابة الكاملة على طرق القوافل عند نهايتها فى الأطراف الغربية فى المغرب الأقصى فإن ذلك قد أدى إلى اتساع مدن المغرب ونموها ، كما تيسر بعد ذلك لتجارالمغرب احتكار السلع التى كانت ترد من مصر وغيرها فإن ذلك قد أثر فى غنى الإقليم كله . ولقد وجد ما يقنع حكام وسلاطين أقطار المغرب المختلفة وخلفائهم من بعدهم بأن التجارة الواسعة التى كانت تصل دول هذا الإقليم بالعالم الخارجى لاتقل شأنا عن التجارة فى أوروبا المعاصرة ، بل أن التجارة مع مصر كان لها وضع خاص من حيث تعاون التجار المغاربة مع إخوانهم المصريين وتسهيل الإجراءات والتفاهم المشترك والتبادل لما فيه خير العالم العربى الإسلامى .

ولقد كانت لتونس علاقات صداقة وثيقة مع حكام مصر فى مختلف

العصور الإسلامية بل أن هذه العلاقات قد نمت وازدهرت بين سلاطين المماليك وسلاطين الحفصيين ، وكانت القوافل التجارية تصل الى مصر بصفة منتظمة مما ساعد على توثيق علاقات الصداقة مع مصر وغيرها من البلاد المجاورة ،(ليبيا وطرابلس)واتسمت العلاقات بعامل الجوار وحسن العلاقات الاقتصادية ، ويبدو أن هناك مدنا كثيرة قد نشأت علىطريق القوافل بين مصر وشمال أفريقيا لخدمة التجار ، ونذكر منها سجلماسه ودرعة وورقلة وغدامس وزويله وتاد مكة وأغاديس وغيرها من المحطات التجارية التى كانت تقع على طريق القوافل بين مصر وبلاد المغرب العربى ، بل إن كل هذه المحطات والمراكز كانت عبارة عن عواصم ثقافية أو سياسية فى نفس الوقت الذى كانت فيه مدنا تجارية ، ومن هنا فإن ازدهار حركة التجارة قد ساعد على ربط الصلات الاقتصادية بين المغرب ومصر ٠ ولقد كانت مع مصر احتكار السلاطين المماليك للحركة التجارية لكنها على الجانب الآخر فىالمغرب كانت التجارة حرة بحيث يقوم بها كل من تنزع نفسه للتجارة ، وكانت الدولة تمهد لتجارتها الطريق وتقيم لهم الأربطة والاستراحات والمنازل فى طريقهم بل تحفر لهم الآبار وتبعث معهم الجند ليجتازوا معهم المراحل المحفوفة بالمخاطر وترعاهم فى الصحراء الكبرى ، وأحيانا كانت تضع الجنود معهم فى السفن خوفا من أعمال القرصنة التى كانت تتم فى البحر الأبيض المتوسط بين دول المغرب وعصابات القرصنة فى جنوب أوروبا لاسيما فى قبرص ومالطة وصقلية .

ولقد كان الذهب الذى يحمل من بلاد السودان الغربى يغذى بلاد المغرب العربي ومصر والشام وبلاد جنوب أوروبا ، وبذلك فقد ازدادت التجارة ازدهار بورود البضائع الأوروبية إلى بلاد المغرب لأنه فى تلك الفترات تمكن التجار البنادقة والجنوبيين من إقامة فنادق على السواحل المغربية وخاصة فى تونس التى كانت بمثابة مستودعات لبضائعهم ،وبذلك أضيفت إلى بضائع بلاد المغرب العربى كميات كبيرة من البضائع الأوروبية كانت تصل إلى مصر وبلاد غرب القارة الأفريقية وغيرها من البلاد الإسلامية التى كانت تتاجر معها بلاد والمغرب ، وكان يصل إليها التجار المغاربة٠ ولقد كانت العلاقات مع مصر وبلاد المشرق الإسلامى قائمة على التعامل بالعملة الذهبية حيث إنه عندما يدخل التجار المغاربة إلى هذه الأقطار يحملون

العملة المغربية الى دور ضرب العملة فيها ويسكونها لتعادل سكة البلد الذى يتاجرون فيه ٠ وقد كان الدينار المرابطى أقل من الدينارالفاطمى ، أما الدينار الموحدى فيعادل نصف دينار مصرى من ضرب صلاح الدين الأيوبى ، وقد ضاعف السلطان المنصورى الموحدى فى عام ٥٨١ هـ١١٨٥ م وزن الدينار الموحدى حتى أصبح معادلا للدينار الأيوبى المضروب فى مصر وقتئذاك، كما أن ضعف العملة المغربية الذهبية فى التجارة الخارجية يؤكد ما سبق شرحه من أزمة لتجارة المغرب الخارجية ، بل إنه فى بعض الفترات التاريخية تأثرت حركة النشاط الاقتصادى ، ولهذا لم يستعمل الطريق الداخلى عبر الصحراء الكبرى إلا جزئيا وإن كان استعماله أكثر من ذىقبل ، وظلت الطرق فى المناطق الداخلية إقليمية كما كانت بينما كثر استعمال طريق الساحل من تنيس إلى طرابلس ، وازدهرت مدن تجارية خاصة بجاية وتونس وطرابلس ٠

وبما أن الطريق البرى مع مصر وبلاد المشرق الإسلامى كان يعبر البلاد الشرقية من طنجة غربا إلى الإسكندرية شرقا والتى لم تعرف إلا من مناطقها الداخلية طوال القرن السادس ، فمن البديهى أن يكون هذا الطريق غير آمن باعتبار أنه لا يستعمل كثيرا ، خاصة أن المنطقة إلى الشرق من طرابلس لم تكن تدخل ضمن حدود دولة الموحدين ٠ وتفردت القبائل الهلالية بالسيطرة عليها ، فقطعت الطريق على التجار وسلبت أموالهم وهددت حياتهم فلا عجب أن يؤثر أهل جبل نفوسة التوجه إلى مصر وبلاد المشرق بحرا من الساحل التونسى مع أن البحر نفسه لم يكن أمنا تماما رغم أن الطريق البحرى من طرابلس إلى الإسكندرية كان كثير الاستعمال لاسيما وأن الطريق البرى كان محفوفا بالمخاطر ٠وتجدر الإشارة إلى أنه في النصف الثانى من القرن السادس الهجري كثر استعمال الطريق الذى يمر بالمدن الإيطالية وصقلية،ومن صقلية يتفرع الطريق إلى فرعين إما إلى الإسكندرية وإما إلى عكا بالشام ، وربما كان السبب فى ذلك أن تجار المدن الايطالية دخلوا فى التجارة المغربية بصورة واسعة أو أن التجار المغاربة أنفسهم أصبحوا يفضلون طريق عكا إلى مصر التى كانوا يلقون فيها ضيقا وعنتا ٠ ويمكن القول إن أوضاع الطرق التجارية البرية منها والبحرية داخلية كانت أم خارجية قد انعكست على حركة السلع فى بيئات المغرب

الثلاث وحركتها بين الغرب والمناطق التى اتصل بها المغرب تجاريا وبصفة خاصة مصرُ وبقية بلاد الشرق العربى . ولقد كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربى لسد حاجاته بتصدير الفائض عن حاجته واستيراد مايتطلبه،فإن النظرة فى حركة التصدير والاستيراد بين مصر وبلاد المغرب ماهى إلا جزء من حلقة التكامل الاقتصادى بين دول العالم الإسلامى ، بل إن دراسة هذه الحركة فى أى فترة من فترات التاريخ تبين الاتجاه نحو التكامل الداخلى فى بيئات المغرب قبل التوجه للخارج مع مصر لتحقيق هذا التكامل فى البيئات الإسلامية ٠ ولقد أولت مصر جانبا كبيرا من عنايتها بالحركة التجارية مع المغرب ، ولقد كان لذلك أعظم الأثر في التقدم الاقتصادى والازدهار الحضارى اللذين أحرزتها مصر فى العصر الفاطمى والأيوبى والمملوكى وهى حقيقة تشهد بها ما تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأبسطة والأمتعة والسلاح والتوابل والأدم وغيرها فى خزائن الدولة الفاطمية والأيوبية والمملوكية٠

ولقد كان معلوما أن طرق الاتصال البحرى بين مصر وبلاد المغرب كانت تتم عن طريق خطوط ملاحية تربط مصر ببلاد المغرب عن طريق كريت وصقلية ومن ثم تربطها بالمغرب والأندلس وجزيرة صقلية من جهة ثانية ، وكانت السفن التجارية تبحر من ثغور تنيس ودمياط والإسكندرية إلى صقلية والمغرب والأندلس ، ويبدو أن الإسكندرية كانت أكثر اتصالا فى البحر بموانىء المغرب والأندلس من غيرها من ثغور مصر الشمالية بحكم موقعها فى الشمال الغربى من دلتا مصر وهو موقع يجعلها أقرب ثغور مصر لبلاد المغرب العربى الإسلامى ، ويؤكد ذلك ما ذكر من ناصر خسرو إذ يقول إن بحر الإسكندرية كان يمتد حتى القيروان ، وكانت السفن القادمة من المغرب تسير بحذاء الساحل المصرى الليبى وترسو بثغور تونس إلى أن تصل إلى الإسكندرية .

وكانت السلع القادمة من المغرب والأندلس وصقلية وأوروبا عبر البحر المتوسط تصل إلى ميناء الإسكندرية ومنه تنقل إلى الفسطاط عبر خليج الإسكندرية المتفرع من فرع رشيد ، ثم فى النيل الذى سهل الاتصال بين موانىء مصر الشمالية وبين مدن الصعيد فى أسوان ، وقد تحولت فى فترات تاريخية متأخرة تجارة التوابل عبر البحر الأحمر من عيذاب إلى ميناء

الإسكندرية ، ولقد أصبحت الإسكندرية منذ تمركز الصليبيين على سواحل الشام حتى نهاية القرن الخامس الهجرى أهم قاعدة فى مصر لتجارة التوابل ، وكانت السلع الواردة عليها سواء من المغرب الإسلامى أو من الأندلس أو من المدن الإيطالية تصل إلى مينائها ثم تحمل على ظهور الابل وتخرج من الباب القبلى المعروف بباب السدة أو البهار ، ثم تنقل بالسفن فى خليج الإسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط بينما كانت أحمال التوابل ومنه البهار والفلفل والقرفة وغيرها تصل عبر البحر الأحمر إلى عيذاب ثم تنقل فى القوافل البرية إلى قوص وأسوان ، ومن هناك تحمل فى النيل على سفن الشحن النيلية لينتهى بها المطاف فى خزانة التوابل بالقاهرة . وكان يصدر منها إلى الإسكندرية الكميات المراد تصديرها إلى بلاد المغرب الإسلامى وأوروبا عن طريق خليج الإسكندرية . وقد ظل هذا الخليج وسيلة الاتصال النهرى بين الإسكندرية والقاهرة فى العصور الإسلامية التالية إلا فى الأوقات التى ينطمر فيها هذا الخليج بالرمال والرواسب الطينية .

وقد حرص سلاطين المماليك البحرية بوجه خاص على تطور الحركة التجارية مع بلاد المغرب وإعادتها إلى قوتها فى العصر الفاطمى والأيوبى بحيث كانت السفن تنقل من الإسكندرية إلى المغرب الكتان المصرى والسكر والبهار وغيرها من الأصناف الأخرى كما تحمل أيضا من الإسكندرية الأخشاب والحديد . ويشير ابن سعيد المغربى فى كتاب المغرب فى حلى المغرب أنه عندما وصل إلى الإسكندرية قادما من المغرب الإسلامى ركب فى الخليج إلى النيل ثم سار فى النيل إلى منية السيرج « تقع فى شبرا مصر » التى تقع فى شمال القاهرة .

وكانت التوابل الهندية تصل إلى الإسكندرية عن طريق أيله أو القلزم ثم تسير من الإسكندرية ملتزمة السير حذاء الساحل حتى لاتتعرض للغرق حتى تصل إلى بلاد المغرب العربى ، وكانت الرحلات التجارية فى البحر المتوسط إلى صقلية والمغرب والأندلس تتم فى مواسم معينة فكانت السفن التجارية تبحر سواء من دمياط أو الإسكندرية إلى هذه البلاد فى قوافل تحرسها فى العادة سفن حربية أو أكثر لمواجهة القراصنة الذين يغيرون على هذه السفن فى البحر ومنعهم من الاعتداء عليها ، وكانت الرحلات إما سنوية أونصف سنوية بمعنى أن السفن ترحل إلى هذه البلاد أو الأقطار مرة واحدة فى السنة

أو كل ستة أشهر . وقد تألقت مدينة الإسكندرية بدءا من العصر الفاطمي والعصور الإسلامية المختلفة كالأيوبي والمملوكي بحيث أصبح لدورها في تجارة البحر المتوسط لاسيما مع المغرب الإسلامي وغيرها من البلاد الأخرى كصقلية والأندلس وجنوب أوروبا بحق الثغر التجاري الأول الذي تقصد إليه السفن التجارية المحملة بسلع الشرق والغرب . وكانت محطة رئيسية للسفن القادمة من المغرب والأندلس إلى كل من مصر والشام ، وكان في الإسكندرية تحمل السفن بمنتجات مصر كالشبه والنطرون والمنسوجات بالإضافة إلى التوابل التي كانت تصل إليها من الفسطاط ، وهكذا نرى كيف أن مصر عملت من جانبها بكل ما وسعها على تدعيم دورها وعلاقاتها الاقتصادية والتجارية برا وبحرا مع بلاد المغرب العربي من جهة ، ومع صقلية من جهة ثانية ، ومع الأندلس والمرابطين والموحدين من جهة ثانية ، وكانت الطرق الممتدة من الإسكندرية إلى سوسه بتونس وهي آمنة الطرق البحرية التي كانت تسلكها السفن التجارية المصرية أو المغربية الصقلية أو الأندلسية وذلك منذ سيطرت الدولة البيزنطية على كريت وقبرص ، ويذكر أبو عبد الله البكري في كتابه بلاد أفريقية والمغرب أن المهدية كانت مرفأ لسفن الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها . وكانت السفن تحمل من ليبيا والمغرب منتجات هذه البلاد التي عرفت بها كزيت الزيتون من المهدية وبرقه وصفاقس وقابس ، والفستق الذي كان يحمل من قفصه وشط الجريد إلى مصر ، والثياب والعمائم السوسيه والثياب الحريرية من قابس وجلود النمور والبقر التي كانت تصل من أوجله إلى برقة ثم تجهز بها المراكب القادمة من الإسكندرية وجلود اللمط وقروفه والصوف والتبر من تكرور وغانا ومالي وسنغاي وإود غشت ، والقطران وجلود الدباغ من مالقه وقصر طلميته بليبيا ، ومن الأندلس كانت تصدر الزيت من أشبيلية إلى الإسكندرية ، والزئبق من قرطبة والمواشي من بريه ومالقة ، والبسط من مرسيليا ، والتين المالقي من مالقه ، ومن صقلية كانت تصل إلى مصر كل هذه الأشياء السابق ذكرها ، كما أن مصر كانت تصدر الكتان المصري والثياب المنقوشة القيمة في السفن القادمة من الديار المصرية .

وهكذا كانت مصر تمارس دورها على الساحة المغربية والاندلسية في الأخذ

والعطاء ولكن عطاءها كان أكثر مما تأخذ وإن كان ذلك كله يهدف إلى المنفعة والتبادل لأجل التكامل الإسلامى الذى كان يظهر فى أحسن صوره بين أخوة الإسلام والعروبة وأفريقيا . ولقد كانت صادرات مصر تحمل إلى سائر أنحاء العالم .

ولقد كان لتجار المغرب عبر الصحراء الكبرى فى طريقهم إلى مصر نشاط واسع للغاية ، فقد كانت حاصلات الشمال الأفريقى تسوق وتباع فى مصر ، كما أن حاصلات ومنتجات مصر يضاف إليها منتجات الشرق والشام تباع فى أسواق المغرب ، ومن ذلك قامت حركة تجارية واسعة كان التجار المغاربة يديرونها بنشاط واسع فكانوا يرحلون إلى مصر بسلع بلادهم ويعودون بالسلع المصرية والشرقية إلى الجنوب بل ويصدرونها أيضا إلى أوروبا عبر البحر المتوسط .

بل أن التعاون المصرى المغربى ظهر بصورة واضحة فى الحركة التجارية الاقتصادية فى السودان الغربى ، إذ نجد أن معظم البضائع التى كانت ترد إلى مدن وأسواق بلاد غرب القارة الأفريقية تأتى فى المقام الأول من مصر وبلاد المغرب العربى ، ولقد كانت هذه البضائع من الأهمية الاقتصادية لسكان تلك البلاد بحيث إنه فى حالة عدم ورودها تصاب البلاد بكساد اقتصادى وتغلق الأسواق ويلجأ السكان إلى لباس الأصناف الخشنة من الملابس من الانتاج المحلى بعد أن تعودوا على لباس غيرها من أثواب الحرير والكتان والملابس الجميلة الزاهية القادمة من الشمال ، كذلك فإنه من ناحية أخرى فقد كانت البلاد الإسلامية ولا سيما بلاد المغرب العربى هى السوق الرائجة لمنتجات مصر . ومعنى هذا ارتباط مصر ارتباطا شديدا بالحركة التجارية فى المغرب . وقد أدى ذلك إلى نزوح العديد من التجار المغاربة إلى الديار المصرية بحيث كانوا من الكثرة وكانوا يمارسون حركتهم التجارية بحرية وانطلاق ، وتوافد منهم الكثير للاستقرار بالقاهرة واشتغالهم بالأعمال التجارية فى حركة التصدير والاستيراد ، بل أن طائفة التجار الكارميه كانت تضم بين صفوفها العديد من التجار المغاربة الذين كانوا يستقرون فى القاهرة والإسكندرية وقوص ، كذلك كانت مصر تصدر إلى المغرب منتجات بلاد الشام التى كانت تصل عن طريق التجار المصريين الذين يصلون إلى المغرب ، وتجدر الإشارة إلى أن المغرب كانت تجاريا تمثل

عـامـلاً أسـاسيـا مـع بـلاد مصر والشرق الإسلامى وسـاعـدت على نهضتهـا الاقتصادية بالإضـافـة إلى حركتـه التجـاريـة مع الأقطـار الأوروبيـة لاسيما الأقطار الجنوبية منها ، بالإضافة إلى أنه كان القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميـلادى ، قـد شهـد الصراع بين المسلمين والصليبيين فى شرق البحر المتوسط وغربيه (الأندلس والمغرب) إلا أن ذلك الصراع لم يقف حجر عثرة دون حركة التعـامل التجـارى مع مصر فى السلع الممنوعـة فى ظروف الحرب مثل آلات القتال والمواد التى تصنع مثل الحديد والنحاس .

وفى عهد المرابطين ، فقد واجهت التجـارة الخـارجيـة المغربيـة صعوبـات كثيرة نتيجة لعلاقـات المرابطين الخـارجيـة بـانتشـار التجـارةمع السـودان . ولقـد كانت عـلاقـاتهم ببـلاد السـودان ممتـازة ، وقـد حرصـوا على أن تكـون صحراء صهـاجـة طريقـا لتجـارة السـودان حيث إنهم إكتشفـوا حسبمـا ذكر الادريسى طريقا صحراويا فى سجلماسه منـه يؤدى إلى مصر . وقـد سـاعـد ذلك على ربط العلاقات التجارية مع مصر وذلـك عنـدمـا احتل الموحدون جبل درن وقطعوا اتصالها بالسهول الغربية وبلاد الصحراء ، ويبدو أن هذا الطريق ظل مستعملا إلى أن سقطت مراكش فى أيدى الموحدين . كذلك فـإن العصر الفاطمى قد شهد علاقـات اقتصـاديـة مع بلاد المغرب الأقصى ضئيلـة إن لم تكن ضعيفة ، وإن كانت قوية مع المغرب الشرقى والأوسط ، لكن مصر الفاطمية كانت سيئة الظن بالمغاربة الذين اعترفوا بالخلافة العباسية ونـادوا للعبـاسيين فى بـلادهم دون الفـاطميين ، وكان الـوزير الفـاطمى بـدر الـدين الجمالى يضيق الخناق على التجار المغاربة ويضع العقبات فى طريقهم لدرجـة أن قـافلـة المغرب التى كانت تقصـد بيت اللـه الحرام والأراضى المقـدسـة فى الحجاز كانت تعدل عن استخدام طريق مصر . ويبـدو أن أحد وزراء مصر حاول عقد مهادنـة مع المغاربـة وعودة الأمور إلى حـالتهـا الطبيعيـة بين الأخوة المصريين والمغاربة إلا أن سياسة هذا الوزير ربما لم تدم طويلا .

كما أن علاقة الموحدين بمصر وبلاد الشرق الإسلامى لم تكن بـأحسـن حـالا من علاقة المرابطين ، فقد كانت علاقات الموحدين متأزمـة مع الفـاطميين ثم مع الأيوبيين على الرغم من أن عدداً كبيرا من التجار المغـاربـة قـد استقر فى مصر وعمل مكرمـا فى مصر وفى المغرب أيضـا ، إلا أن الأيوبيين من جـانبهم قد أولوا المغاربة الذين يقاتلون معهم والمتصوفة والتجار عنـايـة خـاصـة إلا

أنهم كما ذكرت المصادر المغربية وحدها وابن سعيد المغربي « المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب » ، والذيل والتكملة لكتاب الصلة والموصول لأبى عبد الملك المراكشى بأن السلطات الفاطمية كانت تضيق على كل من يرد إلى الديار المصرية من المغرب حاجا أو تاجرا (الجبرتى) ويأخذون العشور من التجار المسلمين الغرباء ، كذلك فإنه من ناحية أخرى ضيق الموحدون على التجار المصريين المشارقة الداخلين إلى بلادهم واستولوا على أموالهم ، بل أن كل من أراد السفر من المغاربة إلى بلاد مصر والمشرق فإنه كان يواجه بإجراءات شديدة من الموحدين ، ولقد دفع المغاربة ثمن مقاتلة بعضهم فى صفوف القوات المصرية والمسلمين ضد الصليبيين مكوسا على رأس كل مغربى يدخل بلادهم جزاء تعاون المغاربة مع المصريين والمشارقة المسلمين . أضف إلى ذلك هذه الصعوبات التى كانت تواجه الطريق البرى من طرابلس إلى مصر فلم يكن آمنا لسيطرة العرب عليه .

ولقد كان الأسطول الموحدى قوة ضاربة قادرة على حماية سواحل المغرب بيد أنه لم يكن قادرا على بسط سلطانه على البحر الأبيض المتوسط ،ولهذا كان على الموحدين التعامل مع القوى البحرية التجارية الأخرى على الرغم من أن مواقف الموحدين السياسية مع أغلب الدول المعاصرة لهم كان يشوبها التوتر إلا أنهم كانوا يرون ضرورة تشجيع التجارة الخارجية ، ثم أنهم لم يأخذوا العشور من التجار المسلمين الغرباء المصريين الذين يترددون عليهم فى مقابل السماح للتجار المغاربة والحجاج أيضا الذين يخترقون الأراضى المصرية فى طريقهم للحجاز لأداء الفريضة المقدسة .

ولقد كان التجار المغاربة يدخلون إلى مصر وبلاد المشرق ، كما كان التجار المشارقة المصريون يدخلون إلى المغرب ، وقد عمل المغاربة فى التجارة الواسعة مع مصر حين كان التجار المغاربة يقومون بالأعمال التجارية بأنفسهم بينما كان بعض التجار يحترفون مهناً أخرى ولا يرغبون فى التنقل خاصة الفقهاء من أرباب الخطط الرسمية (أصحاب الوظائف الكبرى) فقد استأجروا وكلاءهم للقيام بأعمالهم ، وكان الوكلاء يسافرون إلى مصر وبلاد المشرق بالبضائع أو يقومون بشرائها من الأسواق المصرية ويرسلونها مباشرة إلى مصر كلها أو يشرف على نقلها خاصة فى المراسى ، من الوكلاء من يختص بخدمة تاجر واحد أو من يفتح متجرا ويخدم كل من يطلبه ،

وقد كان الوكيل يعمل بمقتضى اتفاق مكتوب فى عقد لايتعداه وفى حدود هذا الاتفاق يتم التعامل بين التاجر والوكيل على الثقة .

وقد سهلت مصر فى الفترات التاريخية المختلفة مهمة قدوم التجار المغاربة وذلك وفاءً بدورها فى بناء السوق الإسلامية الاقتصادية المشتركة (فيما عدا بعض فترات الدولة الفاطمية) حيث عمل المغاربة فى التجارة المصرية الداخلية والخارجية لاسيما أنهم كانوا يسافرون عن طريق مصر إلى الهند وشرق أفريقيا واليمن والصين ، خاصة أن العلاقات العائلية قد ربطت بين التجار المصريين والمغاربة .

كذلك فإن الأغالبة عندما تولوا الحكم فى تونس وأصبحوا زعماء أفريقية قد عملوا من جانبهم على توطيد أواصر الإخوة الإسلامية لاسيما بعد فتوحاتهم فى صقلية ومالطة ، فإنهم وسعوا دائرة نفوذهم الاقتصادى والتجارى ، وكانت سيطرتهم على عقلية فرصة طيبة لتنشيط حركة التجارة مع ولاة مصر العباسيين ومع الدولة الطولونية والإخشيدية حيث إن الجميع كانوا ولاة عباسيين ، وعلى هذا فقد شهدت الطرق البرية والبحرية نشاطا تجاريا واقتصاديا ممتازا ، ومن كل هذا فقد مارست مصر دورها الاقتصادى الرائد مع بلاد المغرب العربى إيثارا لحق الأخوة الإسلامية التى ترى ضرورة تحقيق مبدأ التكامل الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب حيث إن كلا منها كانت تعطى ما تبقى من إنتاجها للأخرى وتبادل معها المنفعة دون احتكار أو استغلال ومهما يكن من أنه حدث فى بعض الفترات التاريخية سوء تفاهم سياسى بين كل من القيادة السياسية فى مصر مع بلاد المغرب إلا أن كل هذا لم يكن إلا سحابة صيف سرعان ما كانت تنقشع وتعود الأمور لمجراها الطبيعى حيث يتم التبادل والمنفعة الاقتصادية كسابق سيرتها الأولى فى ظل من الصفاء والمودة والا لما كان السلطان الظاهر برقوق يلح فى طلب الخيول من كل من تونس وتلمسان وفارس ويرسل رسوله إلى هذه الأنحاء لكى تكون تلك الخيول عونا له فى معاركه الحربية وسندا قويا لقوة مصر العسكرية وقوة العرب والمسلمين فى ذلك الوقت

إن الدور الاقتصادى الذى كانت تلعبه مصر فى بلاد المغرب العربى لم يتأت من ناحية التجارة والاقتصاد والترابط الإنسانى الأخوى بين أبناء الشعب المسلم الواحد ، إنما كان ذلك يتأتى من الدور الثقافى الذى كان يترتب على وجود تجار كلا البلدين كل منها فى القطر الآخر .

فنجد أن معظم التجار الذين يمارسون كل هذه الأمور التجارية والاقتصادية كانوا رجال دين وعلم وفقه وعقيدة إسلامية ، بل رجال دعوة إسلامية يدعون للدين الإسلامى . أينما رحلوا بتجارتهم فى كل أنحاء المغرب الإسلامى بل أننا نجد أن التجار المغاربة عندما كانوا يشدون الرحال إلى مصر فإن هدفهم التجارى بمجرد الوصول سرعان ما تنتهى وظيفته ، ونجد الكثير منهم ينصرف إلى الدرس والعلم والتحصيل ودراسة العلوم الإسلامية المختلفة فى الجامع الأزهر ويشدهم الواجب الإسلامى ، ومن هنا فإنهم يتفرغون للبحث والدراسة وطلب العلم .

كذلك فإن التجار المصريين عندما كانوا يرحلون إلى بلاد المغرب ، فإن مسجد الزيتونة فى تونس ومساجد القيروان وغيرها من المدن التونسية وجامع القروينى فى فاس ومدارس تلمسان واغمات ومراكش وغيرها من البلاد المغربية التى كانوا يصلون إليها كانت تشدهم لكى يدلوا بدلوهم فى الفقه المالكى الذى كان منتشرا فى مصر ، وكان المغاربة كلهم مالكية ويتمسكون بالحديث النبوى الشريف وتفسير القرآن الكريم وشرح العلوم الإسلامية حيث إن التجار المصريين فى غالبيتهم لم يكونوا إلا رجال دين وعلم ودعوة يسيرون على المذهب المالكى الواسع الانتشار فى بلاد المغرب ، بل هو المذهب الوحيد الغالب على وجه الحياة الإسلامية فى بلاد المغرب ، ومن هنا كان الترابط الاقتصادى والتجارى من الأسباب القوية للترابط الدينى .

ومن هنا ترك الأثر الاقتصادى المصرى أثره الواضح والبارز فى البيئة المغربية ، حيث شهد بذلك التأثير الثقافى الذى تركه هؤلاء التجار فى إثراء الحركة الثقافية والفكرية والعلمية المصرية فى بلاد المغرب (رحيل علماء ب إلى مصر طلبا للعلم فى الفسطاط والأزهر) .

وهكذا نرى كيف أن الدور الاقتصادى المصرى فى بلاد المغرب وصولا حتى طنجة على ساحل المحيط الأطلسى قد ترك أثره الكبير فى التأثير الثقافى فى مختلف ميادين الحياة العلمية والدينية والفكرية والثقافية فى بلاد المغرب .

الفصل الثالث

دور مصر الثقافى فى بلاد المغرب العربى

(شمال أفريقيا)

لقد مارست مصر دورها منذ إشراق أنوار الدعوة الإسلامية فى بلاد المغرب العربى ، ذلك لأن التأثير الثقافى القوى الذى انبثق فى بلاد المغرب قد امتد من المناطق الواقعة إلى الشرق منه (مصر) حيث كان إنشاء مدينة القيروان بالمغرب الأوسط بداية عهد جديد فى تاريخ الثقافة الإسلامية فى البلاد ، ذلك لأن مدرسة القيروان ستصبح فيما بعد قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام ، فقد وفد إليها كثيرون من الصحابة وأقاموا بها يفقهون الناس فى شئون دينهم ، ومن ثم فإن انشاءها يعتبر بدء تاريخ الحضارة العربية الإسلامية المغربية ، فإلى جانب الجيوش والبعوث التى كانت تخرج منها للغزو والفتح ، كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى البلاد يعلمون الناس العلوم الإسلامية والعربية وينشرون الإسلام ، بل أن الدور الذى لعبته مدرسة القيروان فى ادخال البربر فى حظيرة الإسلام لا يقل عن الدور الذى لعبه القواد الفاتحون .

ولقد كانت مدرسة الفسطاط منذ الربع الأول من القرن الهجرى ٢٠ هـ . تستقبل العديد من الفقهاء وعلماء العالم الإسلامى الذين يفدون إلى مصر ، كما أن ارتحال علماء مصر إلى المدارس الإسلامية فى الحجاز والعراق أثر فى

ازدهار الحركة العلمية فى مصر ووقوفها على مختلف مذاهب الفكر والثقافة خارجها ، وهكذا أصبح جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط خاصا بالطلاب والعلماء يتحلقه العلماء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ، ورحل كثير من علماء مصر لطلب الحديث النبوى فى المدينة المنورة والعراق ، وكان لعلماء مصر دور واضح فى ازدهار علم القراءات ، كما انتقلت المذاهب الإسلامية إلى مصر ودرست فى الجامع الأزهر ومنها تدريس المذهب المالكى ، وكان تمسك أهل مصر الشديد بالسنة سببا فى إعراضهم عن المذهب الحنفى الذى يعتمد على الرأى كثيرا .

وهكذا بلغت المدرسة المصرية حدا كبيرا من الازدهار فى مختلف العلوم وفروعها الإسلامية حتى غدت مركزا من أهم المراكز العلمية والثقافية فى العالم الإسلامى . ولم تكن مدرسة الفسطاط المدرسة الوحيدة فى مصر ، بل كانت هناك مراكز ثقافية فى مختلف مدن مصر وخاصة الإسكندرية وفى مدن الصعيد كأسيوط وأسوان . وقد ترك هذا أثره المباشر فى مدرسة القيروان ذلك لأنه كان لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين الذين قدموا إلى مصر مع جيش الفتح الإسلامى وبعده الفضل كل الفضل فى وضع أساس مدرسة الفسطاط هذه ، كذلك كان الحال فى مدرسة القيروان فكان الصحابة والتابعون والذين استقروا فى مصر فترة طويلة ودرسوا خلالها فى مدرسة الفسطاط قد خرجوا من مصر فى جيش الفتح الذاهب إلى أفريقيا حيث دخلوا تلك الديار أثناء محاولات الفتح وبعده ، إذ تولى هؤلاء الصحابة مهمة تعريف المسلمين فى بلاد المغرب بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتفسير آيات القرآن الكريم ورواية الحديث وتفقيه الناس فى أمور دينهم . وقد تتلمذ على أيدى هؤلاء الصحابة والتابعين كثيرون من أهل المغرب العربى الذين أقبلوا على الإسلام وتعلم اللغة العربية حتى ظهر منهم الفقهاء والعلماء الذين برعوا فى كثير من فروع الثقافة العربية الإسلامية ، بل أن المسجد الجامع فى القيروان غدا مركزا لتلك الحركة الثقافية ومحورها تعقد به حلقات دراسة القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث . وقد أصبح المغاربة علماء حيث كانت مصر ومدرستها الشهيرة فى الفسطاط (جامع عمربن العاص) ملتقى الكثير منهم حيث درسوا وتفقهوا منها ، وكذلك ارتحلوا إلى المدارس الإسلامية فى

الحجاز والعراق ليعودوا إلى القيروان ليتولوا أمر التدريس والتفقه لإخراج جيل جديد من العلماء يكون لمصر دورها فى تنشئته ولكى يقوم بعدهم بنفس الدور . وشهدت مدرسة القيروان بفضل مصر وجهود علمائها ورحيلهم إلى بلاد المغرب وقدوم المغاربة إلى مدرسة الفسطاط الشهيرة نموا فكريا شمل مختلف فروع العلم وخاصة علوم الدين . وشهد الذين رحلوا إلى مصر طلبا للعلم وتفقهوا على أيدى علمائها ، ونقلوا عنهم قراءة القرآن الكريم على رواية نافع التى انتشرت فى القيروان . وكذلك المذاهب الإسلامية التى انتقلت من مصر إلى القيروان ، ومال كثير من فقهاء أفريقيا إلى مذهب الإمام مالك الذى ازدهر فى الفسطاط ولقى قبولا من الفقهاء المغاربة لاعتماده أساسا على نصوص القرآن الكريم والحديث دون تأويل أو لجوء إلى رأى . ووجد المذهب المالكى أنصارا عديدين فى مدرسة القيروان إذ كان المسلمون ببلاد المغرب شديدى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم معرضين عن اتباع المذاهب الأخرى التى تعتمد على الرأى والتأويل ، وكذلك كان لمصر دورها أيضا فى بلاد المغرب حيث انتشر المذهب الشافعى فى مصر ، ومن ثم أخذ ينتقل إلى المغرب ، لأن بلاد المغرب قد شهدت بعض فقهاء الشافعية الذين تتلمذ فى مصر على أيدى أساتذتهم المصريين أصحاب المذهب الشافعى ، إلا أن آراء الشافعية لم تجد ميولا لدى المغاربة لاعتمادها على الجدل والمناظرة ، كذلك لم يجد المذهب الحنفى قبولا لدى المغاربة لقلة اهتمامه بالحديث واستناده على الرأى . ولقد أدت مدرسة القيروان بالمذهب المالكى وفقه المالكية إلى جمودها أمام التيارات الفكرية الأخرى كالمعتزلة والخوارج حيث ناصب المالكيون أصحاب المذاهب الأخرى العداء ، فكانوا يمنعون دروس الاباضية والصفرية والمعتزلة أن تلقى بجامع القيروان ،ولم تكن لتلك المذاهب أدنى تأثير فى مصر ، ولم تكن قد قدمت من مصر إلى بلاد المغرب .

وكانت خطة الولاة بتولية المسلمين من أهل المغرب وظائف الولاية الافريقية أبلغ الأثر فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية فقد ساعد ذلك على أن تأخذ مدرسة القيروان الناشئة فى ترسيخ واشتداد ساعدها وكثر إقبال الصحابة والتابعين والعلماء والوافدين من مصر لكى يمارسوا دور مصر الدينى والعلمى والثقافى ، وأصبح جامع عقبة بن نافع مدرسة إسلامية

يؤمها الناس من كافة البلاد الإسلامية وخصوصا البربر أهل البلاد الأصليين الذين أخذوا بعد إسلامهم يتعلمون العربية ويقبلون على الثقافة الإسلامية وانتشر صيت القيروان بفضل علماء مصر ورجال دينها وفدوا فى جماعات كثيفة صحبه الجيش حتى عم أفريقيا ذلك التيار الإسلامى ، وأصبحت بحق العاصمة الروحية للبلاد .

وهكذا نجح دور رجال مصر من الصحابة التابعين الذين استقروا بها ودرسوا فى جامع الفسطاط فى أن يساعدوا البربر الذين تحولوا إلى الإسلام أن يتحول كثير منهم إلى العربية أى إلى اصطناعهم اللغة العربية أداة لهم فى الحديث والخطابة وأخذهم بالثقافة العربية فى شتى صورها ، وهذا أمر طبيعى إذ يكفى أن تكون العربية أداة هذا الدين ولغة الكتابة حتى يقبل البربر على تعلمها لقراءة القرآن الكريم كما أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ويؤدون العبادات التى شرعها الله وأن يتصلوا بالمصادر الأساسية لدينهم ، يضاف إلى ذلك أن البربر وجدوا فى اللغة العربية أداة طيبة تمكنهم من التفاهم فيما بينهم بحيث كانت اللغة العربية تمكنهم من تسجيل تراثهم . وكان اقبال البربر على اللغة العربية شديدا ، يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات عن رحيل الكثير منهم فى القرن الثانى الهجرى إلى مصر وبلاد المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة العربية ، وظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب باللغة العربية وتؤلف بها وتقوم بدراسة ما ورد من تراجم فى كتب الطبقات لفقهاء المغرب نجد الرواية تسلسل إلى رعيل أول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا فى ثقافة العرب وفهموها حق الفهم .

وكما سبق القول فإن فتح بلاد المغرب كان يتخذ فى أول الأمر من مصر مركزا له ، وكان والى مصر يوجه البعوث ويمدها بالمال والسلاح والرجال ، وكانت الأجزاء المفتوحة من بلاد المغرب تعد تابعة لولاية مصر بيد أن المناطق المفتوحة اتسعت وأصبحت المسافة بينها وبين مصر بعيدة ، لذا تطلع الفاتحون إلى تكوين ولاية إسلامية مستقلة فى إدارتها عن مصر ، وإن كان ذلك لايمنع من أن دور مصر قد ظل مستمرا فى كل أوجه الحياة العلمية والثقافية والفكرية والاجتماعية (هجرة بنى هلال) والسياسية والاقتصادية ، وعندما استقلت تلك البلاد عن مصر ، ومن ثم بدأ يرتفع

شـان القيروان بحيث لم تعد القيروان مركـزا يخرج منـه القراء والفـاتحـون فحسب بل أصبحت مركزا ثقافيا يخرج منـه الفقهـاء والمعلمون لينتشروا فى البـلاد يعلمـون النـاس اللغـة العربيـة وينشرون الإسـلام ويحفظـون القرآن الكريم يدرسون علومه المختلفة ويدرسون الأحاديث النبوية .

ولقد كان ذلك يعود بالدرجة الأولىإلى دور مصر حيث أن حضـارة مصر الإسـلاميـة قـد وصلت بلدا آخر بـانتشـار الإسـلام ، وصلت تلـك المظـاهر الحضـاريـة الإسـلاميـة من الرق والتحضر ، بـل ظلت تـواصـل رسـالتهـا فى اتجاهـات مختلفـة بحيث سـارت الحضـارة المصريـة من مصر إلى المغرب غربـا وذلـك لأن مصر تمثل البـاب الشرقى للقـارة الأفريقيـة ، ومن ثم قـامت مصر تحمل رسالتهـا الإسلاميـة إلتى بشر بهـا المصريون إلى بلاد المغرب والـذى كان إيـذانـا بـانتشـاره فى بلاد الشمال الأفريقى . ولابـد أن نـذكر بكل الفخر أن مصر هى المركز بل وهى المركز الاسـاسى الـذى انبثقت منـه أنـوار الـدعـوة الإسـلاميـة بعـد فتحهـا إلى كل ربـوع القـارة الأفريقيـة ، وكما كان لمـدرسـة الفسطـاط الشهيرة (جـامـع عمرو بن العـاص) دوره فى القرن الأول حتى القرن الثالث فى انتشار الفكر والحضارة الإسلامية واتخاذه ملتقى للوافـدين من بلاد المغرب العربى ، حتى كان تـأسيس الأزهر الشريف فى مصر فى العهـد الفاطمى ، ومن ثم سرعان ما أصبح ذلـك المسجـد الجامعـة الإسلاميـة الاولى بحيث بدأت تتطلع إليه الأنظار من مختلف الأقطار لاسيما مع بدايـة الـدولـة الأيوبينة التى عملت على محـاربـة المـذهب الشيعى والعودة إلى المـذهب السنى ومنهـا المـالكى وبقيـة المذاهب (الشـافعى ، أبو حنيفـة ، ابن حنبـل) فقـد بـدأت تفـد إليـه وفود الطلاب من كل صوب ، وخرجت منـه أفـواج العلمـاء والفقهاء إلى كل أنحاء البلاد . ومن الطبيعى أن ينـال أبنـاء المغرب والاقطـار المجاورة كل عنـاية واهتمام (انشاء رواق المغـاربـة الـذى كان من أكبر الأروقـة بالجامع الأزهر) وقد ساعد ذلك على أن ينتشر الفكر الإسلامى الذى ينشره الأزهر لقرب المسـافـة بين مصر وبين تلـك البقـاع،وقـد رحـل الكثير من الطلاب المغاربة الذين نهلوا من الأزهر وعـادوا يـدرسون ويفقهون ويعلمون النـاس مبـادىء الإسلام الصحيحة ، وينشرون الإسـلام فى كل بقـاع المغرب العربى الـواسـع، بـل أن علمـاء مصر تخطـوا حـدود مصر الغربيـة لكى يحملـوا دعوة الإسلام وينشروا حضارته فى تلك البقاع .

ومن الأزهر ودورة يقول جاكو بولينJacques baulinفى كتابه « دور العرب فى أفريقيا » تعد مكة المكرمة المكان المقدس عند المسلمين ، وتعد القاهرة مركز الثقافة الإسلامية ومكانة الأزهر فى العالم الإسلامى لاتعد لها مكانة . ومنذ قرون عديدة والازهر مفتوح للمسلمين يجدون فيه العلم ومشعل النور ، بل يجدون فيه المأوى والزاد . وكان الأفريقيون وكل مسلمى بلاد العالم يتدفقون على كعبة العلم ومهبط الفكر والإيمان وملتقى الفلك السيار من كل أقطار العالم الإسلامى لكى يتعلموا علوم القرآن الكريم والحديث وعلوم اللغة العربية وغيرها من العلوم المختلفة ، بل أكثر من ذلك فإن الأزهر أصبح يعد مركز القيادة للعالم الإسلامى كله .

ولما كانت مصر طريقا للحجاج الوافدين من بلاد المغرب ، فطالما انتهز هؤلاء الحجاج فرصة الحج ليحطوا الرحال بمصر والأزهر فترة طويلة أو قصيرة يغترفون خلالها العلم والمعرفة من الأزهر ويقفون علىمقومات الحضارة الإسلامية التى كانت القاهرة تحمل دائما أبرز معالمها ، وهكذا كان دور مصر ودور الأزهر واسعا فى المغرب وفى كل أفريقيا ، بل فى كل العالم الإسلامى كله ، بل فى كل الكرة الأرضية ٠ولقد كان العلماء المصريون موضع التقدير من جميع سلاطين وحكام بلاده المغرب العربى ،فكانوا اذ رأوا واحدا منهم ، فإنهم كانوا يحققون به ، وكثيرا ما كانوا يصحبون القوافل إلى الأراضى المقدسة فاذا التقوا بهم طلبوا منهم أن يسافروا معهم حيث يستقرون فى بلادهم فأقبلوا عليهم ، وقربوهم وأجزلوا لهم العطاء من أجل أن يولوهم بعض المراكز الهامة التى كانوا لايجدون غير المصريين لكى يشغلوا هذه الوظائف ، كما أن دور مصر وقيامها بالواجب الأكبر فى بلاد المغرب العربى حيث إن المذهب المالكى قد وفد من مصر إلى القيروان ، كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى من مصر عدا (الشيعة والخوارج) فى نفس الوقت الذى رحبت فيه مصر بكل من يقصدها من أهالى المغرب والسودان وأثيوبيا وغيرها من البلاد فى طلب العلم ، ويذكر ابن بطوطة أن أسد بن الفرات العالم المغربى المشهور (فاتح صقلية) فى تاريخ أفريقيا قد رحل إلى مصر ، وسمع من العالم (على بن القاسم) إمام المالكية فى مصر وتأثر به ، رغم أن أسد بن الفرات كان حنفيا ٠ وقد دون خلاصة مشاهدته وتجاربه فى كتابه فى تاريخ الفقه الإسلامى الذى عرف باسم (الأسدية) وحاول أن

يوفق بين تعاليم (مالك بن أنس) وأبي حنيفة ، فازداد الناس معرفة بالمذهب المالكي عن ذي قبل ، كما قدم إلى مصر (سحنون بن سعيد) لكي يسمع أيضا عن ابن القاسم ، وأقام في الفسطاط بعضا من الوقت حتى تشرب المذهب المالكي ، فكان أن تمكنت تقاليد هذا المذهب في كل بلاد المغرب خاصة المغرب الأقصى ، وأصبح مذهب الدولة الرسمي .

كما أننا نرى كيف أنه منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أصبح الأزهر مقصد جميع الطلاب المسلمين حيث يجدون العلماء المبرزين في كل علم إسلامي بل يجدون الرعاية والأرزاق مما أوقفه السلاطين حيث أنشئت الرواقات المختلفة لتضم أبناء المسلمين الدارسين من كل البقاع المعمورة وكان رواق المغاربة من بين الأروقة المشهورة الكبيرة في الأزهر الشريف حيث كان يتخرج من هذه الأروقة العلماء المبرزون حيث كان بعض هؤلاء يعودون إلى بلادهم ليواصلوا رسالتهم الإسلامية في بلادهم كمسجد الزيتونة في القيروان ، ومسجد القرويين في فاس ومساجد تلمسان وغيرها من المراكز الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي ، وبعض من المغاربة كان يفضل المكوث في مصر حيث يجدون رزقا وعلما وتدريسا ووعظا ، بل أنه يوجد من بعض المغاربة من وصل إلى منصب شيخ الأزهر في بعض الفترات التاريخية بعد أن طال مكوثهم في البلاد وساهموا في إثراء الحركة العلمية والنهضة الفكرية والفقهية .

كما كان للأزهر دوره في بلاد المغرب حيث يتخرج منه العديد من العلماء والفقهاء ورجال الدين المبرزين الذين كان لدورهم الأثر الفعال في إثراء حركة التعليم الإسلامي في بلاد المغرب ، بل أن كل علماء المغرب يعود الفضل لمصر والأزهر في تعليمهم ونشئتهم التنشئة الدينية ، ذلك لأن الأزهر ظلت أبوابه مفتوحة لتدريس الفقه السني ، وفي أواخر حكم الأيوبيين كان الأزهر مسرحا لنشاط بعض أعلام الفكر والأدب ، لكن الأزهر بعث من جديد في العهد المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٢ هـ / ١٢٥٠ / ١٥١٧م حيث عادت إليه منزلته العالية وأصبح جامعة إسلامية عظمى ، ومن ذلك الوقت تركزت امال المسلمين في مصر ، وأصبحت قبلة العلماء والفقهاء والنازحين إليها ، وكعادتها أفسحت لهم صدرها وآوتهم في حنان ، وأخذ هؤلاء العلماء الوافدون

يتعاونون مع رفقائهم المصريين فى حمل رسالة العلم فى الأزهر المعمور وفى معاهد مصر الأخرى .

ولقد تأثرت ثقافة المغرب الإسلامية بماكان يدرس فى مدارس مصر ومعاهدها ، فقد شهدت القيروان فى عهد الأغالبة نمو الثقافة العربية الإسلامية التى بدأت تنمو وتشتد ، غير أن عهد الأغالبة دفعها إلى الأمام فى طريق التطور والنمو . ويذكر أن عهد الأغالبة شهد بُعداً جديدا فى نشأة الثقافة الإسلامية وذلك تأثراً بما كان يحدث فى مصر ، حيث إن مساجد القيروان قد شهدت حلقات الدرس والوعظ وتدريس العلوم الإسلامية ، بل أن الأغالبة أنشأوا مساجد ومدارس جامعة أطلقوا عليها دور الحكمة واستقدموا لها علماء وأساتذة من مصر بصفة خاصة وبلاد المشرق الإسلامى بصفة عامة ، وهذا يؤكد دور العلماء المصريين فى نشاط الحركة العلمية بما مارسوه منذ القرن الأول الهجرى ، فكانت هذه المدارس وما اقترن به أنشاؤها فى انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملا فى رفع شأن اللغة العربية وثقافتهم ، ذلك لأن كثافة انتشار اللغة العربية فى بلاد المغرب توقفت على دور هؤلاء العلماء ودور الكثافة العربية المهاجرة إلى المغرب ، ومن ثم بدأت اللغة العربية تنتشر ، ذلك لأن البربر منذ بداية دخولهم الإسلام اعتبروا اللغة العربية هى لغتهم الوحيدة والمكتوبة حيث إنها لم تستخدم للشعائر الدينية فحسب بل للتعبير عن الثقافة الوطنية أيضا ، ولذا لم تتردد الأسر البربرية التى حملت من جنوب المغرب فى أن تصطنع اللغة العربية لغة رسمية وتشجيع العلماء العرب والمصريين الوافدين ، بل أن الكتاب فى هذه الدول كانوا يتنافسون مع كتاب المشرق الإسلامى على التفنن فى الكتابة الديوانية ، وظهر الخط المغربى تميزا له عن الخط المشرقى .

ولقد كان أبرز دور ثقافى مارسته مصر فى بلاد المغرب هو ظهور مذهب مالك ثم انتشاره من مدرسة القيروان ، حيث لم يكن ذلك المذهب وليد عهد الأغالبة فقد انتشر فى البلاد قبل الأغالبة ، غير أن عصرهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها ، وقد وفد مذهب مالك قادما إلى القيروان من مصر ، كما وفدت المذاهب الاسلامية الأخرى ورحل فقهاء مصر إلى بلاد المغرب ، ويظهر أن ما سمعه المغاربة من علمائهم

القادمين من مصر بعد أن درسوا بها أو سمعوا من دروس أسد بن الفرات قد حببهم فى هذا المذهب الذى اتخذوه مذهبا لهم دون سائر المذاهب ويبدو أن رغبة علماء المغرب فى الاستزادة فى طلب العلم من فقه الإمام مالك ، قد دفعت فقيه المغرب المشهور (سحنون بن سعيد) بالرحيل إلى مصر ليكتسب علما ومعرفة جديدة ويستمع إلى عالم الفقه المالكى (على بن القاسم) المصرى حيث أقام ابن سعيد بالفسطاط زمنا طويلا حتى تشرب مذهب الإمام مالك وملك عليه نفسه ، ومن ثم قرر العودة إلى بلاده المغرب ، ومن ثم بدأ فقهاء المالكية يقبلون على الحياة الثقافية والدينية ، وبذلك تمكنت تقاليد المالكية فى نفوس المغاربة وفى مدارس القيروان وغيرها من المدارس الأخرى ، ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد .

وهكذا بفضل مصر ودورها الدينى والثقافى والحضارى ، انتصر مذهب المالكية انتصارا عظيما ، بل أصبح فقهاء المالكية فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ، بل أن المغاربة أمعنوا فى التعمق فى مذهبهم المحبب ودرسوا كل جوانبه ، فمن كان مالكيا قبلوه ، وأحبوه ومالوا إليه ، ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة ، وليس معنى هذا أن مدارس المغرب قد أفقرت من ألوان الثقافة العربية الإسلامية الأخرى ، فقد كانت جميع العلوم الإسلامية تلقى فى مدارس القيروان ، وبدأت الآراء الجديدة ذات الطابع الدينى تلقى من التفكير والدراسة تتسرب إلى المغرب كما تسربت إلى البيئات الإسلامية الأخرى ،لكن المغاربة غلبت عليهم النزعة المالكية بوجه خاص فجعلتهم لايعرفون من المذاهب والدراسات الإسلامية إلا هذا المذهب .

ولقد تغلب مذهب الإمام مالك نهائيا وطبع الثقافة العربية فى المغرب بطابعه الذى مازال سائدا حتى اليوم ، حدث هذا فى القرن الخامس الهجرى . وقد صحب انتصار المالكية على هذه الصورة توطين الثقافة العربية نهائيا فى البلاد بتفشى اللغة العربية وتغلغل الثقافة الإسلامية العربية فى نفوس الناس وظهور جيل من مثقفى البربر وفقهائهم وعلمائهم يطبعون الثقافة الإسلامية بطابعهم .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان من العوامل التى ساعدت أيضا على نشر اللغة العربية كلغة حديثة هجرات بنى هلال وبنى سليم الشهيرة فى

تاريخ المغرب ، ومع التسليم بأن هذه الهجرات أضرت بالعمران فى بلاد المغرب إلا أنها على الجانب الآخر لعبت دورا كبيرا ومؤثرا بل فعالا فى طبع المغرب ، بالطابع العربى .

وهكذا طبع المغرب بطابع الثقافة المغربية الإسلامية فى أحلى صورها حيث كانت ثقافة ذات طابع متميز عن الطابع الشرقى فى كل ناحية فى الخط المغربى ، قلم مغربى خاص ، وفى الفن الإسلامى فن مغربى ذو طابع خاص ، وفى الثقافة المالكية الاصيلة المتمسكة بالكتاب والسنة ، بل أن النشاط الأدبى والفكرى فى مدارس القيروان فى تلك الآونة يكاد يكون مقصوراً على الوافدين على بلاد المغرب من مصر وبقية بلاد الشرق الإسلامى ومن الأندلس . ومن هنا أعطت مصر كل فكرها العلمى والدينى والأدبى ومهدت الطريق بل قدمت تلك الفرصة العريضة لملامح الثقافة العربية الإسلامية فى المغرب . وهكذا إذا كانت ثقافة المغرب العربية قد وصلت إلى هذا الحد من التفوق إلا أن الأحداث السياسية التى شهدها هذا العصر قد غيرت من حركة الثقافة ومجراها ، ذلك أن ظهور هذه المراكز الإسلامية فى بلاد المغرب قد أضحت معاقل فكر وعلم ومعرفة فى عالم المغرب والأندلس ، ذلك لأن القيروان قد أضحت أول مركز ثقافى فى المغرب ، وغلب الفكر والدرس على بعض مساجدها مما نقلها من طبيعة المسجد إلى طبيعة الجامعة على نحو ماحدث فى الأزهر . وظلت القيروان مفتوحة الأبواب حتى دب الإسلام خلف الصحراء فأرسلت من خريجيها مَنْ علّم الإسلام على الجانب الآخر من هذه الصحراء ، كما استقبلت من طلابها أعدادا كبيرة من هذا الجانب ، ومما يدل على عظمة القيروان التى كان الفضل فى ظهورها بصورة جامعة يعود إلى دور العلماء المصريين ورجال دينها أن يحيى بن ابراهيم زعيم قبيلة جدالة ومنشىء دولة المرابطين عندما أحس بالتزامه بخدمة الإسلام ، وانقاذ الزنوج والبربر من ظلام الوثنية والجهل فإنه ذهب إلى القيروان وهى المركز الإسلامى الهام حيث قابل أحد علمائها الافذاذ وهو أبو عمران الفاسى وتلقى عنه ألوانا من الفكر والفقه ثم ذكر له أن يريد أن ينقل إلى قومه فى الجنوب ثقافة القروان الدينية وطلب منه أن يرشح له أحد العلماء لذلك ليصحبه إلى قومه فى الصحراء ورأى ابن عمران أن يحيله إلى تلميذه فقيه السوس واسمه (وجاج بن زولو اللمتونى) فاختار له وجاج تلميذه

عبدالله بن ياسين الذى قام بدور كبير فى انشاء دولة المرابطين . وهكذا انبعثت من القيروان دعوة إسلامية ساعدت على تكوين دولة المرابطين .. وكان للقيروان رسالة أدتها على خير أداء ، وإذا كانت القيروان قد لعبت دورا هاما ومؤثرا بل فعالا فى حركة إثراء الثقافة المغربية بل فى الاتجاه نحو الجنوب حيث المناطق الزنجية جنوب الصحراء الكبرى ، إلا أنه على الجانب الآخر فقد لعبت مدينة تلمسان دورا آخر فى صيغ الحياة الثقافية على أرض المغرب ، ذلك لأن تلمسان منارة أخرى من منارات الفكر الإسلامى ، كما أنها لعبت دورا ثقافيا مؤثرا فى العصور الوسطى ، بل دوراً هائلا فى خدمة الإسلام جنوب الصحراء الكبرى ، كما أنها شاركت القيروان وفاس والمدارس الإسلامية الأخرى على أرض المغرب فى بسط الثقافة العربية الإسلامية ، كما أن كثيرا من علماء تلمسان ساهموا فى بناء حركة الفكر والثقافة العربية الإسلامية فى البلاد العربية المجاورة ، ومن ذلك رحيل الشيخ التلمسانى المغربى إلى السودان حيث نزل على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وكان له باع طويل فى العقائد فجذب إليه المريدين أنحاء مملكة الفرنج .

وعودة للغزوة الهلالية ، نقول إنها إذا كانت قد ساعدت على صبغ المغرب بالصبغة العربية إلا أن هناك آراء تذكر أن غارات العرب الهلاليين وانتقالهم من مصر إلى أفريقية منذ عام ٤٤٣ هـ قد كانت بداية الانحدار فى تاريخ الثقافة العربية ، ويذكر أن العرب الهلاليين حاصروا مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة ودخلوها عنوة وأعملوا فيها الدمار والخراب ، ثم أخذوا يزحفون غربا يهددون مدن البلاد كما هددوا مدنا أفريقية أخرى ، وقد أصبحت القيروان خاوية وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم ، فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة ولم يكن أمامهم إلا المغرب الاقصى حيث كانت أوضاع المغرب مهيأة فى ذلك الوقت للزعامة السياسية والثقافية وتزعم المغرب الاقصى الحياة السياسية فى بلاد المغرب كلها . وكان لهذه الاحداث السياسية كلها أثرها الواضح فى تأكيد الزعامة الثقافية ، واستردت مدارس المغرب الاقصى كمكناس وأغمات وسجلماسه قوتها ، بل زادت قوة عن ذى قبل حيث وجد علماء القيروان فى المغرب الأقصى مقرا لهم ، وهناك ألقوا عصى الترحال وحطوا الرحال فى مدينة فاس بوجه خاص ثم أسسوا جامعا ينسب لهم يسمى جامع القرويين .

وقد شهد جامع القرويين منذ أول يوم ليكون مركزا للتعليم ، وقد ظل ذلك يمارس دوره باستمرار . وهو لذلك يعتبر أقدم جامعة إسلامية ، ولم يكن جامع القرويين أول مركز علمي في مدينة فاس لأنها كانت قبل ذلك تزهو بالعلم والفكر . ولعل ذلك هو الذي جذب علماء القيروان إليها لينضموا إلى موكب المعرفة في هذه العاصمة الخالدة ، وعمل المرابطون كما عمل بعدهم الموحدون على المضي في النهضة الثقافية إلى غايتها حيث امتد نفوذ الموحدين إلى المغرب الأوسط بل أن نفوذهم وصل إلى طرابلس . وزادت هذه الانتصارات السياسية من نهضة المغرب الثقافية فقد أصبح قلب الحياة الثقافية ، كما دافع الأشراف السعديون عن هذا التراث الإسلامي الذي أصبح يتركز في فاس بعد سقوط غرناطة بل أنهم عملوا على أداء نفس الدور الذي أداه المماليك في مصر ، ويذكر السلاوي في كتابه الاستقصا في أخبار المغرب الاقصا . أن السلطان المنصور السعدي كانت له صلات ومراسلات مع علماء الأزهر في مصر ، وأن بعضا من هؤلاء العلماء قد رحلوا إلى المغرب لكي يؤدوا واجبهم العلمي في بلاد المغرب ، وكانت فاس أيام زيارة الحسن الوزان لها في قمة شهرتها كمقر وموطن للعلماء والفقهاء والأدباء ففي تلك الفترة تأثرت مدرسة فاس بمدرسة القيروان ، وكان تأثير ذلك عظيما فقد ترك أثره في الحياه العلمية والثقافية بحيث أضحت فاس لاتقل كثيراً في أوجه النشاط الثقافي والحضاري عن القيروان لاسيما بعد الغزوة الهلالية ورحيل العلماء إلى جامع القرويين ولقد قامت مدينة فاس مع غيرها من المدن الإسلامية الكبرى بدور كبير في اثراء الحركة الثقافية والعلمية في المغرب امتدادا حتى مدينة طرابلس في ليبيا ، ذلك لأن فاس أضحت هي مدينة خلاصة الحضارة الأندلسية الإسلامية ورمز العبقرية المغربية عبر القرون . ولقد لعبت فاس أعظم دور ثقافي ، فهي أروع حواضر المغرب الكبرى تزهو بمدارسها ومعاهدها لاسيما جامعها الذائع الصيت جامع القرويين الذي أصبح جامعة المغرب الكبرى الذي ينافس الأزهر في القاهرة ولا يزال جامعها الخالد القرويين من أعظم معاهد العلم في المغرب الأقصى ، ولقد كانت فاس تستحق الشهرة التي تنسب إليها لأنها كانت هي راعية حضارة أصيلة ازدهرت داخل أسوارها وفاضت خارجها وأسست لنفسها منهجا في الحياة حافظت عليه .

ومن هنا فإنه يمكن القول أنه بعد الدور الذي قامت به القيروان

وشاركت فيه فاس ، فإن المالكية التى وفدت من مصر وتلقى علماؤها علومهم فى الأزهر الشريف ثم عادوا أدراجهم إلى بلاد المغرب قد أضحت هى القومية العربية الأفريقية فى ذلك الحين وتاريخ دخولها أفريقيا ، وتأصلت فى ترابها إنما هو فى الواقع تاريخ تكّون الشعب المغربى الإسلامى . ولقد كان الدور الأكبر يقع على عاتق فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى المختلفة نظرا لقرب المسافة وسهولة الاتصال ، وكذلك لأن فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى منذ أن أسست وهى دار رفعة وعلم وإصلاح ودين ، وهى قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وخيطها . وقد بلغت شأنا عظيما فى عهد المنصور السعدى .

وعلى هذا فقد كان جامع القرويين لايقل شأنا عن جامع الزيتونة ، وجامع الزيتونة يعتبر مركزا كبيرا من المراكز العلمية الإسلامية فى شمال أفريقيا ، والذى قدم ولا يزال يخدم الفكر الإسلامى . وقد شيد جامع الزيتونة فى القرن الثانى الهجرى . واهتم الأغالبة بتعميره وتجديده ثم أصبح جامعة للدراسات العربية الإسلامية فلعب دورا كبيرا فى خدمة الفكر الإسلامى لافى تونس وحدها بل فى شمال الصحراء وجنوبها . وكان قبلة كثيرين من طلاب العلم من البربروالزنوج . كما تخرج منه علماء رحلوا إلى جنوب الصحراء ونشروا الإسلام وخدموا فكره وثقافته ، كذلك شهد المغرب العربى بجانب مدينة القيروان وفاس مدنا أخرى ساهمت فى نشر الثقافة العربية الإسلامية منها مدينة أغمات وسبته ومليله ومراكش وغيرها من مدن المغرب المختلفة .

وإذا كانت بلاد المغرب قد حظيت بهذه المكانة العلمية فإن ذلك يرجع إلى فاس لأنها كانت أهم مركز علمى بهذه البقاع ، فتفتحت للثقافة منذ نشأتها حتى جذبت إليها ثقافة الأندلس ، فأصبحت منارة علمية فائقة بل أكثر من ذلك فإن ابن خلدون الذى استقر فى مصر واتخذها موطنا له فى عصر السلطان برقوق قد شاهد ما وصلت إليه المغرب من اضمحلال ثقافى إثر الغارة الهلالية فكان أن شد الرحال إلى القاهرة وظل كذلك حتى بعد هذه الغارة الهلالية فإنه رغم الاستقلال الذى نعمت به تونس فى عهد الحفصيين فإنها ظلت تسلتهم الوحى من بلاد المغرب الأقصى ، إلا أن دور مصر وعلاقاتها وصلاتها والثقافة فى تلك البلاد وازدهارها . ذلك لأن دور علماء

المغرب فى اثراء الحركة الثقافية المتأثرة بالأندلس قد كان واضحا فى بلاد المغرب الاقصى ، إلا أن المناطق الغربية من مصر حتى المغرب الأوسط قد وضح فيها التأثير المصرى بصورة واضحة كل الوضوح وإذا كان التأثير المصرى فى بلاد المغرب الاقصى لم يكن معدوما إلا أنه لم يكن بصورة التأثير الأندلسى حيث إن قرب المسافة وخضوع القطرين لحكم واحد خلال فترة المرابطين والموحدين قد ساعد على تدفق ثقافة الأندلس إلى المغرب طليقة من كل قيد ، بل تخطت هذه المؤثرات حدود المغرب إلى السودان الغربى ، واستقدم المرابطون العلماء والفقهاء ورجال الدين لحضور مجالسهم أو لتأديب بنيهم بل أن المرابطين فتحوا قصورهم وصدورهم لهذا الغزو الثقافى الذى جاء لبلادهم من الأندلس ، كما فتح الأندلسيون أبوابهم للغزو العسكرى الصاعد من بلاد المغرب ويعلق الباحثون على هذه النتائج بأن المغرب قدم الجنود والأندلس قدمت العلم والفقه ، المغرب أخضع الاندلس سياسيا ، لكن الأندلس أخضع المغرب ثقافيا . وكان للوافدين من الأندلس إلى فاس شطر فى المدينة ، أما الشطر الثانى فكان للمشارقة ، وهناك جماعة آخرون من أفذاذ الأندلس حملتهم مواهبهم إلى قصور خلفاء المغرب ، ومن هؤلاء ابن رشد الذى ولد بقرطبة ثم رحل إلى مراكش يقضى بقية عمره فى رحاب الخليفة المغربى ابن يعقوب يوسف ، ومنهم أيضا ابن طفيل الذى عمل وزيرا لهذا الخليفة وكبيرا لأطبائه ، وهكذا فإن كتب الطبقات تصور هذه العلاقات الوثيقة التى ربطت بين المغرب والأندلس فى عهد المرابطين ، فتحدثت عن أهل المغرب الذين وفدوا على الأندلس والتحقوا بمدارسه وجلسوا إلى فقهائه وعلمائه وأعلام أهل الفكر الاندلسيين الذين رحلوا إلى المغرب وأقاموا فيه يعلمون ويفقهون ، ولهذا ظلت بلاد المغرب والأندلس فى ذلك العصر نهضة علمية شاملة ، إذ اجتمعت فى بلاد المغرب الأقصى مؤثرات المغرب الأوسط التى وفدت من مصر وكانت مصر ، هى التى غذت لبنات الثقافة العربية الإسلامية وتعهدتها فى عهدها حتى استوى عودها وأحسنت العطاء فى تربة القيروان وغيرها من مدارس الإسلام ، والتى فرّ علماؤها إلى فاس بعد غارات بنى هلال ، وكذلك مؤثرات الأندلس التى وفدت فى ظل المرابطين على نطاق واسع .

وهكذا استطاع الأشراف السعديون أن يدفعوا عن هذا الميراث الحضارى

الإسلامى الذى أصبح يتركز فى المغرب الأقصى ، وأن ينظموا المقاومة الإسلامية ، وأن يطردوا البرتغاليين من المدن الساحلية التى استولوا عليها ، وأن يؤدوا نفس الدور الذى أداه المماليك فى مصر حينما صانوا تراثها الإسلامى من عدوان الصليبيين والمغول . وكما حقق المماليك لهذا الدفاع المجيد زعامة العالم الاسلامى فى الجناح الشرقى ، حافظ الأشراف السعديون على هذه الزعامة الثقافية التى توارثوها ، وهكذا ظهر دور مصر واضحا قويا فى بلاد المغرب حتى المغرب الأوسط ، وكان له أثر ملموس فى بلاد المغرب الأقصى .

وهكذا كان لدور مصر فى اثراء الحركة الثقافية فى بلاد المغرب منذ القرن الأول الهجرى أثرها الفعال فى ظهور تلك الكتلة العربية الثانية على أرض القارة الأفريقية ، بعد أن تكونت الكتلة الأولى على أرض مصر ، ثم جاءت الكتلة العربية الإسلامية الثالثة فى سودان وادى النيل .، لقد شاركت هذه الكتل الثلاث مجتمعة فى صنع الحياة العربية الإسلامية الثقافية على أرض القارة الأفريقية .

وهكذا يكون الدور الذى لعبته مصر فى إثراء الحركة الثقافية هو الدور الواضح ، إذ أن كل المؤثرات وإن كانت قدمت من الجزيرة العربية إلا أنها طبعت بالطابع المصرى فى كثير من الأمور المؤثرة ، وهكذا تركت الحياة المصرية الإسلامية بصماتها فى بيئة المغرب منذ أن شد أبناء المغرب الرحال إلى مدرسة الفسطاط العلمية الإسلامية فى مسجد عمرو بن العاص ومدرسة الفسطاط التى كانت لها فعاليتها المؤثرة ، بل أنها كانت أكثر قدرة على العطاء حيث أضحى هذا المسجد الجامع هو قبلة طلاب العلم فى أفريقيا وكعبة المعرفة والعلوم لسائر أبناء المسلمين فى المغرب وغيرها من بلاد القارة الأفريقية .

ومن هنا فإن كل ما كان يدرس فى القاهرة وفى جامع الفسطاط والأزهر إنما كان يدرس فى مسجد الزيتونة وفى القيروان وفى مسجد القرويين وفى غيرها من المدن الإسلامية الأخرى التى حزت حذو الأزهر الشريف فى طريقة التدريس ، وإن كان الوضع الثقافى والعلمى والدينى فى المغرب قد بدأ يتلاءم مع البيئة المغربية . وإن كان ذلك قد ظهر أكثر وضوحا فى انتشار المذهب المالكى حيث أصبح هو المذهب الغالب على كل المذاهب السنية الأخرى

وغيرها من الفرق الإسلامية الأخرى كالخوارج والشيعة والمعتزلة . وبهذا أضحى المغاربة بناء على الدور المصرى مالكية المذهب بعد أن تمكن فى نفوسهم وذلك بعد أن كان مذهب أبى حنيفة هوالمذهب الرسمى للدولة العباسية . كان قد وفد إلى المغرب بقيام الدولة العباسية غير أنه لم يلق اقبالا من المغاربة المتشيعين بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمخلصين للإسلام الصحيح ، ولقد كان كرههم لمذهب أبى حنيفة وغيره من المذاهب الأخرى غير المالكية هو بسبب قلة اعتماده على الحديث ، واعتماده على الرأى والاجتهاد متأثرا بالمدارس الفارسية فى التفكير .

غير أن ظهور مذهب مالك خصوصا فى عهد سحنون بصورة قوية كان نتيجة الانقلاب على مذهب أبى حنيفة الذى كان مسيطرا على قلوب الناس ومدارس الفقه . حتى انتصر نهائيا فى عهد سحنون وبدأ المالكية تصبح لها الغلبة على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها .

وهكذا بفضل مذهب مالك كره أهل تونس (أفريقيا) مذهب أبى حنيفة ، واشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكيين فى الحياة الثقافية والدينية وانحسرمذهب الخوارج والمعتزلة ولم يكن على أرض المغرب إلا المالكية .

وهكذا كان لمصر دورها فى تغذية فقه مالك عن طريق فقيه المغرب الكبير سحنون بن سعيد الذى وطد دعائم المذهب المالكى حيث كانت دراسة فقيه المغرب الأول على شيخ فقيه المالكية المصرى (على بن قاسم) الذى كان له الدور الفعال فى انتشار المذهب المالكى فى المغرب والأندلس .

وهكذا أعطت مصر فأجادت العطاء ومنحت فكرها وثقافتها وعلمها فأتت ثماراً طيبة وظلالا وارفة فى أرض المغرب حيث كان لمصر فضلها كل الفضل فى تعهدها هذه الثقافة والحضارة العربية الإسلامية فى مهدها حتى اضحى . جال العلم والفكر المغاربة أساتذة فى جامعات مصر الأزهرية ، وتقلد منهم الكثير بعض المناصب العليا فى الجامع الأزهر حتى وصل بعض المغاربة إلى منصب شيخ الجامع الأزهر .

وهكذا كان لمصر أثر بعيد فى اثراء الحركة العلمية الإسلامية فى بلاد المغرب وامتداد من حدودها الغربية مرورا بكل أقطار المغرب ووصولا إلى طنجة على شاطىء المحيط الأطلسى .

الخاتمة

من خلال تلك الدراسة عن دور مصر الحضارى فى القارة الأفريقيـة فى العصور الوسطى الإسلاميـة ، وقبل قدوم رجـال الاستعمار الغربى للسيطرة على مقدرات القارة يتضح لنا أن موقع مصر الذىمنحه لها الخـالق الأعظم والذى أعطاها بعدا عميقا فى المكانـة الجغرافيـة لكى تمارس ذلك الدرر فى كل أنحاء القـارة الأفريقيـة حيث كان لهـا دور التفـاعل الخلاق فى أفريقيـا حتى يبلغ الدور المصرى منتهى مداه فى آفـاق أفريقيـا الواسعـة . وتخرج مصر فى ذلك بأنها بسبب متوسط موقعها قد أجادت العطاء ، وأحسنت الغـذاء لتلـك الشعوب الأفريقية إلا أن مـا أدتـه مصر لأفريقيـا لم تستطع أن تؤديـه أيـة دولـة من دول القـارة ، ولقـد مـارست مصر ذلـك الـدور من خـلال الطرق الممتدة حيث كان طريق النيل يربطها جنوبا حتى هضبة البحيرات وحوض الكـونغـو ، وأيضـا بـلاد الحبشـة وهكـذا مـارست مصر دورهـا السيـاسى والاقتصادى والثقافى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

كـذلـك لعب البحر الأحمر دوره كحلقـة اتصـال وطيـدة بين مصر والعـالم الأفريقى أو بين أفريقيـا الشرقيـة حيث كانت السفن المصريـة تقطـع ذلـك البحر من شمالـه إلى جنوبـه وصولا إلى كل المنـاطق الجنوبيـة فى بحر العرب حيث كان طريـق البحر الأحمر دائمـا قبلـة أنظـار التجـار المصريين فى كل العصور ، كما وصل المصريون إلى النوبـة وبحر الغزال وحوض الكونغو ، وكل البلاد الواقعـة على السـاحل الجنوبى للبحر الأحمر ، كما مـارست مصر دورهـا عبر طرق الصحراء الكبرى الممتـدة إلى غرب أفريقيـا حيث كان طريق درب الأربعين يصل إلى السـودان ومنه غربا إلى كل بلاد غرب القارة ، إضـافـة إلى طريـق (غـات - بـولاق التكرور) ، الـذى كان يخرج من شـاطىء المحيـط الأطلسى حتىيصل بـولاق التكرور ، والـذى كان يمر ببـلاد وأقطـار مختلفـة فىوسـط القـارة الأفريقية كانم ، برنو ، بـاجرمى واداى ، وفى غرب القـارة إمارات الهاوسا ، كبى ، مالى ، سنغاى ،غـانـا ، ولقـد كانت الواحـات المصريـة والمدن الأخرى عبارة عن محطات للقوافل المتجهة إلى البلدين .

كذلك ارتبطت مصر مع بلاد المغرب العربى عن طريق البحر الأبيض المتوسط حيث كانت السفن تخرج من ميناء الإسكندرية وتصل حتى طنجة غربا على المحيط الأطلسى ، كما كان هناك طريق داخلى يمتد على البحر الأحمر ، وقد لعبت كل هذه الطرق الدور الأول والأكبر فى أن تقوم بمهامها الملقاة على كاهلها قبل الشعوب الأفريقية المختلفة .

وقد مارست مصر دورا حضاريا فى بلاد المغرب ووسط القارة الأفريقية ، وكان الدور السياسى يمثل حجر الزاوية فى تلك الأدوار ، حيث إنه كانت تتوقف عليه بقية الأدوار الأخرى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ولعبت مصر دورا مؤثرا فى بلاد كانم وباجرمى ووادى وبرنولى وسط القارة ، وذلك تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية وللإفادة من الخبرات العلمية والثقافية والسياسية التى وصلت إليها مصر . وكانت هذه السلطنات هى أقرب السلطنات فى وسط القارة إلى مصر جغرافيا حيث كانت القوافل تصلها بالطرق التى تسلك الصحراء الغربية فى طريقها إلى واحات مصر ومنها إلى الأراضى المصرية .

وعلى هذا فإنه يمكن القول أنه كانت هناك روابط وعلاقات سياسية قوية استطاعت مصر من خلالها أن تمارس دورها مع تلك السلطنات التى قامت فى النطاق شبه الصحراوى فى القارة الافريقية . ولقد كان ارتباط تلك البلاد بمصر واتصالها بأقصى الحضارات الإنسانية المعاصرة فى ذلك الوقت هو صاحب الأثر الأكبر فى تشكيل وتوجيه تاريخ هذه البلاد ، ولعل أبرز تلك النواحى وأكثرها وضوحا وجود الخلافة العباسية بالقاهرة وحج سلاطين تلك البلاد ومرور رعاياهم إلى الحجاز حيث الأراضى المقدسة فى (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ، فقد كان أداء فريضة الحج عاملا هاما للربط والتفاهم فكان الحاج يمر بمصر ليتعرف على أهلها ويتفهم تيارات الفكر الدينى ، وكان ذلك من عوامل تقوية الدور المصرى وتطور الأساليب الحضارية ، بالإضافة إلى أن الحج كان يمثل أقوى الروابط السياسية التى ربطت مصر بدول وسط وغرب القارة ، فضلا عن أن مصر كان لها رصيد حضارى وسياسى متفوق بل رائد فى العالم الإسلامى ، لذا قصدها الحجاج مشوقين لمشاهدة ذلك المركز السياسى من جميع جوانبه الفكرية والسياسية

والتنظيمية والدينية والاقتصادية ، هذا بالإضافة إلى أن مصر كانت وسيطا حضاريا بين تلك المناطق الأفريقية ومناطق العالم الأخرى .

ولقد كان مرور سلاطين تلك البلاد (وسط وغرب القارة) بمصر يتيح لهم فرصة الاستقرار بها فترة من الزمن ريثما يتهيأ موكب الحج والمحمل للخروج إلى مكة المكرمة ، ولقد اتخذ سلاطين هذه البلاد مصر لغرضين أحدهما دينى والآخر سياسى ، أما الدينى فكانوا يقصدون من الحج تأدية الفريضة ، أما الجانب السياسى فهو مقابلة الخليفة العباسى فى القاهرة والحصول على الخلع والتقاليد والاعتراف بهم سلاطين على بلادهم ومنحهم تفويضا شرعيا بذلك . والأدلة كثيرة ومتنوعة والتى تبين عمق الدور المصرى فى المجال السياسى وعمق العلاقات السياسية بين مصر وبلاد وسط وغرب القارة ، ففى مراسلات ديوان الانشاء بمصر ماهو محفوظ برسم الكتابة التى كان يرسلها الديوان المملوكى إلى سلاطين بعض هذه الأقطار ، وقد حفظت لنا المصادر رسالة متبادلة بين سلطان مصر الظاهر برقوق وبين سلطان برنو تتعلق بشكوى عرب جذام الذين اجتاحوا مع غيرهم من العرب المهاجرين من مصر جنوبا مملكة الزغاوة حتى سيطروا على دارفور . ولقد كان دور مصر ومركزها الهام فى تلك المناطق من الأسباب القوية التى دفعت سلاطين برنو بمراسلة سلاطين مصر ومنهم السلطان برقوق بهذا الشأن ، ويتضح من تلك الرسالة أنها تحمل أسلوبا من التوسل والرجاء لما لمصر من مكانة فى تلك البلاد ، ودورها فى معالجة تلك الأزمات التى تحدث من جراء هجوم القبائل العربية على تلك البلاد .

٥ أنه كان لوجود الخلفاء العباسيين فى القاهرة مكانة سياسية فى نفوس كثير من الحكام المسلمين على مستوى العالم الإسلامى أجمع ، وذلك لأن الخلفاء العباسيين فى مصر كانوا يضيفون الشرعية على حكم ملوك السود والمسلمين فى بلاد السودان مثلما كانوا يفعلون بالنسبة للسلاطين فى مصر والحكام المسلمين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . وكان الملوك السود فى وسط وغرب أفريقيا يجدون فى ذلك التقليد الشرعى نوعا من التبرك والعزة والاعتزاز والفخر مثلما كانوا يفعلون بالنسبة لسائر الملوك ، وأن ذلك يكسبهم البهجة والاجلال فى أعين رعاياهم . وتلقب بعضهم بالألقاب ومنها سيف الخلافة وظهر الإمامة وعضد الدولة وأمير المؤمنين ، وهذا يبين مدى

الارتباط الوثيق بخليفة مصر وحرص ملوك وسلاطين السودان إلى أضفاء التقليد الشرعى على سلطتهم فى بلادهم من قبل خليفة مصر العباسى .

ولقد كان لدور مصر القيادى فى العالم الإسلامى أثره الكبير فى قيام العلاقات ، وذلك لأن مصر حين صارت دار خلفاء بنى العباسى فإن سلاطين المماليك فى مصر فرضوا لأنفسهم مكانة سامية على العالم الإسلامى ، بل أن الدور المصرى والعلاقات قد تطورت على مر الأيام واستمرت تسير فى طريقها من عصر إلى عصر حتى كانت نهاية العصر المملوكى ، وقد احتفظت بطابعها الأخوى بين مصر وتلك الأقطار . ورغم الصلات الأخوية إلا أنه من الثابت أن ملوك وسط وغرب أفريقيا ظلوا فى نظر سلاطين المماليك فى مصر فى مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقيا (المغرب العربى) بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبونه فى المكاتبات السلطانية الصادرة من ديوان الانشاء بلقب الجناب الكريم العالى ،فى حين أن الفريق الثانى كانوا يخاطبونه بلقب المقام العالى .

وعلى هذا فإن مصر ظلت تمارس دورها حتى انتهاء سلطنة المماليك فى مصر عام ٩٢٢ ـ ٩٢٣هـ / ١٥١٦ ـ ١٥١٧ م وباستيلاء العثمانيين على مصر والشام وسائر ممتلكات السلطنة المملوكية ، فإن ذلك الانتصار العثمانى على المماليك قد نقل محور ارتكاز الدولة الإسلامية من غرب آسيا وشمال غرب أفريقيا إلى ركن استراتيجى آخر بأقصى الجنوب الشرق من أوروبا ، إلا أن كون مصر ولاية عثمانية لم يغير من الواقع إلا قليلا إذا كانت إمارة متميزة ، ومن ذلك فان الخليفة المغربى المنصور السعدى عندما أراد غزو بلاد السودان الغربى عام ١٥٩١ م فإن أمير سنغاى كبرى السلطنات الإسلامية فى غرب أفريقيا السلطان نوح بن داود بن أبى بكر التورى . الذى حصل جده على تقليد من الخليفة العباسى عام ٩٠٢هـ . قد أرسل كل منهما إلى علماء مصر ورجال دينها بخطاب يرجوهم الدعاء له . وقد كتب العلامة المصرى السيد الكاشف زين العابدين بن الشريف الحسنى بن الولى الصالح سيدى عمر البكرى كتابا إلى الاسكيا نوح بخط يده يقول فى عبارته له فيه . إننا كنا ندعوالله لكم من أوقات الاجابة فى ليل ونهار وفى ظلم الليالى بالنصر . وإن دلت تلك الرسالة فإنها تدل على حرص سلاطين سنغاى على دوام الصلة والاتصال بعلماء مصر ورجالها بعد سقوط السلطنة المملوكية ، وذلك دليل

قوى على أن مصر مازالت تمارس دورها السياسى فى تلك البلاد ، وكذلك على عمق الروابط بين علماء مصر ورجال السياسة فى سنغاى .

كذلك فقد مارست مصر دورا ثقافيا هو أكثر تأثيرا من دورها السياسى ، وإن كان الدور الثقافى يعتمد على قوة الصلات السياسية ، وذلك لأن السلطنات الإسلامية التى ظهرت فى وسط وغرب القارة الأفريقية فى الحياة الإسلامية من حيث اتصالها بالبيئات الإسلامية المجاورة من الدول الإسلامية المعاصرة وفى مقدمتها مصر ، وذلك تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية ، ذلك لأن مصر أصبحت محور نشاط علمى كبير فى عصر سلاطين المماليك ، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار واختاروها وطنا لإقامتهم ونشاطهم . ولقد كانت المؤثرات الإسلامية الدينية من أبرز الظواهر الثقافية التى ربطت وسط وغرب القارة بحضارة مصر وذلك لأن الدين الإسلامى كان عاملا أساسيا فى التغيرات الثقافية والاجتماعية التى شهدتها بلاد وسط وغرب القارة فى العصور الوسطى .

وذلك لأن مصر أعدت لتكون مركزا للحركات الإسلامية برمتها .ومن هنا كان لزاما عليها أن تقوم بدورها فى بلاد وسط وغرب أفريقيا وفى العالم الإسلامى أجمع ، بل أن وضعها فى العصر المملوكى قد جعل لها نصيبا موفورا فى توجيه العالم الإسلامى والسيطرة على جهود المسلمين وآرائهم ومقاصدهم ومصيرهم ، لأن مصر أضحت زعيمة العالم الإسلامى فقد قامت بواجبها إزاء دول غرب ووسط القارة ، وقد وفقت فى ذلك توفيقا عظيما ، وكان الدور الثقافى الذى لعبته مصر فى حياة هذه البلاد دوراً بالغ الأهمية ، وكانت صلاتها بهذه البلاد تعنى فخرا شخصيا تعتز به هذه الدول فى تاريخها لأن الروابط الثقافية التى قامت بها ، والدور الذى لعبته مصر إنما هو مؤثرات ثقافية وحضارية وصلت إلى وسط وغرب أفريقيا من المراكز الثقافية المصرية وغيرها من البلاد الإسلامية الأخرى .

ولقد أدى الدور المصرى إلى نهضة ثقافية إسلامية كبيرة فى وسط وغرب أفريقيا ، وإلى تطور ثقافى تمثل فى انتشار الإسلام . وقد ساعد ذلك على توسيع نطاق العلاقات الخارجية وفتح الآفاق رحيبة أمامها فى جميع النواحى الثقافية والفكرية ،وأن مجموعة من العلماء والدعاة المصريين الذين حملوا مشعل العلم والهداية والعرفان قد وصلوا إلى تلك الأصقاع بالإضافة

إلى أن أبنـاء تلـك البلاد الـذين تلقـوا تعليمهم فى مـدارس مصر الإسـلاميـة . ولقد عرفت بلاد تلك الاصقاع كل المعارف الإسلامية التى توصل إليهـا العـالم الإسلامى سواء عن طريق الكتب التى كانت ترد على أسواقها بكميـات كبيرة عن طريق الفقهاء والتجار الذين كانوا يذهبون للتجـارة ، وفى نفس الوقت يدرسون ويعلمون العلوم الإسلامية أو عن طريق طلاب تلك المناطق الذين عرف عنهم فى ذلك العصر حركة دائبة باتجاه مصر وبلاد المغرب العربى .

ولقد جاء أبناء تلك الـديـار إلى أزهر مصر الشريف مع غيرهم من أبنـاء البلاد الإسـلاميـة لـلاستفـادة والتبرك من أعرق وأقـدم جـامعـات الإسـلام ، وكذلـك لأن العصر المملوكى فى مصر يعتبر من أزهر عصور الثقـافـة العربيـة الإسلاميـة فى وسـط وغرب أفريقيـا ، كما تمثـل الفترة التى بلـغ فيهـا ازدهـار التبادل الحضارى بين سكان غرب القـارة ووسطهـا وبين العـالم الخـارجى التى كانت على قمتـه مصر . وفى هـذا المضمار فـإن وصول رجـال الـدين والثقـافـة المصريين والعرب إلى تلك الأنحاء قد أدى للمنطقة الممتدة من شرق تشـاد إلى المحيط الأطلسى فوائد حضارية وثقافية رائعة وباهرة لايمكن إنكارهـا ، لأن هؤلاء عملوا على تـدعيم الصلـة بينهم وبين الأزهر الـذى كان مصـدر الإسلام والـدعـوة والنـور إلى مختلف الشعـوب الإسـلاميـة ، ولقـدجـاء أبنـاء واداى وباجرمى البولالا ، والكانم وبرنو ، إمارات الهاوسا ، مالى ، سنغاى وغيرهـا من الإمـارات الإسـلاميـة الأخرى إلى مصر لتلقى العلم والمعرفـة والتفقـه فى الـدين وليشهـدوا حلقـات الـدرس فى الجـامع الأزهر وليستمعوا من شيـوخـه جهـابـذة العلم والمعرفـة والشريعـة والـدين من ذلـك المركز العلمى الإسـلامى الوحيد حيث أصبحوا يختصون برواق خـاص لهم (رواق التكاروه) يقيمون فيـه كغيرهم من مسلمى الأجنـاس والنحـل المختلفـة . ولقـد كان الأزهر لهـذه الأمم بمثابة جامعة قومية وثقافية مشتركـة على توحيـد أمـانيهم وآمـالهم ، وتعمل على توحيـد جهـودهم فى حمـايـة تراثهم الحضـارى والفكرى المشترك ، ولقـد كان طـلاب هـذه الأمم الافريقيـة ومنهـا طـلاب وسـط وغرب القـارة الأفريقية سببا فى توطيد نفوذ القاهرة وقـدرتهـا على أداء دورهـا واتصـال طلابها بشعوب وحكومات هذه البلاد ، إذ استطـاع الأزهر عن طريق هؤلاء المبعوثين أن يخلق مكانة شامخة فى أفريقيا ، وأصبح موضع الثقة والاعتبـار لايطلب أحد فى العالم الإسلامى علوم الإسلام إلا عن طريق الأزهر ، وهكـذا طبقت شهرته الآفاق فى شتى أنحاء العالم الإسلامى .

ولقد كان ابناء تلك الاقطار منذ أن دخلوا الإسلام سنى المذهب حيث غلب عليهم مذهب الإمام مالك فى الفقه ، وكان مذهب الإمام مالك قد قدم إليهم من مصر ، كما قدم للمغرب من مصر أيضا العلماء ، ومن هنا فقد ظلت دراسة المذهب المالكى مزدهرة فى الأزهر إلى جانب دراسة المذاهب الأخرى حيث كان هذا بعدا آخر لكى تمارس مصر وأزهرها دورها الثقافى والحضارى فى تلك الديار ، بالإضافة إلى أن سلاطين تلك البلاد قد حرصوا على الاتصال بالعلماء المصريين وأخذ مشورتهم فى كثير من الأمور الهامة ، ومن ذلك نجد السلطان محمد بن أبى بكر التورى مؤسس أسرة الأساكى فى سنغاى عند عودته من أداء فريضة الحج عام ٩٠١هـ / ١٤٩٦ م يقابل الشيخ عبدالرحمن السيوطى أحد كبار علماء مصر فى ذلك الوقت شد الرحال إلى بلاد سنغاى وإمارات الهوسا ، وألقى دروسا فى جامعة سانكرى فى تمبكتو ، بل أن سلاطين سنغاى وإمارات الهوسا قدحرصوا على أخذ مشورتهم ومن بينهم الشيخ جلال الدين السيوطى فى كثير من الأمور التى كانت تتصل بالدين والحكم وشئون الرعية واستفادوا من ذلك كثيرا فى توطيد حكمهم .

ولقد كان من تأثر الاسكيا بن أبى بكر التورى سلطان سنغاى (١٤٩٣ - ١٥٢٨ م) بما رآه من ثقافة فى مصر ومن حضارة إسلامية راقية مزدهرة ، أن عمل على الاتصال بالعديد من علماء مصر ورجال دينها والاطلاع على مؤسساتها الثقافية ، وعندما عاد إلى بلده فإنه عمل على تطبيق كل ماشاهده بمصر ،، وعلى هذا فإن الاسكيا لم يدخر وسعا ولا وسيلة إلا اتخذها من هذا التراث الحضارى المصرى ، وكذلك لرعاية العلماء حتى يكثر قدومهم إلى بلاده .

ولقد كان أثر مصر واضحا فى المجال الثقافى . وفى ذلك كما يقال إن ذلك السلطان قد انتهز فرصة وجوده فى مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لبلاده وأهلها جانبا من الثقافة العربية الإسلامية ، بالإضافة إلى أن الطلاب الوافدين الذين كانوا يقصدون مصر كانوا يعودون بالكتب الإسلامية عند عودتهم إلى بلادهم .

ومن هنا كان تأثير مصر واضحا فى مضمار الرقى الحضارى والثقافى لسنغاى ،إذ أنه بذلك الأثر قد توطدت العلاقة بين الأزهر الشريف ومدارس القاهرة الدينية المختلفة وبين المراكز الثقافية الإسلامية فى تلك الجهات ،

ذلك لأن الوافدين من تلك البلاد إلى الجامع الأزهر كانوا يتفقهون فى فقه المالكية وأنشأوا فى مصر مدرسة بالفسطاط عرفت بمدرسة ابن رشيق وهى ضمن مدارس القاهرة ، وهى مدرسة للمالكية ، ولها فى بلاد التكرور سمعة واسعة ، وقد عاد تلاميذ هذه المدرسة الذين تعلموا المذهب المالكى إلى بلادهم يتابعون نشاطهم الثقافى فى تلك البلاد ، وعلى هذا كان لهؤلاء العلماء المصريين وغيرهم من البلاد الإسلامية أثر كبير فى الحياة العلمية والاجتماعية فى بلاد السودان الغربى والأوسط ، فكانوا يقومون بالتدريس وعليهم واجب التوجيه الدينى فى المجتمعات الإسلامية التى قامت هناك وبالفعل قام بعضهم بتسجيل التراث الأدبى والفكرى لتلك البلاد بالإضافة إلى أن هؤلاء العلماء قد ساهموا فى تطوير الحياة الاجتماعية فكانوا يقومون بدور الوسطاء فى حل المشاكل الاجتماعية والسياسية .

كما كان لمصر دوركبير فى اثراء النهضة الدينية العلمية التى انطلقت من عقالها فى بلاد وسط وغرب أفريقيا على اثر الزيارة التى قام بها السلطان موسى للقاهرة (سلطان مالى) وغيره من سلاطين سنغاى وبرنو وكانم وغيرها من الإمارات الإسلامية الأخرى ، وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود جاليات مصرية فى بعض المدن الهامة ، كمالى وتمبكتو من المدن الأخرى ، وهذا دليل على أن دولة مالى لم تخل من المصريين العاملين فى مجال الفكر والمعرفة وميادين العلم المختلفة ،كما أنه يجب أن يكون واضحا أن هذه الجاليات المصرية لم تعش هناك فى شبه عزلة عن الحياة اليومية المحلية ، بل الثابت أن تلك الجاليات المصرية كانت مترابطة متلاحمة فيما بينها ومع أهالى تلك البلاد ، وهو ترابط حققته القيم والأهداف الدينية فى ظل الإسلام وحق الأخوة الإسلامية .

وهكذا فإنه يمكن القول أن مصر لم تكن بمعزل عن القارة الأفريقية وما يجرى فيها ، وإنما كانت تؤثر فى البلاد الأفريقية وتتأثر بها وخاصة تلك البلاد التى كانت تجاورها جغرافيا . ولقد كان من أثر ذلك الدور الثقافى والحضارى أن قامت فى برنو وكانم وسنغاى ومالى الكثير من المراكز العلمية لكى تمارس دورها الهام فى الحياة الثقافية العربية فى البلاد ، كذلك ظهر فى مالى وسنغاى العديد من المراكز العلمية مما أثر فى ذلك الارتباط الثقافى والحضارى والعلمى .

ولقد تركت الثقافة المصرية العربية الإسلامية دورها فى تمبكتو بل تركت بصماتها واضحة جلية فى جنى وجاو وولاته وتوات وإمارات الهوسا وغيرها من المراكز المنتشرة فى هذه البلاد . ولقد أعطت مصر كل خبراتها الثقافية والعلمية والفكرية الإسلامية لبلاد وسط وغرب القارة الأفريقية بعد سقوطها تحت الاحتلال التركى الذى جعل منها ولاية عثمانية ، وحاول حرمانها من دورها الرائد فى العالم الإسلامى ، وهكذا استطاعت مصر أن تؤدى واجبها ودورها الثقافى والحضارى والتعليمى فى تلك الجهات وذلك بما أداه علماؤها وأزهرها وموقعها فى طريق الحج ومدارسها الدينية والعلاقات المتميزة والبارزة فى ذلك المجال الأفريقى .

ولقد لعبت مصر دورها السياسى والثقافى فى وسط وغرب أفريقيا فإنها لعبت دورها الاقتصادى أيضا فى تلك الأنحاء ، وذلك لما كانت تمثله من دور فى حركة التجارة العالمية . فقد فتحت أبوابها للتجارة الخارجية والعلاقات الاقتصادية ، وقد استفادت مصر كثيرا من الثراء نتيجة ورود تجارة الشرق والغرب عبر أراضيها . ولقد نشط تردد التجار المصريين وازداد قدومهم إلى بلاد وسط وغرب القارة ، فقد فتحت تلك البلاد أبوابها على مصراعيها لكى يؤدى رجال الاقتصاد والتجار المصريون دورهم فى تلك الأنحاء ، وكانت مصر وتلك الأقطار تتبادلان السلع والتجارة فى مختلف الأصناف ، ولقد كان من نتائج هذه التجارة قيام وتوسع بعض المراكز التجارية عند التقاء السفانا بالصحراء الكبرى مثل تمبكتو وجنى وجاو ومالى وكانووكاتسينا وغيرها من المراكز المختلفة ، بل ترتب على هذه التجارة بين مصر وبلاد غرب القارة أيضا قيام سكان الإقليم الأوسط والغربى فى أفريقيا بدور هام فى تبادل السلع والحصول على ما يحتاجونه من أسواق مصر ولقد أضحت مصر الوسيط الأوحد فى استيراد سلع الشرق والغرب .

ولقدكانت طرق القوافل التجارية فى القارة الافريقية والتى تتجه من مصر إلى بلاد وسط وغرب القارة وبالعكس عاملا على أن تكون همزة الوصل أو بالأحرى المسلك الرئيسى للتجارة بين المشرق والغرب ، ومن ثم عمل سلاطين مصر على تشجيع الحركة التجارية مع تلك البلاد ، ومن ذلك سماحهم للتجارة القادمة مع الحجاج بوصولها إلى مصر ليس فقط دون جمارك بل دون تفتيش ، ومن هنا كان دور مصر بارزا فى الحركة

الاقتصادية ، إذ أن القوافل المصرية التى كانت تتحرك إلى تلك البلاد كانت تصل ومعها المنتجات المصرية وغيرها من سلع أخرى ،وفى المقابل ، فإنه فى القاهرة كان المصريون يديرون الأسواق ويبيعون بضائع بلادهم وبلاد وسط وغرب القاهرة وتجارتها إلى التجار الأوروبيين والآسيويين وغيرهم الذين كانوا يفدون على العاصمة المصرية . ولقد كانت قوافل التجارة التى تتم عن طريق الجمال تصل من مصر إلى جنى وجاو وتمبكتو ووالاته وغيرها ، ولقد كان لدور مصر أثره الرائع فى التجارة العالمية حيث ازدهرت التجارة وشمل هذا الازدهار العظيم التجارة المملوكية . ولقد أدى انتقال التجار المصريين إلى تلك المناطق وظهورهم بكثرة فى المدن المختلفة واقامتهم فى مختلف الأقاليم إلى قيام كبار رجال دول هذه المناطق بالاتصال بالتجار المصريين وطلب صداقتهم بالإضافة إلى قيام أهالى هذه الأقطار المجاورة فى السودان الأوسط والغربى بالنزول عند هؤلاء التجار بالقاهرة وذلك عند مرورهم بها فى سفرهم إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز .

وكان من العوامل التى ساعدت على وصول المصريين إلى تلك الأنحاء وذهابهم فى قوافل كبيرة أنهم كانوا قد عرفوا طرق التعامل مع أهالى تلك البلاد بالإضافة إلى معرفتهم التامة بمعالم طرق القوافل المؤدية إلى تلك الأقاليم ، وقد أدى ذلك إلى نتائج عظيمة المدى فى المجال التجارى ، وأصبحت الحركة التجارية أكثر سهولة بسبب استخدام القوافل المصرية الدائم والمستمر لهذه البلاد

ولقد نتج عن زيادة التعامل بين مصر وهذه الأقطار أن أصبحت الدراهم التكرورية معروفة بمصر بل ومن أهم العملات المتداولة فيها نظرا لثبات قيمتها فى الأسواق ، وتبعا لذلك الازدهار فقد وجدت جاليات مصرية كثيرة بهذه البلاد ، كما أصبح تجار الكارميه لهم فى مصر وسائر البلاد الإسلامية مراكز تجارية ، وأن تلك المراكز قد اتخذت مراكز الانطلاق إلى بلادهم ، كما أن مصر كانت مركز الحركة التجارية والاقتصادية العالمية ، وقد كانت الطائفة من التجار الكارميه أبلغ دليل على دورمصر وعلى العلاقات الودية بين مصر وتلك الأقطار ، ذلك لأن هؤلاء التجار قد هاجروا إلى مصر وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور فى تجارتها الخارجية ، واشتغلت هذه الطائفة بتصريف منتجات بلاد السودان .

وليس أدل على دور مصر وعمقها التجارى فى تلك الاقاليم من أن الحفريات التى تمت فى عاصمة سنغاى ، والتى قام بها بعض الباحثين والأركيولوجيون تمكنوا من العثور على الكثير من الدنانير المصرية من العصر المملوكى ، وكذلك وجدت بعض الدنانير والدراهم الفاطمية والمغربية أيضا ، وذلك يقيم الدليل على أن تلك الدنانير قد وصلت إلى تلك الديار مع التجار المصريين أو الكارميه أوالمغاربة أو السودانيين .

هذا بالإضافة إلى أن القوافل المصرية كانت تجوب الصحراء الكبرى حاملة معها المنتجات المصرية لقاء ما تأتى به من منتجات محلية ، وبعد أن وصل التجار المصريون حاملين بضاعتهم إلى سلطنات النيجر الإسلامية وإلى مدنها المختلفة ، بل أن القافلة المصرية التى كانت تسير إلى تلك الجهات كانت تصل فى بعض الاحيان إلى اثنى عشر ألف جمل أى ما يوازى حمولة ثلاثين سفينة بحرية . وقد حمل التجار المصريون مصنوعات حازت إعجاب سلاطين تلك الجهات ، فقد كانت معظم هذه المصنوعات من الأنواع الراقية الغالبة الثمن والتى اقتصر استعمالها على السلاطين وعلية القوم والأمراء . ويعود رواج التجارة بين مصر وتلك المناطق بشكل عام إلى أن الأمن كان سائدا فى جميع طرقات السلطنة ، ذلك لأن الحركة التجارية ليست دليلا على وجود رخاء وحضارة مزدهرة فحسب بقدر ما هى دليل على قيام أمن واستقرار وكيان دولة ، ومن ثم كان التجار فى وسط وغرب أفريقيا يشكلون طبقة كبيرة حيث شهدت المدن الكبرى فى تلك الأقطار أحياء خاصة للتجار المصريين يقيمون فيها ، وكانت هذه الأحياء هى مراكز الأسواق الرئيسية .

ويكاد يجمع الباحثون على أن العصر الذهبى للتجارة والعلاقات التجارية الاقتصادية بين مصر وهذه البلاد قد شارف النهاية فى القرن السادس عشر الميلادى ، وذلك لتوسع التجارة البحرية التى أنهت دور طريق البر ووجهت التجارة نحو الساحل الغربى لأفريقيا ، وذلك بسبب البرتغاليين على سواحل تلك المناطق،كذلك فإنه فى عام ١٥١٧ م استولى السلطان العثمانى سليم الأول على مصر ، وقد أدى ذلك إلى اهمال الطرق التجارية إضافة إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وسيطرة البرتغال على مياه المحيط الهندى ، وقد أثر ذلك على حركة التجارة المصرية ودور مصر فى تلك الأنحاء ، كذلك

مارست مصر دورا سياسيا فى شرق أفريقيا وبلاد الحبشة ، وذلك عن طريق سيطرة مصر على البحر الأحمر وكذلك الطريق البرى الذى ينحدر من مصر بمحاذاة ساحل البحر الأحمر متجها إلى ساحل أريتريا ومنه جنوبا إلى مقديشو ، وقد لعب الطريق البحرى دورا فى ممارسة مصر لنفوذها السياسى حتى سفالة فى موزمبيق .

وقد بسطت مصر نفوذها على الساحل الممتد من ميناء عيذاب المصرى حتى سفالة جنوبا وذلك طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ، أما المنطقة الممتدة من عيذاب حتى بوغاز باب المندب فإنه يكاد يكون الوجود المصرى بها بصفة دائمة ومستمرة نظرا لسيطرة الأسطول المصرى على البحر الأحمر بجميع شواطئه ، كما مارست مصر دورها السياسى والدينى فى الحبشة كبرى بلاد شرق أفريقيا منذ العصر الإسلامى حتى نهاية العصور الوسطى ، ذلك لأن مصر كانت ترسل المطران المصرى نظرا لارتباط الكنيسة الحبشية بالكنيسة وحاجة أباطرة الحبشة إلى ذلك المطران لقيامه بالشعائر الدينية والإشراف على الكنيسة بالإضافة إلى أن المطران المصرى كانت له مهام سياسية واجتماعية وثقافية ، كما أن الاثيوبيين يعتزون بارتباطهم الدينى الوثيق بالكنيسة المصرية ، وكذلك حرص نجاشى الحبشة على ارسال الهدايا إلى سلاطين المماليك ارضاء لهم فى مقابل الموافقة على إرسال المطران المصرى للحبشة . وقد وجهت العديد من الرسائل إلى السلاطين المصريين بذلك الشأن حيث لم يخف على الأباطرة الدور الذى يضطلع به المطران المصرى فى المحافظة على الاستقرار فى بلادهم ، لذلك بذلوا كل ما فى وسعهم للحيلولة دون انقطاع ذلك الرباط القوى بين الحبشة ومصر ، وكما كان دور مصر السياسى قويا وواضحا فى الحبشة فقد كان أكثر وضوحا مع إمارات الطراز الإسلامى التى تحيط بالحبشة . فى الشرق والشمال والجنوب ،حيث توطدت علاقات هذه الإمارات بمصر والتى ارتبطت بعلاقات سياسية واقتصادية وثقافية ودينية قوية ، ذلك لأن هذه الإمارات الشمالية قد قامت بمساندة ومؤازرة مصر بالجهاد والنضال من أجل نشر الإسلام ومدافعة الجهود الصليبية ، حيث إن القاهرة لم تكن لتتأخر عن تلبية أى نداء يوجه إليها بطلب المساعدة والمساندة من إخوانها مسلمى الإمارات الإسلامية المحيطة بالحبشة ، والتى كانت تحاول فى جهادها صعود

الهضبة ونشر الإسلام بها والقضاء على القوة المسيحية بها ، كما أن مسلمى هذه الإمارات كانوا على اتصال دائم مع مصر لطلب السلاح والمساعدة ، كذلك فإن الدور المصرى برز بصورة فعالية على وضع الأمور فى نصابها وكف الهجوم الحبشى على تلك الإمارات ، وذلك لتدخل سلاطين مصر أكثر من مرة لدى ملوك الحبشة بعقد هدنة مع هذه الإمارات ، لكن فى غمرة الاحداث الدامية بين مسلمى هذه الإمارات ومسيحيي الحبشة وانكسار حركة الجهاد الإسلامى فى تلك الإمارات يظهر الدور المصرى فجأة لكى يطلب من سلطان مصر الناصر بن قلاوون أن يتدخل لدى الأحباش ليخففوا الوطأة عليهم فكان أن لبت مصر طلبه وتدخل السلطان لدى الأحباش حيث أوقف الزحف الحبشى على هذه الإمارات .

وكما كان لمصر دورها الاقتصادى فى غرب أفريقيا فإنها لعبت نفس الدور وبصورة أكثر فاعلية مع بلاد شرق أفريقيا والحبشة حيث سهولة الحركة والنقلة والاتصال عبر البحر الأحمر والمسالك المتفرعة من موانىء هذا البحر إلى الأراضى المصرية ، وكذلك الطريق الجنوبى المتجه من مصر وصولا فى أريتريا والصومال حيث إن هذه العلاقات الاقتصادية تعود إلى عصور ممعنة فى القدم ، حيث كانت المنطقة الواسعة الممتدة من حدود مصر جنوبا حتى موزمبيق وبلاد الحبشة مسرحا للنشاط التجارى المصرى ، حيث كانت تلك الأماكن مقصدا لكثير من التجار المصريين ، ولقد كانت سيادة الدولة المملوكية قائمة على أساس إحكام السيطرة على كل الطرق المؤدية لهذه البلاد حيث تحكم المماليك فى موانىء مصوع وسواكن وبربره وزيلع ، وكل هذه الموانىء كانت مراكز هامة للتجارة المصرية كما كانت أسواقا تجارية لها .

وقد شهد القرن الخامس عشر الميلادى انتعاش موانىء شرق أفريقيا حتى سفاله فى موزمبيق حيث كان لتجار مصر وكلاء فى كل الموانىء فى شرق أفريقيا ، حيث لعب التجار المصريون دورا فى زيادة الصلة بين مصر وشرق أفريقيا بعد أن وصلت تجارتهم على ذلك الساحل حتى موزمبيق . ولقد مارست مصر تجارتها مع الحبشة فى الداخل وكل المناطق الواقعة على الساحل الشرقى لأفريقيا ومع الهند والصين واليمن حتى جاء البرتغاليون فى وقت كانت فيه مصر تقوم بتجارتها على ساحل أفريقيا الشرقى وموانىء المحيط الهندى ، إلا أنها كانت تجهل جهلا تاما الهدف الذى من أجله أرسلت بعثات

الكشف البرتغالية ، لكن بدأ البرتغاليون يهددون الدور المصرى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وشرق أفريقيا حتى منطقة موزمبيق ، الأمر الذى شكل أخطارا يهددون بها كيان مصر لأن البرتغاليين كان همهم الأول منع التجارة بين الهند والبحر الأحمر والخليج العربى والقضاء على دور مصر . ولقد نجح البرتغاليون فى ذلك واستطاعت البرتغال أن تغلق موانىء البحر الأحمر والخليج وبخاصة جدة وسواكن وزيلع ومصوع وبربره وتمنع عن السويس وصول محاصيل الشرق ، إلا أن أجزاء منها كانت تتسرب إلى مصر ولكن بكميات ضئيلة .

كما جاء احتلال العثمانيين لمصر ضربة للاقتصاد المصرى حيث إن العثمانيين لم يستطيعوا مواصلة نشاط مصر فى تلك المناطق . ولقد مارست مصر دورا اقتصاديا مع بلاد شرق القارة والحبشة انطلاقا من تسهيل حركة التجارة العالمية وبناء السوق الإسلامية المشتركة وفقا للتكامل الاقتصادى بين البلاد الإسلامية وبقية العالم المعاصر فى ذلك الوقت . وهكذا نرى كيف أن مصر لعبت هذا الدور الاقتصادى مع تلك البلاد بما يحقق مصالح كل الأطراف الاقتصادية ، كذلك برز دور مصر الثقافى فى تلك المناطق حيث كانت مصر تحتل قلب العالم الإسلامى الذى تؤمه كل شعوب العالم الإسلامى نظرا لقيادتها الفكرية والعلمية والثقافية للعالم المعاصر لها . إضافة إلى الدور الذى لعبه الأزهر ومازال يلعبه فى اثراء الحركة العلمية العربية الإسلامية على مستوى العالم الإسلامى وغيره من المدارس المنتشرة فى القاهرة .

فلو نظرنا إلى الدور الذى لعبته مصر فى الحبشة وشرق القارة لوجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية التى انتشرت فى تلك الأقطار كانت تتأثر بموقع المدن الإسلامية المطلة على هذه السواحل، وكذلك بطبيعة الحياة الإسلامية وأيضا بحركة الجهاد التى اضطلعت بها تلك الإمارات فى مواجهة الجهاد ضد الهضبة والحبشة ، كذلك أدى موقع هذه الإمارات والمدن الساحلية إلى زيادة اتصالها بالعالم الخارجى ، ومن هنا كانت لها علاقات وطيدة بل وثيقة بالعالم الإسلامى وبصفة خاصة مع مصر حيث المسافة أقصر وحركة النقلة والاتصال أيسر . ولقد وجد أبناء شرق أفريقيا بالأزهر الشريف أحسن اهتمام وكذلك إعطاء هؤلاء الطلاب العناية الكافية . ولا شك أن أبناء شرق أفريقيا الذين كانوا يدرسون فى الأزهر الشريف كانوا يقيمون فى الأروقة

والتى منهـا رواق الجبرت ورواق الزيـالعة حيث جاء ابنـاء زيلـع والجبرت والمدن المجـاورة لهـا كهرر وسواكن ومصوع وبربره ومقـديشو وحتى سفـالـه وغيرها من المدن الـداخليـة لتلقى العلم والمعرفـة والتفقـه فى أمور الـدين فى مصر وليشهـدوا حلقـات الـدرس فى الجـامع الأزهر حيث أصبحـوا يختصـون بأروقة خاصة بهم يقيمون فيها إلى جـانب غيرهم من أبنـاء البلاد الإسلاميـة الأخرى .

ولقـد كان أبنـاء الجزء الشمالى من مقـديشيـو جنـوبـا حتى عيـذاب شمالا سنيى المذهب حيث انتشر بينهم مذهب الإمام مالك والشـافعى ، بـالإضـافـة إلى أن المذهب المالكى هو المذهب الوحيـد الغـالب مع وجود بعض الشـافعيـة ، ومن هنا ظلت دراسة هذين المـذهبين سـائـدة ومزدهرة حيث كان هـذا بعـدا آخر لقدوم أبناء زيلع والجبرت وغيرهم من أبناء الإمارات الأخرى بالإضافة إلى أن بعض أبناء الهضبـة الحبشـة المسلمين وفـدوا الى الازهر . وقـد برز من هؤلاء العلمـاء الـزيـالعة والجبرت بعض العلمـاء الـوافـدين الى مصر فى الفقـه والتفسير والحـديث وغيرهـا من العلوم الإسلاميـة الأخرى ، كـذلـك نبـغ من زيلع مجموعـة من العلماء والمفكرين ورجـال الـدين الـذين قـاموا فى بـلادهم ينشرون التعاليم الإسلامية ويتولون كثيرا من المناصب القضائية والإداريـة والذين منهم الفقيه (عبد الله الزيلعى) الذى رأس سفـارة بلاده إلى سلطـان مصر النـاصر محمد بن قلاوون حوالى عام ١٣٨٨م وذلك من أجل قيام السلطنة المصرية بالكتابة الى نجاشى الحبشة للتخفيف عن مسلمى الإمارات الإسلامية ولمحاولة إيقاف الحرب وعقـد هـدنـة بين الطرفين . ولقـد أدت مصر دورهـا فى إمارة زيلع وغيرها من الإمارات الإسلامية من الطراز الإسلامى حيث سـاهم المصريون فيها بنشر التعاليم الإسلامية واللغة العربية حتى غلبت على أهلها وصـار الإسـلام دين الأغلبيـة ، ومن ثم سرعـان مـا أرسلت هـذه الإمـارات أبنـاءهـا إلى الجـامع الأزهر حيث يعـودون ليتـولـوا العـديـد من الـوظـائف والمناصب القياديـة فى بلادهم ، بـالإضـافـة إلى أن تـأثير مصر كان واضحـا فى مضمار الرقى الحضـارى والثقـافى لتلـك المنـاطق وكان من أثر التفوق الثقـافى المصرى أن توطـدت العلاقـة بين الأزهر الشريف ومـدارس القـاهرة بـل وبين مصر الإسلامية وبين أبناء وطلاب هذه البلاد الذين شـدوا رحـالهم إلى تلـك القلاع العلمية والفكرية فى مصر .

كذلك تركت مصر أثرها واضحا وقويا فى قيادة نصارى الحبشة من حيث مداومة إرسال المطران المصرى . ولقد كان النشاط الإسلامى العلمى المصرى من الأسباب القوية لدخول الأحباش فى الدين الإسلامى ، كما يتضح كيف شارك أبناء زيلع وغيرها من المدن الإسلامية إخوانهم المصريين والعرب والمسلمين فى إثراء الحركة العلمية الإسلامية ويبدو أن الحياة الثقافية والعلمية والفكرية فى الإمارات الإسلامية قد كانت أكثر ازدهارا ، وأن ملامح الثقافة العربية الإسلامية كانت أكثر وضوحا لاسيما بعد استمرار واستقرار السلطنات الإسلامية كما حدث فى زنجبار وكلوه وممباسا وسفاله وغيرها من المناطق الساحلية حيث أصبحت هذه المدن ذات طابع عربى إسلامى وثقافتها عربية إسلامية وامتد ذلك التأثير إلى المناطق الداخلية فى منطقة البحيرات وحوض الكونغو ، وقد ترك العرب والمسلمون تأثيراتهم الإسلامية فى تلك المناطق حتى سفاله وهى أقصى بلاد الزنج . ولقد كان قدوم البرتغاليين وسيطرتهم على مدن الساحل من الأسباب القوية التى دفعت حركة المد الإسلامى إلى الداخل ، وكذلك رسخت العقيدة الإسلامية وعمقت مفاهيمها فى قلوب الناس .

وهكذا نرى كيف مارست مصر دورها بكل ماهو واجب عليها تجاه أخوة الإسلام فى مناطق شرق القارة الأفريقية بالإضافة إلى قيامها بدورها ، كذلك من ناحية ربط الصلة بين الكنيسة المصرية وكنيسة الحبشة ، وذلك لأن قدر مصر فى العطاء كان أكثر مما هو فى الأخذ . كذلك مارست مصر دورها فى بلاد المغرب العربى كما مارسته فى غرب وشرق القارة ، لكن هنا فى ذلك الجزء من العالم العربى فإن الدور كان أكثر وضوحا وأشد تأثيرا حيث إن سرعة التأثير كانت أسرع وأعمق وذلك مما ساعد على صبغ الحياة العربية الإسلامية بتلك الصورة التى كانت ولا تزال توجد على أرض المغرب العربى .

ولقد كانت تلك البلاد لفترة من الزمن بعد الفتح الإسلامى لمصر مباشرة جزءا من ولاية مصر لكى تباشر وتؤدى مصر رسالتها الروحية والثقافية فى ذلك الجزء من العالم العربى الإسلامى ، إضافة إلى أن جنود مصر كانت تقوم بالغزو فى تلك البلاد . وكانت مصر تقدم إضافة إلى ذلك بالأموال وكل مايحتاج إليه جند الإسلام ، كما كان ولاة مصرهم الذين يقودون هذه

الغزوات ، كما أنه يمكن القول أن القوات المصرية العربية والأقوات والمؤن والأموال المصرية هى التى قضت على مقاومة البيزنطيين ومن عاونهم من العناصر الأخرى التى كانت تظهر بين الحين والحين . بل أكثر من ذلك ففى أداء مصر لدورها السياسى فى بلاد المغرب العربى أن أغلب ولاة المغرب كانوا ولاة سابقين لمصر أو رجال إدارة بها ، فكانت مصر هى التى تمدهم بالخبرة اللازمة لحكم هذه الأجزاء من أفريقيا ، فكان نجاح الولاة فى حكم مصر سببا فى اكتسابهم المهارات الإدارية والقيادية والخبرات السياسية الواسعة بمثابة اختبار لقوتهم وكفاءتهم وقدرتهم على القيام بالواجب الإسلامى فى قيادة مسيرة الشعب المغربى ، كما أن الخليفة المتوكل العباسى أعطى ابنه محمد المنتصر حكم شاطىء أفريقيا الشمالى كله من العريش شرقا إلى أقصى المغرب غربا ، كما أن هناك العديد من الولاة المسلمين الذين تولوا حكم مصر قبل أن يصدر قرار الخلافة الأموية بتوليتهم ولاية المغرب وذلك لما اكتسبوه من مهارات فى إدارة دفة الأمور فى مصر ، مما كان دافعا لهم للتحرك لولاية المغرب ومن هنا كان فضل مصر عظيما على بلاد المغرب العربى .

ولقد كان بعد هذه البلاد عن مركز الخلافة الأموية أو العباسية سببا فى هروب أعداء الدولة إليها محاولين اجتذاب أهلها إليهم فظهرت بها الطرق الإسلامية والفئات المختلفة من العلويين والخوارج والشيعة والمعتزلة ، وعندما كان يشتد عود هذه الفئات فإن ولاة بلاد المغرب عند حدوث ثورة فإنهم كانوا يستنجدون دائما بولاة مصر فى سحق هذه الثورات ، وكان ولاة مصر لا يترددون لحظة فى إجابة دعوة إخوانهم ولاة المغرب ، فيمدونهم بالمال والرجال والعتاد وقد نجحوا فى ذلك ، بل إن العبء الأكبر والأساسى فى كل ما يحتاجه المغرب العربى كان يقع على كاهل مصرَ من حيث استتباب الأمن فى ذلك الركن من القارة الأفريقية ، كما أن موقع مصر فى طريق الحجاج المغاربة قد ساعدهم على تدعيم الصلة والروابط السياسية ، ولما جاءت الدولة الفاطمية إلى مصر فإنها حرصت على أن يمتد نفوذها إلى بقية شمال أفريقيا ، وقامت فى المغرب دول مختلفة ، ولكن الخلاف كان كثيرا مايحدث بين الأمراء فيتنازعون حول العرش فكان المهزوم منهم يفر إلى مصر حيث يجد من سلاطينها كل عون ومساندة ، فقد قدم إلى مصر أبو يحيى زكريا الحفصى عام ٧١١هـ مستنجدا بالسلطان الظاهر محمد بن قلاوون ، فأنجده

السلطان بالقوات والعون اللازم ، وعاد أبو يحيي إلى العرش فيخطب للسلطان الظاهر بن قلاوون على المنبر هناك ، فكونت هذه الأجزاء من أفريقيا (تونس) جزءا من السلطنة المصرية .

كذلك وجدت مراسلات بين السلطان الظاهر برقوق والسلطان الحفصى فى عام ٧٩١هـ / ١٣٨٩م وكذلك وجدت أيضا مراسلات بين سلاطين بنى مرين فى فاس وأمراء تلمسان . وقد حفظ لنا ديوان الانشاء المصرى الكثير من هذه الرسائل المتبادلة بين سلاطين مصر وسلاطين تلك الجهات كما حفظ رسم المكاتبة التى كانت تكتب الى سلاطين المغرب .

ولقد ظلت علاقات المودة متصلة بين سلاطين دولة المماليك وملوك المغرب ، وكان يتم تبادل الهدايا والوفود والسفراء بينهما . وكان هؤلاء السفراء يستقبلون بمظاهر الإكرام والحفاوة ، حيث يذكر أن السلطان برقوق استقبل سفير سلطان تونس وأمر له بمائة درهم فضة يوميا طوال مدة إقامته بالقاهرة ، كما تذكر المصادر أن صلاح الدين الأيوبى ، أرسل أسطولا إلى خليفة المغرب كى يساعده فى صد الهجوم الواقع على السواحل المغربية من قبل البرتغاليين ، كما أن صلاح الدين الأيوبى أرسل سفيرا الى خليفة المغرب يعقوب المنصور الموحدى لإعانته بأسطول لمحاصرة السواحل الشامية ، ويذكر السلاوى أن السلطان المنصور الموحدى أرسل مائة وثمانين سفينة لمنع الصليبيين من سواحل الشام .

كذلك فإنه فى عام ١٨٢٩م فإن محمد على باشا والى مصر فكر فى غزو الجزائر لضمها إلى مصر ، ولكن تلك الخطة فشلت بعد اعتراض الدول الأوروبية الكبرى على ذلك . وهكذا نرى كيف مارست مصر دورها القيادى السياسى فى عالم المغرب العربى خلال الفترات التاريخية منذ ظهور الدعوة الإسلامية ومحاولة فتح بلاد المغرب حتى العصر الحديث ، وهذا يعطى الدليل القوى على عطاء مصر وسخائها فى العطاء وكيف تحملت كل الأعباء من أجل صبغ المغرب الإسلامى بالصبغة العربية الإسلامية . كذلك مارست مصر دورها الاقتصادى فى إثراء الحركة الاقتصادية فى المغرب حيث كانت مركز الحركة التجارية العالمية لاسيما فى العصر المملوكى ، حيث وفد التجار المغاربة إلى مصر واتخذوها مقرا لهم ، وكانوا يشكلون فئة التجار الغالبة بعد التجار المصريين والتجار الكارميه ، وكان التجار المغاربة فى سعيهم للتكامل مع

إخوانهم المصريين قد نشطوا للتعامل بشكل جديد لاسيما أن المغاربة مشهود لهم بالعمل فى التجارة . ومن هنا فقد اعتمد التطور الاقتصادى بين البلدين على العلاقات التى كانت قائمة بين التجار المصريين وسوق التجارة المصرية وبين تجار المغرب الأقصى وكل تجار المغرب بأقسامه المختلفة .

ذلك لأن مدن وموانئ المغرب العربى والطريق الصحراوى الداخل قد لعبت دورا هاما لا يمكن إغفاله فى الترابط الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب العربى . وقد أشار المقريزى فى مناسبات كثيرة إلى العلاقات التجارية والاقتصادية التى كانت تربط التجار المغاربة وتجار الإسكندرية ، كما كان للتجار الكارميه دورهم فى تنشيط الدور المصرى الاقتصادى مع بلاد المغرب حيث إن اتخاذهم لمصر كمركز لممارسة نشاطهم قد جعلهم يمدون هذا النشاط إلى دوائر أخرى أكثر اتساعا ، فامتد النشاط التجارى الى الشمال والغرب نحو بلاد المغرب ، ولقد كان وجود ودور التجار الكارميه أبلغ دليل على العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب العربى .

ولقد كان التجار المصريون يذهبون بمنتجات بلادهم إلى هذه البلاد لجلب الذهب وكل ما يفيض من إنتاج المغرب وتكون السوق المصرية فى أمس الحاجة إليه . ومن هنا اتسع نطاق التجارة المصرية بالنسبة لهذه البلاد ، فأصبح كبار التجار المصريون يبعثون بعملائهم ووكلائهم إلى مدن المغرب المختلفة ، وذلك حتى يعودوا بالأرباح الطائلة . وهكذا كانت التجارة والعلاقات الاقتصادية بين مصر وبلاد المغرب العربى وبقية بلاد العالم الإسلامى تلعب دورا هاما وبارزا فى زيادة الروابط بل فى توثيقها بين مختلف الأقطار .

ولقد امتاز العصر المملوكى بنشاط اقتصادى كبير بين البلدين حيث إن هؤلاء السلاطين المماليك لم يدخروا وسعا فى تقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين تلك الأقطار ، هذا بالإضافة إلى أن العلاقات التجارية قد تمسكت بقيم أخلاقية سامية كان من شأنها أن تقوى الروابط الإنسانية بين الطرفين ، ذلك لأن التجار كانوا رسلا للحضارة والمدنية لأن العمل التجارى يتطلب الاحتكاك بأهل البلاد الأصليين ، ومن ثم يتم نقل ألوان الثقافة العربية الإسلامية إليهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرجع أولئك

التجار إلى بلادهم بانطباعات عميقة عن الحياة الإسلامية فى المغرب ومزايا الحضارة المغربية .

ولقد كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربى لسد حاجاته ليصدر الفائض عن استهلاكه ويستورد مايحتاج إليه من متطلبات ، ومن خلال دراسة هذه الحركة التجارية يتبين أنه فى أى فترة من فترات التاريخ الإسلامى كان الاتجاه نحو التكامل الداخلى أولا فى المغرب بأقسامه المختلفة ، ثم التوجه إلى مصر باعتبارها أكبر قوة اقتصادية إسلامية فى ذلك الوقت لتحقيق التكامل الاقتصادى فى البيئات الإسلامية ، فقد أولت مصر جانبا كبيرا من عنايتها بالحركة التجارية مع المغرب ، وكان لذلك أعظم الأثر فى التقدم الاقتصادى والازدهار الحضارى اللذين أحرزتها مصر فى العصر الفاطمى والأيوبى والمملوكى ، ذلك لأن السلع القادمة من بلاد المغرب والأندلس وصقلية وأوروبا عبر البحر المتوسط كانت تصل الإسكندرية ومنها تنقل إلى الفسطاط أو القاهرة فيما بعد ثم تصدر إلى بلاد المشرق الإسلامى بعد أن تأخذ السوق المصرية المحلية منها كفايتها .

ولقد صدرت مصر إلى بلاد المغرب وأقطار العالم الإسلامى الثياب بأنواعها الكتانية والصوفية والحريرية وأنواع كبيرة من المشغولات الذهبية والتجارية والعطور وكل ما يفيض عن الإنتاج المصرى .

ولقد كان لتجار المغرب عبر الصحراء الكبرى فى طريقهم إلى مصر نشاط واسع للغاية ، فقد كانت حاصلات ومنتجات الشمال الأفريقى تسوق وتباع فى مصر ، كما أن حاصلات ومنتجات مصر يضاف إليها منتجات الشرق والشام تباع وتسوق فى بلاد المغرب وأسواقها ومدنها وموانيها المختلفة . ومن ذلك قامت حركة تجارية واسعة كان التجار المغاربة يديرونها بنشاط واضح ، فكانوا يرحلون إلى مصر بسلع بلادهم وسلع جنوب أوروبا وغربها وبسلع بلاد السودان الغربى وغرب أفريقيا ، ويعودون من مصر بالسلع المصرية والشامية والهندية والصينية واليمنية وباقى بلاد الشرق ، ويصدرون منها مالا يحتاجون إليه الى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط ، وعلى هذا فإن التجار المغاربة كانوا يدخلون مصر وبلاد الشرق دون أدنى قيد أو عقبة وإن التجار المصريين والمشارقة كانوا فى المقابل يدخلون بلاد المغرب ، إلا فى بعض فترات التوتر السياسى . وقد ساعد ذلك على دعم

الروابط الاقتصادية وإيجاد نوع من التكامل والتعاون الاقتصادى الإسلامى ، بل أن التعاون والترابط الاقتصادى الذى كان يتم بين مصر وبلاد المغرب العربى بأقسامه المختلفة إنما كان يشكل حلقة فى سلسلة حلقات التكامل الاقتصادى الإسلامى .

وهكذا نرى أن الدور الاقتصادى الذى تلعبه مصر فى بلاد المغرب العربى لم يتأت من ناحية التجارة والاقتصاد ، بل دعم الترابط الإنسانى والأخوى بين أبناء الشعب العربى المسلم الواحد ، بالإضافة إلى ما كان يترتب عليه وجود تجار كلا البلدين من دور ثقافى ، فنجد أن معظم التجار كانوا رجال فكر ودين وعلم وفقه ، بل كانوا دعاة للإسلام وخير دعاة للدين الإسلامى ، بل أن العديد من تجار المغاربة عندما كانوا يشدون الرحال إلى مصر فإن هدفهم التجارى سرعان ماكان ينتهى حيث نجد الكثير منهم يقوم بإعطاء جانب الدرس والعلم والدراسة النصيب الأكبر ، وكثير من التجار المغاربة كانوا عطارين أو أصحاب مهنة تجارية أخرى ، لكن الواحد منهم فى نفس الوقت كان عالما من علماء الدين بعد أن درس فى الأزهر الشريف وعقد حلقات الدرس .

وعلى الجانب الآخر نجد العديد من التجار المصريين الذين كانوا يرحلون الى بلاد المغرب ويجدونه فى مسجد الزيتونة والقرويين وتلمسان وغيرها من بلاد المغرب العربى ما يدفعهم لكى يدلوا فى الفقه والحديث والتفسير وغيرها من العلوم الإسلامية حيث يقومون بالتدريس والوعظ باعتبار أن غالبية التجار المصريين لم يكونوا إلا رجال علم وفقه وحديث . بل غلب عليهم فى الأوقات المتأخرة أن كانوا رجال طرق صوفيه عندما غلب طابع التصوف على العالم الإسلامى وأصبح سمة من سمات المجتمع الإسلامى فى العصر العثمانى وأثناء سيطرة العثمانيين على بلاد المغرب العربى ومصر .

وكما تركت مصر بصماتها السياسية والاقتصادية واضحة جلية وقوية ومؤثرة فى بلاد المغرب العربى بأقسامه المختلفة ، فإن التأثير الثقافى كان أعمق وأظهر جانبا من الجانب السياسى والاقتصادى ، وإن كان التأثير الثقافى لايمكن له أن يؤدى ثماره المرجوة من حيث التأثير الفعال إلا إذا كان هناك استقرار سياسى واقتصادى قوى هناك صلات وطيدة بين كل الأطراف .

ونحن نعلم أنه منذ الفتح الإسلامى الأول لبلاد المغرب فإن مدرسة الفسطاط (جامع عمرو بن العاص) قد لعبت دورا هاما فى الحركة الثقافية الإسلامية وتدعيم أسس الروابط الإسلامية فى بلاد المغرب العربى ، ذلك لأن تلك المدرسة وقبل انشاء الجامع الأزهر بخمسة قرون قد بدأ أبناء المغرب يشدون إليها الرحال للدراسة حتى بلغت المدرسة حدا كبيرا من الازدهار فى مختلف العلوم وفروعها الإسلامية حتى غدت مركزا من المراكز العلمية والثقافية فى العالم الإسلامى . ولم تكن مدرسة الفسطاط ، المدرسة الإسلامية الوحيدة فى مصر ، بل كانت هناك مراكز ثقافية فى مختلف مدن مصر خاصة فى الإسكندرية وفى مدن الصعيد كأسيوط وقوص وأسوان ، وهكذا أصبح جامع عمرو بن العاص بالفسطاط غاصا بمختلف العلماء وأئمة القراء وأهل الآدب والحكمة وكثير من علماء المغرب لطلب الحديث وعلوم القراءات . ولقد خرج العلماء المصريون فى جيش الفتح الإسلامى الذاهب للمغرب حيث دخلوا تلك الديار واستقروا فيها ، ومن ثم تم وضع أساس مدرسة القيروان التى تعتبر أول مدرسة إسلامية أفريقية إذ تولى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعريف المسلمين فى المغرب بكتاب الله وسنة رسوله وتفسير الآيات القرآنية ورواية الحديث وتفقيه الناس فى أمور دينهم ، وقد تتلمذ على أيدي الصحابة والتابعين كثيرون من أهل المغرب الذين أقبلوا على الإسلام وتعلم اللغة العربية بل إن المسجد الجامع فى القيروان أصبح مركزا لتلك الحركة الثقافية ومحورها ، تعقد به حلقات دراسة القرآن الكريم وتفسير ورواية الأحاديث ودراسة المذهب المالكى ، وقد شد الرحال العديد من أبناء المغرب إلى مدرسة عمرو بن العاص بالفسطاط حيث درسوا وتفقهوا فيها ، كما شهدت مدرسة القيروان بفضل مصر وجود العديد من العلماء المصريين ورحيلهم إلى بلاد المغرب ، وهكذا انتقلت من مصر إلى القيروان المذاهب الإسلامية ، ومال كثير من فقهاء المغرب إلى المذهب المالكى الذى ازدهر فى الفسطاط ولقى قبولا من فقهاء المغاربة .

وهكذا نجح دور رجال مصر من الصحابة والتابعين الذين استقروا فى المغرب فى أن يساعدوا البربر الذين تحولوا إلى الإسلام فى أن يتحول كثير منهم إلى العربية ، حيث أقبل البربر على تعلم هذه اللغة لقراءة كتاب الله الكريم وتأدية العبادات التى شرعها الله ، وأن يتصلوا بالمصادر الأساسية

لدينهم بالإضافة إلى أن البربر وجدوا فى اللغة العربية أداة طيبة تمكنهم من التفاهم فيما بينهم ، بل الأكثر من ذلك أنه فى القرن الثانى الهجرى شد الرحال منهم العديد إلى مصر وبلاد المشرق الإسلامى للاستفادة من العلم والتثبت من علوم اللغة العربية ، وظهرت فى القرن الثالث الهجرى فئات من البربر تكتب باللغة العربية وتؤلف بها ، وهكذا وجد رعيلا من البربر ومن أهل البلاد الاصليين برعوا فى الثقافة العربية وفهموها حق فهمها ، وقد كان ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى دور مصر حيث لم تعد القيروان مركزا يخرج منه الغزاة بل أصبحت مركزا ثقافيا يخرج منه الفقهاء والمعلمون لينشروا الإسلام فى طول البلاد وعرضها ويعلموا الناس اللغة العربية ، وهكذا دخلت تلك المظاهر الحضارية المصرية الإسلامية إلى بلاد المغرب ، ومن ثم قامت مصر بحمل رسالة الإسلام التى بشر بها المصريون فى بلاد المغرب .

ولقد كان تأسيس الأزهر الشريف فى مصر فى العصر الفاطمى بداية مصرية جديدة لكى تأخذ تلك المنارة الإسلامية وكعبة العلم والمعرفة والعرفان بعدا جديدا للتأثير فى بلاد المغرب ، حيث بدأت تفد إليه وفود الطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامى ، حيث إنه من الطبيعى أن ينال أبناء المغرب والأقطار المجاورة نوعا من العناية حيث أصبح أبناء المغرب يختصون برواق هو رواق المغاربة يقيمون فيه حيث كان لكل طائفة رواق خاص بهم ينزلون به طاعمين كاسين متفرغين للدرس والتحصيل حيث طاب لهم المقام لكى يتمكنوا من دينهم جامعين بين علوم العربية وعلوم الدين . ومن هنا كان طلاب المغرب يضمهم رواق خاص بهم ، وقد ساعد ذلك الرواق على رحيل الكثير من الطلاب المغاربة الذين نهلوا من الأزهر كل فروع المعرفة الإسلامية لقرب المسافة بين مصر وتلك البقاع ، ومن ثم عادوا إلى بلادهم يدرسون ويفقهون ويعلمون الناس مبادىء الإسلام الصحيحة وينشرون الإسلام فى كل بقاع المغرب الواسع ، بل أن علماء الأزهر الشريف تخطوا حدود مصر الغربية لكى يحملوا دعوة الإسلام وينشرون حضارته فى تلك البقاع حيث كان العلماء المصريون موضع التقدير والثقة من جميع سلاطين وحكام بلاد المغرب والذين كانوا يصحبون القوافل إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز . وقد طلبوا منهم أن يسافروا معهم حيث يستقرون فى

بلادهم فأقبلوا عليهم وقربوهم وأجزلوا لهم العطاء وأتاحوا لهم أن يتولوا بعض المراكز الهامة التى كانوا لا يجدون غير المصريين لكى يشغلوها وكان فضل مصر فى بلاد المغرب فضلا لا ينكر حيث إن انتشار المذهب المالكى قد وفد من مصر إلى القيروان ، كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى كالشافعية .

ويذكر ابن بطوطة أن أسد بن الفرات العالم المغربى المشهور فاتح صقلية قد رحل إلى مصر وسمع من عالم مصر فى المالكية (على بن القاسم) إمام المالكية وتأثر به . ويظهر أن ماسمعه المغاربة من علمائهم القادمين من مصر بعد أن درسوا بها وما سمعوا من دروس ابن الفرات قد حببهم فى هذا المذهب دون سائر المذاهب من خلال رغبة علماء المغرب فى الاستزادة فى طلب العلم عن فقه الإمام مالك ، قد دفع فقيه المغرب المشهور (سحنون بن سعيد) للرحيل الى مصر لكى يكتسب علما ومعرفة جيدة وليستمع الى عالم الفقه المالكى (على بن القاسم المصرى) حيث أقام ابن سعيد بالفسطاط زمنا طويلا حتى تشرب مذهب الإمام مالك ، وهكذا بفضل مصر ودورها الدينى والثقافى فى المغرب انتشر المذهب المالكى انتشارا عظيما بل وأصبح فقهاء المالكية فى نظر المغاربة الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ، هكذا طبع المغرب بطابع الثقافة المغربية الإسلامية فى أحلى صورها ، ولا سيما بعد أن لعبت مدرسة القيروان دورها فى إثراء الحركة الثقافية والعلمية الإسلامية بفضل مصر وعلمائها فقد شاركت مدينة تلمسان وغيرها من المدن المغربية الأخرى ، إلا أن مشاركة فاس وجامع القرويين كان أكثر فاعلية ، حيث إن فاس لعبت الدور الأكبر فى إثراء الحركة الثقافية والعلمية فى بلاد المغرب الأقصى .

ومن هنا فإنه يمكن القول بعد الدور الذى قامت به القيروان وشاركت فيه فاس ، فإن المالكية التى وفدت من مصر وتلقى علماؤها المغاربة علومهم فى مدرسة الفسطاط والأزهر الشريف قد أضحت القومية المغربية الأفريقية فى ذلك الحين ، ذلك لأن المعاهد والجامعات المغربية قد رسخت ذلك المذهب فى شمال أفريقيا ، بل أن ذلك قد ساعد أن تلعب المغرب دورها فى خدمة الفكر الإسلامى لا فى بلاد المغرب وحدها بل فى جنوب الصحراء الكبرى ، حيث رحل العديد من علماء المغرب إلى جنوب الصحراء الكبرى لينشروا الإسلام ولكى يخدموا الفكر الإسلامى والثقافة العربية الإسلامية .

وهكذا كان لمصر دورها الرائد فى تثبيت دعائم وأركان المذهب المالكى بل توطيد الثقافة العربية والإسلامية ونشر الإسلام على نطاق واسع فى بلاد المغرب ، بل فى تغذية فقهاء المغرب الكبار (أسد بن الفرات ، سحنون بن سعيد) من منابع المذهب المالكى على يد عالم المالكية (على بن القاسم) حيث كان له الدور الفعال فى انتشار المذهب المالكى فى بلاد المغرب والأندلس ، كذلك هجرة قبائل بنى هلال وبنى سليم ودورهما فى نشر اللغة العربية وطبع البلاد بالطابع العربى .

وهكذا أعطت مصر فأجادت العطاء ، وبذلت من فكرها وعلمها ورجالها فأعطت ثمارها يانعة قطوفها ومنحت فكرها وثقافتها فأتت كل هذه العطاءات ثمارا طيبة فى تربية إسلامية صالحة حيث أرض المغرب ، وحيث كان الفضل كل الفضل فى تعهد بلاد المغرب منذ أن أشرقت عليها أنوار الدعوة الإسلامية فى الربع الأول من القرن الهجرى الأول . حيث تم الفتح النهائى قبل نهاية القرن الأول الهجرى وبعد عدة محاولات تحملت فيها مصر الكثير من الأعباء ، وجاء الأزهر الشريف ليكمل مسيرة مصر سواء فى اعطاء المغرب كل المؤثرات العربية الإسلامية . وهكذا كانت مصر فى كل فتراتها التاريخية تعطى وتهب وتمنح القارة الأفريقية بأقطارها المختلفة فى الشرق والشمال والجنوب والغرب والوسط خبراتها وعلمها وثقافتها وما ذلك ، إلا أن القدر اختارها فى كل أدوار التاريخ لكى تؤدى واجبها ، ونعم القدر والرسالة ، فقد حملت مصر أمانة الشعوب الأفريقية فأجادت حمل الأمانة وأدت رسالتها التى ستظل تذكر أبد الدهر فى كل الأزمنة ، فلا يزال حتى اليوم رجال مصر فى كل ربوع القارة علامة بارزة وشاهدة على الوجود المصرى فى بقاع القارة الأفريقية .

المصادر والمراجع :

(١) الادريسى (محمد بن عبد الله) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . ليدن ، ١٨٩٣م .

(٢) الاضطخرى (ابو اسحاق إبراهيم الفاسى) المسالك والممالك القاهرة ١٩٦١م .

(٣) ابن بطوطة (ابو عبد الله اللوانى) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، القاهرة ، ١٨٣٩م .

(٤) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى) صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٣٨م .

(٥) ابن أبى دينار (أبو عبد الله القيروانى) المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس . تونس ، ١٢٨٧هـ .

(٦) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر ، القاهرة ١٢٨٤هـ .

(٧) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المقدمة ، بيروت ، ١٩٧٨م .

(٨) ابن سعيد المغربى ، بسط الأرض فى الطول والعرض ، تطوان ، ١٩٥٨م .

(٩) البكرى (أبو عبد الله البكرى) المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب . الجزائر ، ١٨٥٧م .

(١٠) التمبكتى (احمد بابا) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، القاهرة ، ١٢٣٩م .

(١١) كعت (محمود كعت التمبكى) تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ووقائع التكرور وعظائم الأمور وتصريف أنساب العبيد والأحرار نشره دلافوس ، هوداس ، باريس ، ١٩١٣م .

(١٢) التونسى ، محمد بن عمر : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، تحقيق خليل عساكر ، مصطفى مسعد ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

(١٣) الزيانى ، سليمان رصد الحنفى . كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ، القاهرة ١٣٢٠هـ .

(١٤) السلاوى ، أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٥م .

(١٥) الزركشي : أبو عبد الله محمد : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماخور ، تونس ، ١٩٦٦م .
(١٦) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٧م .
(١٧) السعدى (عبد الرحمن بن عامر السعدى) تاريخ السودان ، نشرة هوداس ، باريس ، ١٩٠٨م .
(١٨) السيوطى (عبد الرحمن بن أبي بكر) : حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٩م .
(١٩) العمرى ، شهاب الدين العمرى : التعريف بالمصالح الشريف ، القاهرة ١٣١٢م .
(٢٠) الجزنائى (أبو الحسن على) زهرة الأس في بناء مدينة فاس ، تلمسان ، ١٩٢٣م .
(٢١) الدباغ (عبد الرحمن الأنصارى) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢٠هـ
(٢٢) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ١٤ جزءا ، القاهرة ، ١٩١٩م .
(٢٣) ابن جبير (أبو الحسن محمد اللبنى) رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم راتب ، لندن ، ١٩٠٧م .
(٢٤) المقريزى (تقى الدين احمد بن على) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة ، ١٩٣٦م .
(٢٥) المقريزى : السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٦م .
(٢٦) المالكى (أبو بكر عبد الله) رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١م .
(٢٧) المقدسى (محمد بن محمد) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ليدن ، ١٩٠٩م .
(٢٨) ناصر خسرو سفر نامة ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٤٥م .
(٢٩) ابن واصف ، الفهرست لمعجم الخريطة التاريخية للممالك الاسلامية ، القاهرة ، ١٩١٦م .

(٣٠) ياقوت (أبو عبد الله ياقوت الحموى) معجم البلدان ، القاهرة ، ١٩٠٦م .
(٣١) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١م .

المراجع العربية :

(٣٢) إبراهيم أحمد العدوى : مصر الإسلامية ، مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
(٣٣) إبراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
(٣٤) إبراهيم على طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
(٣٥) إبراهيم على طرخان : إمبراطورية غانا الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١م .
(٣٦) أحمد سويلم العمرى : العرب والأفريقيون ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
(٣٧) احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
(٣٨) احمد نجم قليحه : أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، الإسكندرية ، ١٩٦٧م .
(٣٩) جمال حمدان : شخصية مصر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٨٤م .
(٤٠) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، القاهرة ، ١٩٧٥م .
(٤١) جمال زكريا قاسم : الاستعمار البرتغالى وأثره على العلاقات العربية الأفريقية ، القاهرة ، ١٩٧٧م ،
(٤٢) جمال زكريا قاسم : الروابط العربية الأفريقية قبل الكشوف الجغرافية (فصل) القاهرة ، ١٩٧٧م .
(٤٣) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
(٤٤) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
(٤٥) حسن أحمد محمود : البعثات الدبلوماسية فى عصر سلاطين المماليك (فصل) القاهرة ، د . ت .

(٤٦) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، القاهرة ، ١٩٥٤م .
(٤٧) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى . القاهرة ، ١٩٥٧م .
(٤٨) زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٨١م .
(٤٩) زاهر رياض : مصر وأفريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
(٥٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
(٥١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عهد سلاطين المماليك . القاهرة ، ١٩٦٣م .
(٥٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
(٥٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
(٥٤) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس . بيروت ، ١٩٦٩م .
(٥٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، الإسكندرية ، ١٩٦٩م .
(٥٦) أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٨١م .
(٥٧) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

(٥٨) الشاطر بعيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
(٥٩) صلاح العقاد : المغرب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
(٦٠) عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية فى أفريقيا الغربية ، القاهرة ، ١٩٦٢م .
(٦١) عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
(٦٢) عبد الرحمن زكى : تراث مصر فى الحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٥١م .

(٦٣) عبد الرحمن زكى : تاريخ انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
(٦٤) عبد القادر زيادة : مملكة سنغاى فى عهد الاسكين ، الجزائر ، ١٩٧١م .
(٦٥) عبده بدوى : مع حركة الإسلام فى أفريقيا : القاهرة ، ١٩٧٠م .
(٦٦) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، القاهرة ، ١٩٤٧م .
(٦٧) عبد الفتاح مقلد الغنيمى:الإسلام والعروبة فى السودان ، القاهرة ، ١٩٨٥م .
(٦٨) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقيا ، القاهرة ١٩٨٦م .
(٦٩) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى أوروبا ، القاهرة ، ١٩٧٩م .
(٧٠) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : شرق أفريقيا فى ظلال الدعوة الإسلامية ، تحت الطبع .
(٧١) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : انتشار الإسلام فى حوض الكونغو ، تحت الطبع .
(٧٢) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٣م .
(٧٣) الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ، تونس ، ١٩٦٨م .
(٧٤) إحسان عباس : عصر الطوائف والمرابطين ، بيروت ، ١٩٦٢م .
(٧٥) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
(٧٦) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧م .
(٧٧) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، ١٩٨٥م .
(٧٨) عبد العزيز كامل : جغرافية الإسلام فى أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
(٧٩) عبد المجيد عابدين : قبائل السودان الأوسط والسودان الغربى ، الخرطوم ، ١٩٧٣م .
(٨٠) عبد المجيد عابدين : صور من وحدة الفكر العربى فى أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
(٨١) عنايات الطحاوى : افريقيا الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

(٨٢) فليب رفله : العلاقات التاريخية الاقتصادية فى مصر والسودان ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
(٨٣) محمد جمال الدين سرور : دوله بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧م .
(٨٤) محمد صفى الدين أبو العز ، أفريقيا بين الدول الأوروبية ، القاهرة ، ١٩٥٩م .
(٨٥) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
(٨٦) محمد عبد المنعم خفاجى : الأزهر فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
(٨٧) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
(٨٨) محمد المعتصم سيد : القاهرة وحضارة الإسلام فى أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
(٨٩) محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى (فصل) القاهرة ، ١٩٧٧م .
(٩٠) محمد محمد أمين :
علاقات دولتى مالى وسنغاى بمصر فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
(٩١) محمد عبد الغنى سعودى : الاقتصاد الأفريقى والتجارة الدولية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
(٩٢) محمد عبد الغنى سعودى : الاتصالات العربية الأفريقية فى العصور القديمة ، القاهرة ، د . ت .
(٩٣) حكيم أمين عبد السيد : قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
(٩٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
(٩٥) نعيم قداح : أفريقية الغربية فى ظل الإسلام ، كوناكرى ، ١٩٦٠م .
(٩٦) نعيم قداح : حضارة الإسلام وحضارة أوروبا فى أفريقية الغربية ، الجزائر ، ١٩٧٠م .
(٩٧) وزارة الأوقاف المصرية : تاريخ الأزهر وتطوره ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
(٩٨) محمد عبد الفتاح إبراهيم : أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ، القاهرة د . ت .
(٩٩) عرب فقيه (شهاب الدين أحمد عبد القادر : فتوح الحبشة ، باريس ، ١٨٩٨م .

(١٠٠) يوسف أحمد : الإسلام فى الحبشة ، القاهرة ، ١٩٣٥م .
(١٠١) جامع عمر الصومالى : تاريخ الصومال فى العصور الوسطى والحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٠م .
(١٠٢) محمد المعتصم سيد : مهدى الصومال ، القاهرة ، د . ت .
(١٠٣) توفيق ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق أفريقيا وزنجبار ، القاهرة ، ١٩٠١م .
(١٠٤) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، القاهرة ، ١٩٤٧م .
(١٠٥) محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية ، القاهرة ، ١٩٣٩م .

المراجع المترجمة :

(١٠٦) أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
(١٠٧) دافدسن بازل: أفريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال محمد أحمد ، بيروت ، د . ت .
(١٠٨) ريمون فيرون : الصحراء الكبرى ، ترجمة جمال الديناصورى ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
(١٠٩) دبشان هوبير : الديانات فى أفريقيا السوداء ، ترجمة أحمد صادق حمدى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
(١١٠) حسن الوزان (ليو الأفريقى) : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميده ، الرياض ، ١٣٩٩هـ .
(١١١) لوثروب استودارد : حاضر العالم الإسلامى ، تعليق شكيب أرسلان ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

الرسائل الجامعية :

(١١٢) أحمد الياس حسنين : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦م .
(١١٣) بدر الدين عبد الرحمن محمود : النشاط التجارى فى مصر فى العصر

الفاطمى ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧م .
(١١٤) حسن جلال الدين : مملكة مالى الإسلامية ، رسالة ماجستير الدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨م .
(١١٥) حورية عبده سلام : علاقة مصر بالمغرب من الفتح الإسلامى حتى قيام الدولة الفاطمية ، دكتوراة ، آداب ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
(١١٦) حامد عمارة ، علاقة مصر بالبلاد الأفريقية فى العصور الوسطى ، ماجستير ، آداب ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

(١١٧) زين العابدين السراج : دولة كانم الإسلامية ، ماجستير ، آداب - القاهرة، ١٩٧٥م .
(١١٨) شوقى عبد القوى حبيب : العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية فى عصر سلاطنة المماليك ،ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية جامعة القاهرة ،١٩٧٥ .
(١١٩) سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٦٩م .
(١٢٠) عبد العظيم حامد خطاب:قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية فى مصر والشام ، دكتوراة آداب عين شمس ، ١٩٧٣ .
(١٢١) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الإسلامية ، ماجستير ، معهد الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ،١٩٧٥م .
(١٢٢) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة ، سنغاى الإسلامية ، دكتوراة آداب أسيوط ،١٩٨١م .
(١٢٣) عبد الكريم كريم : عصر المولى أحمد المنصور الذهبى ٠دكتوراة ، آداب - عين شمس ، ١٩٦٩م٠
(١٢٤) عطيه القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الدولة العباسية دكتوراة آداب القاهرة ١٩٧٣ .
(١٢٥) على أبو بكر : الثقافة العربية فى نيجيريا ٠ دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٦٨ م .
(١٢٦) محمد أنور علم : دولة سنغاى الإسلامية ، ماجستير ، معهد الدراسات الأفريقية ـ القاهرة ، ١٩٧٧ .
(١٢٧) مصطفى على السيولى : تاريخ التجارة الخارجية فى مصر إبان العصر

العثماني ، ماجستير ، آداب القاهرة ١٩٧٥م .
(١٢٨) نبيلة محمد حسن : انتشار الإسلام فى السودان الغربى . ماجستير ، آداب -الإسكندرية،١٩٧١ م .
(١٢٩) ناطق صالح مطلوب : نيل الابتهاج بتطريز الديباج . ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٩٧٣م .
(١٣٠) ياسين محمود مراد : الحدود السياسية فى غرب افريقيا ،دكتوراة ،آداب - القاهرة ،١٩٦٦
الدوريات : .
(١٣١)إبراهيم طرخان : البرتغاليون فى غرب أفريقيا ، مجلة آداب - القاهرة ، ١٩٦٣ .
(١٣٢) إبراهيم طرخان : الإسلام واللغة العربية فى غرب أفريقيا ، مجلة آداب القاهرة ،١٩٦٥ .
(١٣٣) أحمد فخرى : الواحات البحرية ،المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥١م .
(١٣٤) جمال زكريا قاسم : المماليك الإسلامية فى الحبشة ، مجلة العربى الكويتية،أبريل، ١٩٧٣ م .
(١٣٥) حسن أحمد محمود : دور العرب فى نشر الإسلام والحضارة فى غرب أفريقيا،المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٦٨ م .
(١٣٦) حسين مؤنس : أثر ظهور الإسلام فى البحر الأبيض المتوسط، المجلة التاريخية ،١٩٥١ م .
(١٣٧) زاهر رياض : اتجاهات مصر فى العصور الوسطى ، مجلة ادآب القاهرة ١٩٥٨م .
(١٣٨) صبحى لبيب : التجارة الكارمية فى العصور الوسطى ، المجلة التاريخية ، ١٩٥٢ م .
(١٣٩) عبد العزيز كامل :وجه الإسلام فى القارة الأفريقية والسياسة الدولية المصرية ، مايو ١٩٦٦ .
(١٤٠) عبد الرحمن بدوى : أفريقيا والثقافة العربية بمجلة نهضة أفريقية ، أكتوبر ، ١٩٦١ م .
(١٤١) قاسم زهيري : المماليك الإسلامية القديمة فى أفريقيا السوداء -مجلة دعوة الحق المغربية ، مايو ،١٩٦٩ .

(١٤٢) محمد عبده مخلوف : الإسلام فى غرب أفريقيا ، مجلة نهضة أفريقية، ١٩٦٦ .

(١٤٣) محمد مصطفى زيادة . نهاية السلاطين المماليك فى مصر ، المجلة التاريخية ، ١٩٧١ .

(١٤٤) جمال زكريا قاسم:استقرار العرب فى ساحل شرق أفريقيا ، مجلة آداب عين شمس ، ١٩٦٥ .

(١٤٥) نقولا زيادة : طرق القوافل التجارية بين المغرب والسودان الغربى ـ المجلة التاريخية ، ١٩٧٥ .

1- Alexander, L . B. Form Niger to nile combridge. 1971.
2- Andermon, J.R. Islamic law in Africa. London, 1967.
3- Babolala. E. O. The advrrent and growth of islams in west Africa. Lbadon, 1975.
4- Berand, V. Le empire de Gao. Paris, 1942.
5- Bovill, E.W. The golden trade of Moors. London, 1933.
6- Bovill, E.W. Garvans of the of shara. London, 1933.
7- Bridge, L.C. Tribes of the shara. oxford, 1960.
8- Church, R.H. West Africa. London. 1967.
9- Cooley, W.D. The Nogro land of the arabs. London, 1966.
10- Brenner, L. The North African trading community Accentral sudan, 1971.
11- Crowder, M. History of west Africa. London, 1971.
12- Dubuis, P. Tombouctou. La mysterieusse. Paris, 1947.
13- Fage, J.D. History of west Africa. Canbridge, 1964.
14- Dike, K.C. Trade and politices in Nigerdelta . oxford, 1974.
15- Hogben, S.J. Thehistory of Islamic states of Northern Nigeria. Ibadan, 1967.
16- Hodgkin, T. The Kindgoms of western sudon, London, 1963.
17- Hopkins, A.G. An economic History of west Africa, London, 1973.
18- Hopkins, A.G. Medieval Muslum Governnent in Bardary London, 1958.
19- Julein A. Histiore de L'Afviqne du Nord, Paris, 1931.
20- Levtzion, N. Ancient Ghanac and Mali, London, 1973.
21- Poncet, w, Avoyage to Aethiopia. London, 1938.
22- Budge, E.W. Ahistory of Ehtlopia. London, 1936.
23- Burton, D. Firstfoot steps in East Africa. London, 1951.
24- Couplond, A. East Africa and its invaders, Landon, 1938.
25- Dole, G. The Peoples of Zanzibar, London, 1934.

26- Hollingsworth, L.W. Ashort history of theeast caast of Africa. London, 1955.
27- Flint, J.E. History of Nigeria and Ghana. London, 1966.
28- Greenberg, J. Influence of Islam on Sundanese Reliogion N.Y 1946.
29- Gibb, A. Islamic society and the west Oyford, 1950.
30- Lewis, I.M. Islam in tropical Africa. London, 1955.
31- Jarrett, J.E. Africa. London, 1974.
32- Mauny, R. Notes d'archeologie an suget de gao. Dakar, 1957.
33- Hichens, W. Islam in East Africa. London, 1940.
34- Triming ham, J.a. Islam in Ethiopia. Oxford, 1959.
35- Trimmghan, J.S. Islam in west Africa. London, 1959.
36- Terrasse, H. Histiore du maroc. Paris, 1946.
37- Massignor, L. Le Maroc dans des premieres anneels duxll siecles, Aleger, 1906.
38- Newmas, B. Marocco to day, 1923.
39- Meek, C.K. Asudanese Kindgoms, London, 1971.
40- Palmer, R. The Bornu shara and sudan, London, 1963.
41- Shinnie, M. Ancient Africon Kindgams Londan, 1963.
42- Walz, T. Trade Between Egypt and Bilad Elsudan Cairo, 1979.
43- Ward, E.W. History of Africa, Londan, 1960.
44- Poncet, J. The Redsea and Adjacent countries, London, 1949.
45- Vischer, A. Arcossthes hara from Tropoli Bornu, London, 1968.

الفهرس

الباب الثالث

دور مصر الحضارى فى شرق أفريقيا والحبشة

الباب الرابع

دور مصر الحضارى فى بلاد المغرب

رقم الايداع
٥٨٩٧ / ٩٢

الترقيم الدولى

i - s - b - n

٩٧٧ ـ ٢٥١ ـ ٦ ـ ٥

هذا الكتاب

هذه دراسة عن دور مصر الحضاري في القارة الأفريقية في العصور الإسلامية أو العصور الوسطى أو ما يمكن أن نطلق عليه عصر ما قبل استعمار القارة الأفريقيه ، قصد منها تبيان الدور المصرى البارز والفعال والمؤثر في الساحة الأفريقية ، وكيف أن مصر جادت بعطائها فأحسنت العطاء في مختلف العصور الإسلاميه من منطلق واجبها المقدس تجاه الاخوة الافارقة ، ومحاولة الأخذ بيد هذه الشعوب إلى مدارج الرقي الحضاري . ولقد برز دورمصر منذ الفتح الإسلامي ، حيث طبعت مصر بالطابع الإسلامي ، ومن هنا خرج المصريون يحملون لواء الإسلام ومشعل الحضارة الإسلاميه دعاة هداية في كل ارجاء القارة ، وكيف أن ذلك الدور اكتسب صورة مصريه قوية بظهور مدرسة الفسطاط (جامع عمرو بن العاص) والجامع الأزهر الشريف كعبة العلم وركن الثقافة وملاذ العلماء والمفكرين وجهابذة الدين والفقه ومقصد طلاب العلم من كل انحاء القارة الأفريقية بل من كل أنحاء العالم . وكيف قدم هؤلاء الطلاب إلى مصر لكى ينهلوا علومهم الإسلاميه من هذا المنهل الصافي العذب الذى ضم أئمة الفقه والدين والتفسير والحديث والفلك والرياضة وكل علوم العصور .

وكيف كانت الخلافه العباسيــة والأزهر الشريف والانتصارات المصريه على المغول والتتار والصليبيين سببا في أن جعلت مصر مقصد الرسل والملوك والسفراء ، وكيف أن مصر مارست دورها من خلال الرؤية العلميه الصحيحة باعتبارها قلب العالم الإسلامي والدولة الإسلاميه الكبرى الرائدة في ذلك العصر .

وعلى هذا كان ذلك البحث عن دور مصر الحضاري ـ السياسي والاقتصادي والثقافي وأثره في كل شعوب القارة ـ بيانا واضحا وشاهدا على أن القدر القى على مصر مسئولية القيام بواجبها تجاه أبناء القارة .